المرأة الصينية

سرورها وحزنها



دار النشر باللغات الاجنبية بكين



GIFTS OF 2000

THE EMBASSY OF THE PEOPLE REPUBLIC OF CHINA - CAIRO

المرأة الصينية
سرورها وحزنها

بقلم : شيوى شيو يوى وتشو كوى جيه

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الاولى . . . . عام ١٩٩١

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٣٧

ISBN 7-119-01233-9

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

مقدمة

الكتابة من اجل الأخوات ـ غرضنا المشترك

اننا مثقفتان فى سن الكهولة ، ونحب حبا جما اعمال التحرير ، كل منا زوجة وأم . حولنا كثير من الاخوات العاديات اللواتى يعملن بجد واجتهاد فى سبيل تحقيق آمالهن . ومن بينهن من تتجاوز طاقتها فى العمل بغض النظر عن مدى المكافأة . ومن بينهن من تعيش فى اسرة سعيدة مع زوج مثالى ، ومن تعيش فى اسرة تفتقر الى الانسجام ، ولكن افراد عائلتها يمكنهم ترك الخلافات جانبا ، ومن تعيش بقلب جريح . ومن بينهن من أتمت التعليم العالى واصبحت نابغة النوابغ وقوية القويات فى مجال اختصاصها ، ومن تكدح من اجل افراد اسرتها شيوخا واطفالا ، ومن تعيش فى فرح وسرور ، ومن تعيش فى حزن وأسى ... ان المرأة الصينية فى الثمانينات تظهر بملامحها الجديدة المتعددة ، فكيف يعشن ؟ وكيف يحققن مطامحهن ؟ وكيف ينظمن حياتهن الاسرية ؟ وكيف ينظمن علاقاتهن بأزواجهن وأولادهن وغيرهم من الاقرباء . كنا نود ان نكتب بعض التقارير الصحفية ردا على هذه الاسئلة ، ولكن تغطية اخبار المرأة الصينية

تغطية شاملة ليست امرا سهلا ، ذلك ان المرأة الصينية تحتل نصف المجتمع الصينى الذى يبلغ تعداده بليون نسمة ، فقصرنا عملنا على مجموعة من النساء العاملات ثم اخترنا الشخصيات والمجالات النموذجية ، وجعلناها نافذة يطل منها القراء على المرأة الصينية .

اما عنوان الكتاب « المرأة الصينية ـ سرورها وحزنها » فقد اتفقنا عليه مصادفة ، دون تشاور مسبق فيما بيننا . وبعد تحديد العنوان شرعنا فى العمل بدعم من مختلف الجهات ، فقمنا باتصالات مكثفة ، واجرينا مقابلات صحفية . وبعد ان وضعنا الفكرة العامة لهذا الكتاب ، وجمعنا ما تيسر لنا من المواد بدأنا فى الكتابة . وخلال مدة تجاوزت السنة قمنا باتصالات واسعة النطاق فى مختلف مجالات المرأة ، واجرينا ما يزيد عن ٥٠ مقابلة صحفية مع النساء العاملات . ولم نرفض خلال ذلك مساعدات مواطنينا الذكور . وجدير بالذكر أن كثيرا من الرجال قدموا لنا بكل حماسة مواد رائعة او آراء صائبة .

وواجهتنا بالطبع كثير من الصعوبات . فلم يكن من اليسير علينا مثلا ان نقابل كل من نود اجراء مقابلات صحفية معهن ، بل حتى مجرد الاتصال بهن كان امرا صعبا ، وزد على ذلك ما اعترضنا من عراقيل بين تغطية الاخبار من اجل تأليف هذا الكتاب واعمالنا المهنية الاخرى ، وبين كثافة اعمالنا المهنية وكثرة شؤوننا المنزلية . ولكننا بتأثير وتشجيع من المعنويات العالية لتلك الشخصيات التى كتبنا عنها فى هذا الكتاب ذللنا جميع الصعوبات واحدة بعد الاخرى .

واننا لنرجو من القراء الاعزاء ان يتلمسوا قدرة المرأة الصينية من خلال قراءة القصص الواردة فى هذا الكتاب ، وان يضيفوا اليها ما لديهم

من سابق معرفة ومعلومات عن المرأة الصينية ، وبذلك نشعر بالارتياح والسلوان ، ونطمئن الى ان عملنا الذى استغرق سنة واكثر قد حقق الهدف المنشود . اما المشقات والمتاعب التى عانيناها فى اسفارنا من اجل تغطية الاخبار متحدين العواصف والامطار والبرد القارس والحر القائظ ، فسننساها جميعا ، ولا يبقى فى القلب الا المودة والمحبة .

وجدير بالذكر ان تأليف هذا الكتاب قد حظى بمساعدة عدة خبيرات اجنبيات يعملن فى الصين ، حيث قدمن آراءهن القيمة حول كيفية تأليف هذا الكتاب . لقد جئن الى الصين من عدة دول ومناطق ، ولكنهن يأملن جميعا ان يعرفن المزيد عن عمل المرأة الصينية ومعيشتها ومكانتها . فان تفكيرهن فى هذا الصدد مثل تفكيرنا . ومن بينهن صديقة امريكية تدعى ماشا ، عملت فى الصين اكثر من ست سنوات . وانها على الرغم من مشاغلها قد شاركتنا بحماسة فى اجراء مقابلات صحفية مع المعلمات فى مدرسة بيتشى فى الحى الغربى بمدينة بكين ، ومقالة "عطاء فى الحب اصيل" كتبتها هى باللغة الانجلزية مباشرة .

حيثما وصلنا واعربنا عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، حظينا بالتأييد والمساعدة . فقد حصلنا مثلا على تأييد وعون من اتحاد النساء لعموم الصين واتحاد النساء بمدينة بكين ودائرة الاعلام التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، ومجلة المرأة الصينية واتحاد النساء فى مدينة شانغهاى ، ومن جميع اللواتى اجرينا معهن مقابلات صحفية ومن الدوائر التى يعملن فيها . فالى كل من امدنا بالعون والتأييد نتقدم بخالص شكرنا وعظيم امتناننا . والذى نرجوه هو ان يتيح كتابنا هذا

فرصة اللقاء القلبى بين النساء الصينيات والاجنبيات ، ويسهم فى زيادة التعارف والصداقة بينهن .

ولا بد من الاشارة الى اننا لم نجهد انفسنا فى تدقيق العبارات وتنسيق الاسلوب ، وانما اكتفينا بتسجيل حياة المرأة الصينية المتنوعة على حقيقتها بقدر ما اسعفنا الظرف والجهد .

ولسوف نستهل كتابنا هذا بنبذة عن الظلم الطويل الذى تعرضت له المرأة الصينية فى الماضى ليعرف القراء الاعزاء طريق الكفاح الشاق الذى خاضته المرأة الصينية حتى تحررت من نير الاضطهاد .

الفهرس

في مختلف المراحل التاريخية لتطور المجتمع الانساني كانت مكانة المرأة في المجتمع والاسرة مختلفة باختلاف الانظمة الاجتماعية. والامة الصينية ، شأنها شأن بقية الامم في العالم ، قد مرت بالمجتمع البدائي الذي استغرق مئات الآلاف من السنين . وفي تلك الحقب كانت وسائل الانتاج عامة الملكية ، وكان هناك تقسيم طبيعي للعمل بين العنصرين الرجالي والنسائي اللذين يلعبان دوريهما المختلفين في تطوير الانتاج وتكاثر النسل . وكانت المرأة تتولى ملكية الممتلكات وتتقلد المناصب العامة في الكومونات العشائرية ، فالسلطة العليا في يدها . وهذه هي مكانة المرأة في زمن المجتمع العشائري الامومي (اي السلطات العليا في هذا المجتمع في ايدي الامهات) .

ومع تطور القوة المنتجة طرأت تغيرات على حياة الانسان البدائي ، حيث دخل الرجال تدريجيا في مجالات الانتاج الرئيسية ، يمتلكون وسائل الانتاج والمنتجات ، ويلعبون دورا متزايد الاهمية . اما النساء فانتقلن تدريجيا الى مجالات العمل الثانوي والشؤون المنزلية . ولم يعدن يشغلن المكانة الرئيسية في خلق ثروات المجتمع . وقد ادى تغير تقسيم العمل بين العنصرين الرجالي والنسائي الى فقدان المرأة ملكية الممتلكات ، فابعدت عن العمل الانتاجي ، واصبحت ضعيفة اقتصاديا . وهكذا اضمحل النظام الامومي بالتدريج ، وبدأ يتشكل نظام ملكية خاص واسر قوامها الرجال . كما تطور نظام الزواج تدريجيا من النظام العشائري الامومي الى "الزواج الاحادي" الذي يقضي بأن تلتزم به الزوجة دون الرجل . فأصبح الرجل الذي يمتلك وسائل الانتاج يتولى الحكم في الاسرة كذلك ، بينما صارت المرأة

عبدة للرجل ، لاينظر اليها الا على انها مصدر لمتعته الجنسية ووسيلة للتكاثر . وكان الزوج يطلب من زوجته ان تحافظ على عفتها بغية الحفاظ على صفاء دم الوارثين لممتلكاته .

ومع بداية عهد اسرة شيا فى القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد انتقلت الصين من المجتمع البدائى الى المجتمع العبودى . وفى هذا المجتمع لم يعد اسرى الحرب العشائرية يقتلون كما فى الماضى ، بل يحتفظ بهم عبيدا . اما السبايا فيتخذن حظايا لزعماء العشائر المنتصرين فى الحرب . وكانت المرأة من طبقة ملاك العبيد تعانى كذلك من قيد " استعظام الرجل واستذلال المرأة " ، فتظل حبيسة المنزل طول حياتها ، تشرف على العبيد وتضطلع بمهمة التناسل .

وفى المجتمع الابوى الاقطاعى اوجد دعاة افضلية للرجال كثيرا من السفسطات الداعية الى اضطهاد المرأة ، وهذه السفسطات كانت بمثابة قيود على المرأة تمنعها من التحرر .

وكان قيد " استعظام الرجل واستذلال المرأة " يعانيه الجنس اللطيف منذ لحظة الولادة ، حيث الوليدة لا تعامل معاملة متكافئة . وقد ورد فى ديوان « شياو يا » قصيدة تقول : " ان الوليد ينام على السرير ويلبس السروال ويلعب بالادوات اليشمية ، اما الوليدة فتنام تحت السرير ولا تلبس الا قطعة من القماش تغطيها ، وتلعب بالمغزل الخشبى . "

وفوق ذلك قد ترمى الوليدة فى الشارع فتصبح لقيطة او تلقى فى الماء لتغرق . وقد ظهر اغراق الوليدة الى حيز الوجود فى زمن قديم يعود الى عهد اسرة تشين (٢٢١ — ٢٠٧ ق . م) وقد وردت فى سجل

تاريخي عبارة تقول : " التهنئة للوليد والاماتة غرقا للوليدة ." وتعنى الاماتة غرقا اغراق الوليدة فى الماء بعد ولادتها مباشرة ، وتركها تبكى حتى الموت . وهذه وحشية لا يتحملها العقل ، ولكنها دامت اكثر من الفى سنة حتى عصرنا الحديث .

وفقا للاخلاقيات الاقطاعية الصينية لا يسمح للطفلة بعد السنة السابعة من عمرها بمشاركة الاولاد فى اللهو والتسلية ، كما لا يسمح لها بأن تجلس مع الاولاد فى نفس المقعد ، او تنام معهم على نفس السرير ويجب البدء فى لف قدميها بشرائط قماشية طويلة لمنع نموهما نموا طبيعيا ، اذ ان الفتاة ذات القدمين الطبيعيتى النمو لا يتزوجها احد فى ذلك العهد ، بل تظل عرضة للسخرية مدى حياتها . وقد اثبتت التحقيقات التاريخية ان لف قدمى الفتاة ظهر اول ما ظهر فى القرن العاشر الميلادى . وكان الامبراطور لى يو فى اسرة تانغ الجنوبية قد امر بلف قدمى محظيته ياو نيان كى تصبحا صغيرتين فى هيئة جديدة . ومن ذلك الحين بدأ بلاط الملك واسر الاغنياء تعتبر لف قدمى الفتاة من اسباب تجميلها فى المستقبل ثم انتشر هذا الميل وسط الشعب حيث بدأت عامة الناس تتقلد بذلك . وهناك مثل شعبى قديم يقول " ان قباحة الرأس تدوم يوما ، بينما قباحة القدمين تدوم طول الحياة " وهذا ما يدل على مدى اهمية لف القدمين بالنسبة للمرأة . وهكذا اضطرت الام بغية تزويج ابنتها فى المستقبل بسهولة الى لف قدميها بلا رحمة . وبعد تعويق العظام تصبح القدمان السليمتان صغيرتين معوقتين طول الحياة . واذا بحثنا عن دواعى لف القدم وجدناه يستهدف اولا استرضاء الرجال ذوى الاذواق الشاذة فى المعايير الجمالية ، وثانيا

تقييد حركة المرأة فلا تستطيع الخروج من البيت بسهولة . ولقد دامت عادة لف اقدام النساء ما يقرب من الف سنة ، على امتداد عهود الاسر الاربع سونغ ويوان ومينغ وتشينغ . وعلى الرغم من ان الشخصيات العاقلة على تعاقب الاجيال فى التاريخ قد كافحت لمهاجمة هذه العادة الاقطاعية السيئة ، لكنها لم تتعرض للمهاجمة على نطاق المجتمع الا بعد نشوب ثورة مملكة تايبينغ السماوية عام ١٨٥١ . اما التحرر النهائى للمرأة الصينية من لف القدم فيرجع الفضل فيه الى ثورة عام ١٩١١ التى قادها الدكتور صون يات صن . ولكن فى بعض المناطق النائية المتخلفة لم تلغ هذه العادة السيئة كليا الا بعد قيام الصين الجديدة عام ١٩٤٩ .

ولم يكن للنساء فى المجتمع الاقطاعى اسماء عادة (ما عدا النساء فى الاسر الارسطقراطية القليلة) وعلى الرغم من ان لبعضهن اسماء فى ايام الطفولة ، الا انها لم تستعمل بعد الزواج . وجاءت تسميات النساء فى كتب «سير النساء العفيفات» فى العهود القديمة المتعاقبة على صيغة " زوجة فلان الفلانى " او " السيدة + اسم زوجها " بعد الزواج . وألقاب الزوج والزوجة لم تكن متساوية اطلاقا فى العهد القديم فالزوجة كانت تدعو زوجها بألقاب محترمة مثل " الزوج المولى " و" السيد " و" الطيب " ، بينما يدعوها الزوج بألقاب مهينة مثل " غصين الشجرة " و" الوضيعة فى البيت " و" العصافة " بين اوساط المثقفين و" ملازمة البيت " و" وقادة الفرن " و" محضرة الطعام " بين عامة الشعب .

وقد شاع فى الصين القديمة قول مأثور : " ان عدم نبوغ المرأة

يعنى ادبها " ، والمقصود بذلك هو معارضة تعليم المرأة . وقد ظهر هذا القول فى عهد اسرة مينغ . ومصدره قول كونفوشيوس بأن المرأة والحقير لا غير يصعب تهذيبهما . وزعم المدافعون عن الاخلاقية الاقطاعية قائلين : " ان تعليم المرأة يؤدى عادة الى الدعارة " . اى ان تعليم المرأة سيؤدى حتما الى انحطاطها . وحتى لو سمح للمرأة بتعلم القراءة فان مقدار التعلم محدود جدا . ولذلك كان الجم الغفير من النساء فى المجتمع الاقطاعى أميات ، ما عدا قلة من بنات الاسر الارسطقراطية والمؤمسات المشهورات . وفوق ذلك اجبرت المرأة المتعلمة بعض الشىء على قراءة تلك الكتب التى تنشر النظريات والاخلاقيات الاقطاعية .

وكان اشد محنة جلبها المجتمع الاقطاعى على المرأة هو نظام الزواج غير المعقول . فتزويج المرأة امر يقرره الوالدان عن طريق وسيط الزواج ، وليس للمرأة نفسها حق الكلام فى هذا الامر على الاطلاق . بل ان العروس لا تعرف ملامح عريسها قبل الزواج . وهناك قول مأثور : لو تزوجت المرأة ديكا تعيش مع الديك ، ولو تزوجت كلبا تعيش مع الكلب ، ولو تزوجت فأسا تحمل الفأس . ومهام المرأة بعد الزواج ليست الا انجاب الاولاد وتربيتهم وخدمة الزوج ومراعاة والديه والقيام بالاعمال المنزلية والاطاعة المطلقة للزوج ووالديه .

اما الطلاق فاعتبر تطليق الزوج زوجته امرا مسوغا تماما ، بينما اعتبر ترك الزوجة زوجها خيانة كبرى . وقد نص قانون العقوبات فى اسرتى تانغ وسونغ على ان يحكم على الزوجة التى تترك زوجها بالسجن ثلاث

سنوات ، وعلى المرأة التى تتزوج من جديد بالنفى بعيدا . ونص قانون العقوبات فى اسرة تشينغ على ان يحكم على المرأة التى تفر من البيت تاركة زوجها بالضرب مائة سوط ، وعلى المرأة التى تترك زوجها وتتزوج رجلا جديدا بالاعدام شنقا .

وكان هناك ذرائع عديدة يتذرع بها الزوج لتطليق زوجته . فبناء على الاخلاقيات الاقطاعية يمكن للزوج ان يطلق زوجته اذا قامت بأى من " الاعمال المعيبة السبعة " التالية : عدم طاعة الوالدين ، عدم انجاب الذكور ، الانغماس فى الفجور ، الغيرة ، الاصابة بمرض خبيث ، اثارة الخلافات بكثرة الثرثرة ، السرقة . وهناك من الرجال من كانوا يتنكرون لزوجاتهم بعد ان يصبحوا اغنياء ومشاهير ، او يتركون زوجاتهم القديمات بعد ان يجدوا عشيقات جديدات . فكم من النساء الطيبات البريئات تعرضن للنبذ والترك من ازواجهن .

وكان المجتمع الاقطاعى كذلك يمدح ويمجد الزوجات اللاتى يحافظن على عفتهن بعد موت ازواجهن ، اى يحث الارملة على عدم الزواج ابدا بعد وفاة زوجها . ويسمى ذلك " اتباع الزوج الواحد طول الحياة " . وقد نشر لهذا الغرض كتاب « سير النساء العفيفات » بين جميع الاسر المتعاقبة بعد اسرة هان (عام ٢٠٦ ق . م — ٢٢٠م) . وبعد اسرة سونغ اصبحت الطبقة الحاكمة تبالغ فى تمجيد الاخلاقية الاقطاعية من هذا النوع . فهناك قول : " ان الموت جوعا امر تافه ، بينما عدم عفة الارملة امر هائل " . وبالرجوع الى السجلات التاريخية الواردة فى كتاب « تواريخ العهود الاربعة والعشرون » يتبين ان عدد النساء الارامل العفيفات قد ازداد على تعاقب العهد ،

حيث وردت ٥٤ امرأة من هذا النوع فى «تاريخ تانغ» و٥٥ فى «تاريخ سونغ» ، و١٨٧ فى «تاريخ يوان» . وجدير بالذكر ان المؤرخين فى اسرة تشينغ قد اوردوا فى «تاريخ مينغ» ذكرا لما لا يقل عن ١٠ آلاف امرأة من النساء الارامل العفيفات ، ومن بينهن ٣٠٨ من النساء البارزات .

هذا وان نظام الرق ونظام المومسات اللذين داما آلاف السنين قد عرضا المرأة الى اشنع معاملة . فكانت الرقاق لا يعانين من اعادة البيع والتعذيب والحبس مثل الارقاء فحسب بل يتعرضن من سادتهن كذلك للنبذ والاغتصاب والزواج القسرى بل حتى القتل . اما المومسات اللاتى يعشن على بيع اجسادهن فهن من اكثر النساء آلاما ، حيث اضطررن من اجل العيش الى عمل ما لا يرغبن فى عمله ، كما اضطررن تحت اوامر سادتهن الى القيام بأعمال يزدريها طبعهن . وان ما يقدمنه هو اجسادهن ، ولكن ما يحصلن عليه هو الاهانة والاحتقار .

واما نظام القرابين البشرين البربرى الذى بدأ فى المجتمع البدائى وانتهى فى اسرة تشينغ فكان مصيبة كبرى حلت بالمرأة ، حيث بلغت نسبة الضحايا من النساء حدا كبيرا .

ان ثورة مملكة تايبينغ السماوية ، تلك الحركة الفلاحية التى نشبت فى عام ١٨٥١ ، هى التى بشرت باقتراب تحرر المرأة . اما ثورة عام ١٩١١ الديمقراطية التى قادها الدكتور صون يات صين فهى التى جلبت للمرأة الامل فى تحررها . ولكن خلال الفترة الممتدة من بداية اسرة تشينغ الى ما قبل قيام الصين الجديدة عام ١٩٤٩ لم تصدر

حكومة تشينغ وحكومة امراء الحرب الشماليين وحكومة تشيانغ كاى شيك اى قانون يضمن المساواة بين الرجل والمرأة وحرية الزواج ضمانا حقيقيا ، لذلك لم تتغير وضعية المرأة تغيرا جوهريا . وكانت العاملات الكادحات فى الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن يعملن عادة ١٢ ساعة فى اليوم بأجور طفيفة ، ويعشن عيشة ضنكا .

وكان عدد المثقفين فى الصين القديمة قليلا ، وعدد المثقفات اقل . وقد بلغ عدد الطالبات اعلى حد له سنة ١٩٣٦ ، لكن نسبتهن من مجمل عدد الطلبة لم تزد عن ٨ر١٧٪ فى المدارس العليا و١ر٢١٪ فى المدارس المتوسطة المهنية و٢٠٪ فى مدارس المتوسطة و٥ر٢٥٪ فى المدارس الابتدائية . ولم يكن الطلبة يحصلون على الوظيفة بعد التخرج ، هذا بالاضافة الى العطالة بعد الزواج بالنسبة للطالبات . فكثير من الدوائر الحكومية رفضت علنا قبول المتزوجات وحتى الموظفات غير المتزوجات . واكثر تواجد للنساء العاملات كان فى المدارس والدوائر الحكومية . ولكن جاء فى احصاء قامت به مدينة تشنغدو عام ١٩٣٧ ان عدد المعلمات فى المدارس الابتدائية يحتل ٢٠٪ من مجمل عدد المعلمين . كما جاء فى احصاء قامت به دوائر حكومة الكومينتانغ فى مدينة تشونغتشينغ عام ١٩٤٧ ان عدد الموظفات يحتل ٦ر٤٪ من مجمل عدد الموظفين . ووظائفهن فوق ذلك وضيعة ، ورواتبهن ضئيلة ومعيشتهن فى غاية الصعوبة .

وقد شاعت فى الصين اغنية شعبية تقول كلماتها : " ان المجتمع القديم هوة سحيقة للمرارة والظلام ، لا ترى فيها الشمس ولا السماء . للكادحون فيه يعملون كالبهائم دون توقف ويعانون من عذاب لا

ينتهى . اما المرأة ففى قرار هذه الهوة السحيقة . "

كم كانت المرأة تتمنى ان ترى النور وان تتحرر ! وكم من الصفحات الكفاحية سجلها لها التاريخ حتى حل يوم تحررها فى نهاية المطاف .

التحرر

بعد ان تخلصت المرأة الصينية
من الآلام الشديدة التى دامت آلاف
السنين أصبحت اليوم تنعم بأنوار
الشمس المشرقة والزاهية ...

ان ظلم المرأة الطويل قد تم عرضه على محكمة التاريخ فى النهاية ، فقد انتهى الظلام الذى استمر آلاف السنين حين اعلن قيام جمهورية الصين الشعبية فى اول اكتوبر عام ١٩٤٩ . فكانت حكومتها اول حكم شعبى من الطراز الجديد فى تاريخ الصين . واصبح تحرر المرأة شاملا وعميقا فى هذا البلد . فان « المنهاج المشترك للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى» الذى اجيز فى عشية تأسيس الجمهورية و« دستور جمهورية الصين الشعبية » الذى صدر فى عام ١٩٥٤ و« دستور جمهورية الصين الشعبية » الذى تم تعديله تعديلا شاملا فى عامى ١٩٧٨ و١٩٨٢ قد ألغت كلها ذلك النظام الاقطاعى الذى يقيد المرأة ، وقدمت الضمان الاساسى لتمتع المرأة بحق المساواة مع الرجل فى مجال السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والحياة الاجتماعية وغيرها . وقد نص الدستور بعبارات واضحة على اشتراك المرأة فى الحكومة ، وضمن حق المرأة فى التصويت والترشح للانتخاب ، الامر الذى اتاح للمرأة فرصة الاشتراك فى ادارة شؤون الدولة الهامة وفى مشاركة الرجال فى التشاور حول امور الدولة وفى وضع السياسات العامة للدولة . وعلاوة على ذلك اختيرت بعض النساء النوابغ الى مناصب القيادة على مختلف المستويات للاشتراك المباشر فى الحكومة والاعمال الادارية . فانتخبت مثلا نائبات الى المؤتمر الوطنى لنواب الشعب الصينى ، اعلى جهاز سلطة فى الصين . فعدد نائبات المؤتمر الوطنى الاول المنعقد عام ١٩٥٤ بلغ ١٤٧ نائبة ، وهذا العدد يحتل ٩ر١١٪ من مجمل عدد نواب المؤتمر . كما وصل عدد نائبات المؤتمر الوطنى السادس المنعقد عام ١٩٨٣ الى ٦٣٢

نائبة . وهذا العدد يحتل ٢ر٢١٪ من مجمل عدد نواب المؤتمر . اما عدد الموظفات اللواتى يعملن فى الدوائر الحكومية المركزية فهو فى ازدياد كذلك . فقد ارتفع عدد الوزيرات ونائبات الوزراء من ١٠ نساء عام ١٩٨٣ الى ١٢ عام ١٩٨٦ ، وارتفع عدد رئيسات المقاطعات ونائبات رؤساء المقاطعات من ٧ عام ١٩٨٣ الى ١٠ عام ١٩٨٦ . وهؤلاء يمثلن المرأة الصينية . والمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى هو منظمة الجبهة المتحدة الثورية التى يقودها الحزب الشيوعى الصينى ، واعضاء هذه المنظمة مختارون من مختلف اوساط الشعب ، فتمثيلهم واسع ، وعدد عضوات المؤتمر الاستشارى السياسى فى ازدياد كذلك ودورهن يتنامى شيئا فشيئا .

وخلال السنوات الاخيرة دأبت صفوف النساء الكادرات على التطور . وقد بلغ عدد الكادرات فى مختلف انحاء البلاد حاليا قرابة مليون ، بزيادة ٧٥٪ عما كان عليه قبل عام ١٩٧٨ ، الامر الذى يدل على ان قدرة المرأة الصينية فى ارتفاع مستمر ، ودورها فى الاصلاح والانفتاح على العالم يزداد اهمية اكثر فأكثر . وقد انبثقت منهن كادرات قويات سياسيا ومهنيا وقادرات على الاعمال التنظيمية والقيادية ، فتم اختيارهن الى مناصب القيادة على مختلف المستويات . ويوجد الآن ٨٠ الفا من الكادرات ، يتقلدن مناصب القيادة الحزبية والحكومية على مستوى المقاطعة والمحافظة ، او يشتغلن رئيسات ومديرات للمؤسسات الصناعية وغير الصناعية على مستوى المحافظة ، او يعملن مديرات للجامعات والمعاهد . ومنهن ٤٠ الفا تمت ترقيتهن بعد عام ١٩٨٢ .

لقد تحطم القيد الاقطاعى الداعى لحصر عمل المرأة فى الشؤون المنزلية . وهذا يعنى ان المرأة قد خطت خطوة هامة على طريق تحررها ، ولم تعد تعمل كالبهائم فى قرار الهوة السحيقة للمرارة والظلام .

وقد اصبح التحرر السياسى للمرأة مضمونا بقوانين محددة . ففى عام ١٩٥٠ صدر « قانون الزواج» الذى ترتبط به مصالح المرأة . وان مبادئه الرئيسية هى إلغاء نظام الزواج الاقطاعى الذى يتميز بالقسر وعدم التشاور واستعظام الرجل واستذلال المرأة واهمال مصالح الاولاد والبنات ، وبناء اسر الديمقراطية الجديدة الحالية على اساس حرية الزواج واحادية الزواج ومساواة الحقوق بين الرجل والمرأة وحماية مصالح المرأة والاولاد المشروعة . وفى عام ١٩٨٠ تم تعديل « قانون الزواج» ، فحافظ « قانون الزواج» الجديد على حرية الزواج وغيرها من المبادئ المنصوص عليها فى « قانون الزواج» السابق ، وزاد فيه مواد نافعة مثل تنظيم الاسرة وحماية الحقوق والمصالح المشروعة للمسنين والسماح باعطاء اسم اسرة الاب او الام لأولادهما ، كما عدل سن الزواج ، واكد ان « قانون الزواج» هو القانون المرشد لتنسيق العلاقات الزوجية والاسرية .

ومن اجل ضمان حقوق المرأة ومصالحها اصدرت الدولة فى السنوات الاخيرة قوانين اخرى . ففى عام ١٩٨٥ اصدرت « قانون الوراثة فى جمهورية الصين الشعبية » ، وميزته البارزة هى التمسك بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، حيث ينص على ان المرأة تتمتع بحقها فى الوراثة بالتساوى مع الرجل . وهذا القانون صارم وعادل ، وهدفه حماية حقوق الشعب ومصالحه .

وبعد ان عرفناكم بالظلم الطويل الذى تعرضت له المرأة الصينية يسرنا الآن ان نعرفكم بتحررها . من الجدير بالذكر ان تحررها قائم على اساس الضمان الاكيد من الدستور – القانون الاساسى للدولة ، وغيره من القوانين المعنية الاخرى . ان المرأة لا يمكنها ان تخرج من البيت الى المجتمع لتعمل وتشارك الرجل فى الاعمال الادارية ما لم تكن لها مكانة سياسية . وعليه فان التحرر السياسى للمرأة هو اساس تحررها . والسبب الرئيسى لبقاء المرأة مضطهدة آلاف السنين ومعاناتها شتى صنوف العذاب ، يرجع الى فقدانها مكانتها وحرمانها من حقوقها المتساوية مع حقوق الرجل وافتقارها الى الحماية القانونية فى هذا الصدد .

واستقلال المرأة اقتصاديا رمز لتخلصها من التبعية للرجل التى دامت آلاف السنين . وقد بدأ استقلال المرأة الصينية اقتصاديا فى فترة الاصلاح الزراعى ، حيث جرى تقسيم الارض المزروعة حسب عدد الانفار بالتساوى دون تمييز بين الجنسين . وصارت المرأة اكثر استقلالا حينما حازت ملكية وسائل الانتاج ، واصبح من حقها ان تتصرف فى وسائل الانتاج وان تستخدمها . ويمكن القول بأن المرأة وجدت بعد قيام الصين الجديدة فرص العمل مثلها مثل الرجل ، مما وضع اساسا لتحررها السياسى . وفى الفترة الاولى لتحرير البلاد عام ١٩٤٩ كان عدد النساء العاملات ٦١٠ آلاف نسمة ، اى ٧ر٥٪ من مجمل عدد العاملين فى البلاد عامة ومعنى ذلك ان الاغلبية الساحقة من النساء مازالت محصورات فى الشؤون المنزلية . وبعد ذلك اخذ عدد النساء العاملات يزداد سنة بعد سنة حتى بلغ عدد الموظفات

والعاملات فى المؤسسات الصناعية وغير الصناعية ذات الملكية العامة للشعب كله ٤٢ مليونا فى عام ١٩٨٤ ، وهذا يساوى ٧١ ضعفا مما كان عليه عام ١٩٤٩ . كما بلغ ٤٧ مليونا عام ١٩٨٨ ، وهذا يساوى ٧٨ ضعفا مما كان عليه عام ١٩٤٩ .

وقد ارتفعت نسبة العاملات والموظفات لمجمل عدد العمال والموظفين الى ٣٦ر٦٪ . واتسع نطاق اعمال المرأة مع مرور الايام الى مختلف المجالات كالهندسة والتعليم العالى والبحوث العلمية والطيران والطب والادارة الاقتصادية والثقافة والفنون .. الخ ، وفى عام ١٩٨٦ بلغ عدد المهندسات والاستاذات والباحثات والربانات والطبيبات والعاملات فى مجالات الادارة الاقتصادية والثقافة والفنون وغيرها اكثر من ٤ ملايين . وهناك ١٥ عضوة من اصل ٤٠٠ عضو فى المجمع العلمى التابع لاكاديمية العلوم الصينية ، من بينهن السيدة يه شو هوا والسيدة شيه شى ده اللتان تحدثنا عنهما فى هذا الكتاب . وبناء على احصاء جرى بمناسبة "عيد المرأة" فى ٨ آذار ١٩٨٧ ، بلغ عدد المعلمات فى المدارس العليا بالصين اكثر من ٨٠ الف معلمة ، وعدد الطبيبات من الدرجة العالية والمتوسطة قرابة ٥٠ الف طبيبة ، والقاضيات قرابة ٦ آلاف قاضية ، والعاملات فى مجال العلوم والتكنولوجيا الفائزات باللقب المهنى العالى قرابة ١٠ آلاف عاملة . وقد حطمت النساء العاملات القيود التقليدية فى توظيف المرأة ، فدخل بعضهن مجالات عمل خاصة بالرجال ، من بينها مجال الصناعات الحديثة . ففى قطاعى الصناعة الالكترونية والصناعة للنووية مثلا يحتل عدد النساء العاملات ٤٠٪ من مجمل العاملين فيهما . وهناك بعض

الاعمال تم انجازها على يد المرأة على نحو يفوق التصور . فالمهندسة المدنية وان سان سان انجزت مع زميلها مهمة تصميم جسر الشد الماثل على النهر الاصفر فى مدينة جينان ، وهو اكبر جسر فى آسيا كلها ، ويبلغ طوله ٢٥٢٣ مترا . لقد عملت هذه المهندسة ما يقرب من ٣٠ سنة فى مجال بناء الجسور ، شاركت خلالها فى تصميم ٢٥ جسرا كبيرا داخل مقاطعة شاندونغ .

اما الدور العظيم الذى لعبته المرأة خلال السنوات الاخيرة فى الاصلاح الاقتصادى الصينى المنقطع النظير فهو موضوع آخر يسترعى الاهتمام . فالاصلاح الاقتصادى قدم مزيدا من الفرص والظروف اللازمة لزيادة تحرر المرأة ، كما فتح لها آفاقا واسعة لاظهار نبوغها .

وجاء فى تقرير لـ «صحيفة الشعب اليومية» الناطقة بلسان الحكومة الصينية ، نشر عام ١٩٨٧ ، ان هناك ١٥٠ مليون يد عاملة نسائية من اصل ٤٠٠ مليون قروية ، وهن بذلك يشكلن قرابة نصف الايدى العاملة فى ارياف الصين كلها . وبعضهن يعمل فى مجال الاقتصاد التجارى الواسع النطاق ، واخريات يعملن بنشاط فى الزراعة الاختصاصية والتربية الاصطناعية والتصنيعات المختلفة والاشغال اليدوية التقليدية والصناعات الريفية ومجالات الخدمات الاجتماعية . واذا اخذنا النساء العاملات فى ارياف مقاطعة تشجيانغ مثالا على ذلك ، نجد ان اكثر من ٩٠٪ منهن يعملن فى قطاع الصناعة الريفية والانتاج الجانبى .

اما فى المدن فقد اصبح الاصلاح الاقتصادى حافزا لتطوير

الخدمات الاجتماعية . وقد سمحت الدولة بوجود عدة انماط اقتصادية فى آن واحد ، مما وفر للنساء غير العاملات فرص العمل لخلق الثروات للمجتمع ، حيث ان بعض الشابات اللواتى لا عمل لهن توظفت فى المؤسسات الحكومية ، او اختارت عملها بنفسها ، فاشتغلت بالعمل الفردى . وهكذا قل عدد منتظرى التوظيف الى حد كبير ، او انعدم فى بعض المدن . وهناك كثير من المدن والبلدات ، بما فيها بكين ، بلغ عدد النساء العاملات الجديدات فيها نفس عدد الرجال العاملين الجدد على وجه التقريب .

وفى قطاع الصناعة والتجارة فان نظام المقاولة الاقتصادية الجديد قد جعل المؤسسات الصناعية والتجارية تختار لنفسها اداريين اقوياء دون تمييز بين الرجال والنساء . وفى الفترة ما بين عامى ١٩٨٣ و١٩٨٥ ، اختير فى مدينة قوانغتشو التى طبقت سياسة الانفتاح مبكرا اكثر من اربعين امرأة ، تحلين بروح الابداع والموهبة الادارية ، الى منصب مديرة للمصنع او الشركة . كما برز فى منطقة شنتشن الاقتصادية الخاصة قرابة ١٣٠ امرأة مقاولة . وفى ربيع عام ١٩٨٨ اختيرت ٥٠ امرأة ممتازة عن طريق التقييم الجماهيرى على نطاق البلاد .

وقد سرنا ان تعرفنا خلال قيامنا بتغطية الاخبار على السيدة وانغ تشينغ شو ، عضوة امانة اتحاد النساء لعموم الصين ، التى سرها جدا ان نكتب عن الاخوات الصينيات وخاصة عن افراحهن واتراحهن . وفى معرض حديثها عن تحرر المرأة قالت ما استأثر باعجابنا الشديد : " ان تحرر المرأة الصينية يتعمق ويتنامى باطراد على شكل هرمى . ففى البداية خرجت المرأة من البيت ، واشتغلت غالبا بالعمل الجسمانى

البسيط فى وحدات الخدمة . ثم مع منح المرأة الحق فى تلقى التعليم واتاحة فرصة التعلم لها استوعبت المعارف العلمية ، واكتسبت مهارة فى العمل ، فتوجه المزيد والمزيد من النساء الى دوائر التكنولوجيا حيث يشتغلن بالعمل العقلى المعقد . وفى الثمانينات ظهرت المرأة الصينية كأنها مجنحة ، فطارت الى مختلف مجالات التكنولوجيا الاكثر تقدما وقطاع الادارة . وقد اظهرن من الموهبة ما لم يسبق له مثيل . ففى كل من مدينة بكين ومدينة لانتشو اثنتان من مؤسسات الحديد والصلب المشتركة الكبيرة النطاق ، المديرة العامة فى كل منها امرأة ذات خبرة وفيرة . " وجملة القول ان للمرأة الصينية ، صاحبة لقب " نصف المجتمع " منذ زمن طويل ، ستلعب دورها اكثر فأكثر بوصفها سيدة المجتمع .

والرمز الثالث لتحرر المرأة الصينية هو حصولها على حق تلقى التعليم . فتثقيف المرأة الصينية فى ارتفاع مستمر ، لا سيما فى تحصيل الدرجات العلمية العالية . فبعد انشاء نظام الدرجات الاكاديمية عام ١٩٨١ دخلت المرأة فى سبعة من فروع العلوم العشرة التى يمكن فيها منح شهادة الدكتوراه . واخذ يزداد عدد الحائزات على شهادة الماجستير والدكتوراه شيئا فشيئا . ففى عام ١٩٨٦ ازداد عدد الحائزات على شهادة الماجستير كثيرا حتى بلغت نسبتهن ١٣،٦٪ من مجمل الحائزين على هذه الشهادات .

وجاء فى تحقيقات اجتماعية اخيرة نشرتها الصحف ان ٧٣٪ من النساء اللواتى جرت معهن هذه التحقيقات يرين ان المرأة قد تتعرض فى الاصلاح الى الفشل اكثر من الرجال ، وان حوالى ٦٠٪ منهن

اعربن عن عزمهن على التقدم المستمر متحديات الاخطار . وهذا يدل على ان رغبة المرأة الصينية فى خوض غمار العلوم والثقافة ورفع مهارتها ناشئة من وعيها العالى . وفى الصين الآن ما يقرب من ٦٠٠ الف من العاملات والموظفات يدرسن فى مدارس الكهول التخصصية المتوسطة على اختلاف انواعها ، واكثر من ٣٠٠ الف من النساء العاملات يدرسن فى مدارس الكهول العليا المختلفة الانواع . وبعض العاملات والموظفات منهمكة فى دراسة الماجستير والدكتوراه . ومن اجل اعداد العاملات المؤهلات وتدريب العاملات تدريبا مهنيا جيدا اقيمت فى مختلف انحاء البلاد شبكات تعليم مهنى للمرأة . فأنشئت ٤٤ من الجامعات المهنية النسائية والمدارس المهنية النسائية او المراكز التدريبية فى ١٨ مقاطعة على التوالى ، ضمت ٦١ مجالا اختصاصيا كالاقتصاد والحقوق والمكتبات والسياحة والتعليم فى رياض الاطفال واللغة الانكليزية . . الخ . اما التعليم المهنى الفنى للمرأة فى الارياف فقد تطور من شكله المتفرق المؤقت الى تدريب مهنى نظامى . وفى بعض الاماكن انشئت مدرسة مهنية فنية للمرأة او مركز تدريب ، ومدة الدراسة سنة او سنتان . وهناك ٢٥ مليون امرأة ريفية يتلقين التعليم العلمى والفنى فى المدارس المهنية او مراكز التدريب .

ومن الرموز الاخرى لتحرر المرأة حرية الزواج . وتضم حرية الزواج حرية التزوج وحرية الطلاق . والامر الثانى مكمل للاول . وحرية الزواج مضمونة بحماية القانون . ان « قانون الزواج» هو القانون الرئيسى لنظام الزواج الذى يضمن استقلال الزواج واحاديته والمساواة بين الرجل والمرأة . لقد انخفضت بعد قيام الصين الجديدة نسبة

الزواج القسرى الذى يقرره الوالدان انخفاضا سريعا ، بينما ارتفعت نسبة الزواج الاستقلالى القائم على رغبة وموافقة الخطيبين الى اكثر من ٩٠٪ . وجدير بالذكر ان اكثر من ثلث الزيجات الاستقلالية لم يتم عبر الوسيط ، وانما بعد التعارف والحب المتبادل . وقد وردت فى «قانون الزواج» الجديد عدة فقرات حول الطلاق ، منها ما يوضح الامر كل الوضوح ، مثل " اذا تصدع الحب بين الزوجين وفشلت الوساطة ، يجب السماح بالطلاق " وبهذا اصبح من حق المرأة ان تتخلص من تقييد الزواج الميت (اى الزواج المفتقر الى الحب او الزواج الطويل الانفصال بين الزوجين) ، وان تسعى الى تكوين اسرة جديدة سعيدة بعد الطلاق . ومما يدل على تعزيز استقلالية المرأة فى شأن الزواج ان قضايا الطلاق فى السنوات الاخيرة تتميز بأن عدد الزوجات المبادرات الى تقديم طلب الطلاق اكثر من عدد الازواج ، وان نسبة الطلاق ارتفعت فى بعض المناطق . ولكن كل ما ذكر اعلاه يبين ان حق النساء الصينيات فى الاستقلال فى مسألة الزواج يتعزز اكثر فأكثر . وفى العلاقات الاسرية طرأت على مكانة المرأة تغيرات عميقة كذلك . فالعلاقات الاسرية اليوم تتصف بعدم التمييز بين الجنسين وبتبادل الاحترام والمحبة والثقة وبالتعاون والتسامح والتفاهم وبتبادل التشجيع والتأييد ، كما تتصف بالمساواة بين افراد الاسرة . اما محور الاسرة فهو الزوجان . وان حصول المرأة على العمل فى المجتمع قد اكسبها سيادة اقتصادية ، وخلصها من التبعية ، الامر الذى تحققت معه مساواة متينة الاساس بين الزوج والزوجة وبين الرجل والمرأة . وقد اصبح اضطلاع الزوج ببعض الشؤون المنزلية

امرا شائعا فى مدن الصين واريافها .

لقد كنا عند قيام الصين الجديدة عام ١٩٤٩ ما نزال اطفالا ، ولكن افراح المرأة الناتجة من تحررها قد تركت فى اذهاننا آثارا باقية حتى يومنا هذا . ثم كبرنا ، وتلقينا التعليم المدرسى ، واشتركنا فى العمل فى المجتمع ، فكلما فكرنا فى الافراح التى عمت المرأة من جراء تحررها ، ادركنا اعمق فأعمق معنى تلك الافراح . لقد تحررت المرأة الصينية مع تحرر البلاد ، فلم تعد تعانى من الاضطهاد او تتعرض للاحتقار ، وصارت سيدة للدولة ، يحق لها ان تتلقى التعليم وان تحصل على فرص العمل وان تختار قرينا تحبه ، وان تستمتع بالسعادة الاسرية ، فلماذا لا تفرح ؟ وكيف لا تفرح ؟ وقال لنا الآباء والامهات : " ان المرأة فى المجتمع الجديد تختلف عن المرأة فى المجتمع القديم اختلاف السماء عن الارض ! لو لم تتحرر البلاد لما نجوتن من مصير لف القدمين بالشرائط القماشية الطويلة ، ولما تمكنتن من تلقى التعليم المدرسى ، وانما تزوجتن مبكرا واصبحتن أمهات ينهمكن مبكرا فى رعاية الاطفال والعناية بشؤون المطبخ ... "

لقد مضى الامس ، وطوى التاريخ ظلم المرأة الطويل فى طيات سجلاته ، ودفنه فى اعماق القلوب . ولم يعد هذا الظلم الطويل يثير فى المرأة المعاصرة الا عزيمتها وقوتها الدافعة فى السير الى الامام .

ما صورة النساء العاملات الصينيات اليوم ؟ فى عام ١٩٨٥ اجريت تحقيقات على الامثلة النموذجية للنساء العاملات فى تسع مجالات فى بكين وتيانجين وشانغهاى ، دلت نتائجها على ان صفات النساء العاملات الصينيات تتلخص فى الاعتداد بالذات والاعتماد على

النفس والتطلع الى العلاء . انهن يعتززن بفرصة عملهن كل الاعتزاز ويحببن عملهن حبا جما . وكان بين الاسئلة التى وجهت اليهن سؤال يقول : " هل كنت ترغبين فى العمل لو سمحت لك ظروف اسرتك المادية بعدم العمل ؟" وجوابا عن هذا السؤال عبرت ٧٦٪ من النساء العاملات عن تفضيلهن العمل على عدمه . وقالت بعضهن بعبارة واضحة : " ان المرأة كائن يحب العمل مع انها من الجنس اللطيف" وهناك عاملة سنترال فى السادسة والعشرين من عمرها ، لا يزيد راتبها الشهرى عن عشرات اليوانات ، وزوجها سائق لسيارة اجرة يتقاضى ٣٠٠ يوان شهريا ، ولكنها لا ترغب فى التخلى عن عملها الحالى . فقد قالت بأنها تحب خدمة المجتمع وليس النقود . وقالت بعضهن : " مغزى حياة الانسان يكمن فى الابداع والتفانى . ولو عادت النساء العاملات الى بيوتهن تاركات اعمالهن فى المجتمع ، فذلك يعنى فقدان قيمتها الانسانية ، وتصبح المساواة بين الرجل والمرأة كلاما اجوف لأن المرأة اذا فقدت استقلالها اقتصاديا ، فقدت استقلالها الانسانى ." ومن هذه الاجوبة يمكن تلخيص صفات النساء العاملات الصينيات بالاعتداد بذواتهن والاعتماد على انفسهن وتطلعهن الى العلاء .

ان مدى تحرر المرأة الصينية يدعو الى الاعجاب عموما . ولكن اذا نظرنا الى الفرد من حيث السجية والمستوى ، وجدنا اختلافا باختلاف الافراد . ان نقطة الانطلاق لدى بعض النساء منخفضة جدا . فما زال فى طبع عدد من النساء وفى عقلياتهن آثار للمفاهيم الاقطاعية الضيقة المتحفظة وتبعية للرجل ، الامر الذى يعوق تطور

صفات المرأة الصينية ــ الاعتداد بالذات والاعتماد على النفس والتطلع الى العلاء . وبعبارة اخرى ان المرأة وضعت لنفسها عوائق تمنع تحررها التام ، وعليه يجب رفع وعى المرأة باستمرار ، وبذلك وحده يمكن ارساء الاساس المتين لتحقيق تحرر المرأة على نحو اعمق واوسع .

والواقع ان فى المجتمع حاليا افكارا وظواهر تعصبية ضد المرأة ، ترى ان المرأة دون الرجل . والمرأة تعانى دائما من هذا التمييز فى الحصول على فرصة العمل والالتحاق بالمدرسة والتعيين فى المناصب والترقية . وفضلا عن ذلك ما تزال قدرة المرأة العاملة فى هيئات السلطة السياسية العالية وممارستها نشاطات العلوم والتكنولوجيات منخفضة نسبيا ، مما يدل على انها فى التنافس تحتاج الى مزيد من رفع قدرتها . والتحرر التام للمرأة يستوجب بذل المساعى من جانب المجتمع وجانب المرأة معا .

ان المرأة الصينية فى الوقت الحاضر ، لاسيما العاملة ، ما زالت تعانى الكثير من الهموم والاتراح . فاضافة الى ما تعانيه من التمييز السلبى الذى ذكر اعلاه تعانى ايضا من وطأة الاعمال المنزلية الثقيلة المتعددة ومن المفاهيم الاقطاعية المترسبة فى مجال الزواج . فهناك عدد من المثقفات الكبيرات ذوات المؤهل الدراسى العالى لسن موفقات من ناحية الحب والزواج . اذ ان الرجل لا يرضى ان تكون امرأته اقوى منه ، بينما تحب المرأة ان يكون زوجها اقوى منها قدرة . ان هناك نساء يفضلن من اجل قضاياهن الثورية تأخير الزواج او البقاء عازبات مدى الحياة ، لكن مفهوم الصينيين عن الاسرة عميق فى اى حال من الاحوال ، فالصينيون عامة ، ومن بينهم النساء ، يرون

ان الحياة جوفاء من دون مثل اعلى ومشؤومة بغير اسرة . ومن اجل الحصول على السعادة الحقيقية عليهن ان يبحثن عن قرنائهن المنشودين . ولذلك تعانى بعض النساء كثيرا من الهموم والاتراح فى مجال الحب والزواج .

ومن بين النساء الصينيات عدد لا يستهان به من الاميات او شبه الاميات . وهن يشتغلن فى مجالات العمل البسيط . وعدد النساء العاملات فى مجالات العمل الراقى قليل . ولذا ستواجه المرأة الصينية صعوبات كثيرة علما ان فرص عملها قد ازدادت خلال تنفيذ سياسة الاصلاح فى البلاد . لقد جاء فى التعداد العام لسكان الصين الذى جرى عام ١٩٨٢ ان ٨٣٪ من النساء العاملات يمارسن اعمالا جسمانية ، و١٣٪ منهن عاملات فى قطاع الصناعة والتجارة ، و٥ر٥٪ منهن عاملات فى مجالات التقنية والتخصصات والادارة . وفى عام ١٩٨٤ كانت النسبة بين الرجال والنساء فى صفوف العاملين فى مجالات العلوم والتقنية فى البلاد عامة ١ر٢ مقابل ١ ، والنسبة بين الرجال الحائزين على اللقب الوظيفى العالى والنساء الحائزات عليه هى ٦ر٧ مقابل ١ ، وهذا الوضع السلبى للمرأة الصينية لايتوافق مع الطلب المتزايد لذوى المهارة الاختصاصية فى عمليات الاصلاح .

ان الشرط المسبق الاول لتحرر المرأة هو عودتها الى العمل الاجتماعى العام ، لذلك تبذل الصين مجهوداتها بثبات ودأب لازالة العوائق فى تحسين الوضع التوظيفى للمرأة ، وتخلق الظروف الايجابية لمساعدة المرأة على دخول مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية واظهار نبوغها فى عمليات الاصلاح .

لعلكم ايها القراء الاعزاء قد اخذتم الآن فكرة عامة عن تحرر المرأة الصينية من خلال تعريفنا السابق . ومن اجل تزويدكم بمعلومات وفيرة وواضحة عن المرأة الصينية سيعرض لكم كتابنا هذا ابتداء من فصله الثالث ما يظهر قدرة المرأة الصينية وما يبين مدى اعتدادها بذاتها واعتمادها على نفسها وتطلعها الى العلاء . وستلمسون بأنفسكم منشأ قدرة النساء العاملات الصينيات من الطرق التي سلكنها . انهن من الجنس اللطيف ، ولكنهن مجاهدات فى سبيل خلق مستقبلهن المنشود ، متحديات بذلك اعتى العواصف والامواج . ان الطرق التى سلكنها تلهمنا حقيقة عامة هى ان قدرة المرأة جبارة . واعتزازا بالتحرر الذى كان تحقيقه صعبا وتفاديا لعودة الظلم الماضى الطويل واضفاء على ثمار الكفاح الدؤوب عبر السنين الطويلة مزيدا من الرونق والجمال ، تسلك المرأة الصينية طريقها الخاص وتسير قدما بخطوات واسعة نحو المستقبل .

الطريق

يسرن بخطوات ثابتة على طريق الحياة
قطعن مسافات طويلة والطريق وعرة
رسمن لأنفسهن رسومات جميلة فى الحياة
. . . . . .

السوناتا لحياة ممثلة اوبرا بكين لى وى كانغ

لى وى كانغ ممثلة شهيرة لاوبرا بكين ، وتحمل لقب " لؤلؤة " فى ادوار الاناث فى اوبرا بكين . كل من استمعوا الى غنائها اعجبوا بصوتها العذب وحركاتها المعبرة وادائها الجذاب وتمثيلها المدهش . وخلال السنوات العشر الاخيرة قدمت على خشبة المسرح كثيرا من الصور الفنية للنساء فى تاريخ الصين القديم والحديث . وميزتها الفنية تبرز فى تمثيلها البارع وادائها العميق وحركاتها المعبرة ، فهى قد ورثت الميزات الفنية للمدارس الاربع الكبرى لاوبرا بكين فى حسن الاداء ، وابدعت اضافة الى ذلك كثيرا من اساليب الاداء الجديدة . ولقد قال تشنغ يه تشيو المخرج المسرحى الشهير عند تقييمها : " ان لى وى كانغ قد شكلت لفنها الغنائى ميزة خاصة تتصف باللباقة والعمق والطرافة والبراعة . " واليوم زادت مهارة لى وى كانغ الفنية نضجا . حيث انها حازت على " جائزة ميهوا " فى السباق الوطنى الاول ، وقامت بزيارات فنية متعاقبة فى بضع عشرة دولة او منطقة ، بما فيها الولايات المتحدة وكندا واليابان وفرنسا واسبانيا ، ولقيت عروضها الفنية هنالك ترحيبا عظيما من المتفرجين الاجانب . انها

ممثلة لاوبرا بكين وممثلة تلفزيونية فى ذات الوقت . وقد ترك تمثيلها انطباعات عميقة فى نفوس المتفرجين عندما لعبت دور يون مى فى المسرحية التلفزيونية « اربعة اجيال يعيشون تحت سقف واحد » ، وهى رواية مشهورة للكاتب لاو شه .

وقد بلغت لى وى كانغ الاربعين من عمرها ، ولكنها لا تزال تسعى لتحقيق المزيد من التقدم والابداع فى فن اوبرا بكين . ولم يكن المستوى الفنى الذى بلغته سهل المنال . فلندع الممثلة لى وى كانغ تستعرض السوناتا لحياتها بنفسها فيما يلى :



لى وى كانغ

اشعة الشمس تشع على

ولدت وكبرت فى بكين . وفى ايام طفولتى كنت طفلة نشيطة ، احب الرقص والغناء ، أقوم دائما بأداء العروض الفنية . والداى خريجان جامعيان شغوفان بأوبرا بكين ، ووالدى ممثل هاو يلعب دور الذكور المسنين . وكانت نتائج دراستى المدرسية ممتازة ، ولكن والدى ارادنى ان اتخصص بفن اوبرا بكين وأصبح ممثلة شهيرة . ففى عام ١٩٥٨ اصر على تسجيل اسمى للاشتراك فى امتحان الالتحاق بمدرسة اوبرا بكين الصينية . وقيل ان عدد الذين سجلوا اسماءهم لهذا الامتحان قد تراوح من ٥ ــ ٦ آلاف متقدم ، وقبلت المدرسة منهم ما يقرب من ٦٠ طالبا ، وكنت واحدة منهم . كان عمرى فى ذلك الوقت احدى عشرة سنة . وكنت ذات صوت جميل ومجتهدة فى التعلم ، لذا احبنى المعلمون كثيرا . واصبحت طالبة ممتازة فى الفصل منذ السنة الدراسية الثانية . وبدأت اشترك فى العروض منذ عام ١٩٥٩ ، اى من النصف الثانى من السنة الدراسية الثانية . ولعبت دور الحظية لى يان فى اوبرا بكين « الدخول الثانى فى القصر » ، اول اوبرا أشترك فى عرضها ، وانا يومها طفلة فى الثانية عشرة فقط ، قصيرة القامة ، فحملتنى المعلمة الى منصة المكياج ووضعت لى المكياج وألبستنى ملابس الاوبرا واوصتنى قائلة : " ان القناع ثقيل ، وزنه كيلوغرام واحد ، واشرطة الزينة على طرف الكم طويلة ، تتدلى الى الارض ، فعليك ان تحذرى من الدوس عليها فى اثناء المشى على خشبة المسرح



لى وى كانغ فى ثياب التمثيل

لتتجنبى السقوط على الارض " . وحفظت هذه الوصية تماما ، ورحت انتظر وراء الكواليس ابتداء دورى فى هدوء واطمئنان . وجاء دورى ، فصرخت نائحة من وراء الكواليس حسبما يقتضيه الدور : " يا مولاى . . . " ثم خرجت الى خشبة المسرح فى هدوء واناة . . . فضجت القاعة بعاصفة من التصفيق . ومنذ ذلك الحين سمانى الناس صاحبة " الصوت الذهبى " .

لم استوعب اوبرا بكين كما ينبغى وانا فى مدرسة اوبرا بكين ، علما ان نتائج دراستى ممتازة فى جميع المواد الدراسية بفضل اجتهادى فى الدراسة ، فلم اقتنع بذلك بل بذلت مجهودات مضاعفة من اجل الحصول على درجات ممتازة فى جميع النواحى . ولقد قال لى احد المعلمين : " ان براعة ممثل لا تتوقف على تصفيق المشاهدين مرة او

مرتين ، وانما تتوقف على مدى نضجه الفنى الحقيقى . " وهذا القول ترك اثره العميق فى نفسى ، فاقتديت بالفنانين البارزين فى الدراسة والكفاح من اجل تحقيق هذا الطموح .

كان فى صوتى نواقص على الرغم من جماله ، فقد اشار معلمى هوا هوى لين الى ان صوتى ليس داويا ، وساعدنى على خلق التجويف الصوتى وارسال الصوت البعيد ، ودربنى على القيام بدور بطلة القصة فى اوبرا بكين «السلطان يردع حظيته » و« الابن الرابع يزور امه » . وتحت ارشاده تدربت بثبات ودأب ، واحرزت تقدما ملحوظا فى الغناء . وفى اثناء دراستى فى مدرسة اوبرا بكين ركزت على دراسة فن الاداء الذى يتميز به الممثلان العظيمان مى لان فانغ ووانغ ياو تشينغ . وخلال " الثورة الثقافية " كنت استمع دائما الى اسطوانات الجيل القديم من كبار الممثلين فى اوبرا بكين ، مثل تشنغ يان تشيو وتشانغ جيون تشيو ، واتعلم وادرس مهارتهم فى الغناء والتمثيل للتعبير عما يجيش فى قلوب شخوص المسرحيات . وقمت بذلك سرا معرضة نفسى للخطر ، اذ كان ذلك محظورا حينذاك . والفترة التى قضيتها فى مدرسة اوبرا بكين تعد من اثمن فترات حياتى ، فخلالها ارسيت لنفسى اساسا فنيا جيدا ، حيث لم اتدرب على القيام بأدوار النساء المدنيات الطائعات الوقورات فحسب ، بل على ادوار كثير من النساء العسكريات العاصيات الجسورات كذلك ، وتلقيت تدريبات على ايدى المعلمين المشاهير ، ومنهم مدير المدرسة الاسبق شى روه شيوى الذى علمنى بكل صرامة وعاملنى بحنان الابوة .

ونظرا لكونى طالبة بارزة فى مدرسة اوبرا بكين فقد ركزت المدرسة

قواها على اعدادى ، فكلما قمت بعرض شهده مدير المدرسة شي . وبعد انتهاء العرض يستدعيني الى مكتبه ، ويلفت انتباهي الى النقائص والعيوب ، ولا يمدحني مطلقا ، مما جعلني ادرك اني مازلت ضعيفة فنيا وبعيدة عن النضج . ومنذ ذلك الوقت بذلت مجهودات مضاعفة فى التدرب الفنى الشاق طوال سنوات دراستى فى هذه المدرسة ، ولكنى بقيت غير متأكدة من مدى تقدمى . وذات مرة ، عندما انتهيت من عرض اوبرا بكين « وو جيا بوه » ، استدعانى مدير المدرسة شي الى مكتبه ، فهرعت قلقة مستعدة لقبول نقده ، ولم اكن اتصور ان يمدحنى هذه المرة بدلا من ان ينقدنى . وهكذا ادركت عيوبى ونواقصى من نقده ، وصفاتى المميزة من مدحه واصبحت واعية واثقة بالنفس .

وكثيرا ما كان مدير المدرسة شي والمعلم يوى يوى هنغ يصاحباننى حين التدرب الصوتى ، ويرشداننى ارشادا صارما دقيقا ، ويطالباننى دائما باعادة الغناء خمس او عشر مرات اذا كان غنائى غير متقن ولو فى لفظ واحد . وبمثل هذا التدريب الدقيق الجاد ارسيت لنفسى اساسا متينا منذ البداية ، وهذا افادنى كثيرا فى نموى الفنى . وذات مرة كنت اقوم بعرض تدريبى لاوبرا بكين « الابن الرابع يزور امه » ، ولم اعبر عن مشاعر بطلة القصة كما ينبغى ، فطالبنى المعلم الرئيسى هوا هوى لين باعادة التمثيل سبع مرات متتالية على مرأى الزملاء والزميلات بغض النظر عن خجلى امامهم ، فكدت ابكى ، فقال هذا المعلم : " عليك ان تحسنى الاداء حتى ولو بكيت" . والمعلم هوا تلميذ بارز للممثل العملاق مى لان فانغ ، ومنه تعلمت مهارة

التمثيل . وعندما كان يدربني على تمثيل بطلة « السلطان يودع حظيته » قال لى فى امل صادق : " قابلت السيد مى لان فانغ فى حلمى ليلة امس . فأوصانى بتدريبك على خير وجه حتى تكونى من يرث فن مدرسة مى" . ومن اجل اعدادى كان المعلمون ينشغلون بتدريبى نهارا ويحلمون بذلك ليلا ! وفى عام ١٩٦٥ طلبت منى المدرسة ان امثل دور مو قوى ينغ فى اوبرا بكين « بطلات اسرة يانغ » ويلزمنى هذا الدور بمعرفة الفن البهلوانى الذى كنت ضعيفة فيه . وامام هذه المهمة الشاقة وقعت فى حيرة ، فشجعنى مدير المدرسة قائلا : " انت ممثلة شابة طموح ، فعليك ان تقومى بتدريبات شاقة مريرة متحدية كل المشقات" . والتزاما بهذا القول واظبت على التدريب على الفن البهلوانى صباح كل يوم برغم الحر القائظ او البرد القارس او التعب والصعوبة . وبعد فصل دراسى من مثل هذا التدريب الشاق تجاوزت فى آخر المطاف العقبة الكؤود ، وانجزت مهمة العرض بنجاح . وبعد ذلك واصلت التدريب على الفن البهلوانى ، وقال المعلمون : " ان البراعة ناتجة عن جهد لا حدود له . " واتخذت هذا القول شعارا يشجعنى على السير قدما فى الطريق لصعود قمة الفن .

" ليس فى مجال الفن معلم محدد" هذا قول شائع فى اوساط اوبرا بكين . وكنت انطلاقا من ظروفى اتعلم من كل الذين يستوعبون علما حقيقيا ، واسترشد بآرائهم . فأطلب العلم من الاجيال السابقة ، واستمد المزايا من مختلف المدارس . وبهذا تمكنت من الغناء بوضوح والتعبير عن مشاعر الشخصيات بدقة وصدق محققة بذلك المزيد من المتعة للمشاهدين .

اتذكر دائما مدرستي الام التي هي مهد التمثيل لاوبرا بكين .
فكلما اتيحت لى الفرصة عدت اليها ، استرشد بآراء المعلمين القدامى
فى فن التمثيل ، واجمع مزايا مختلف المدارس ، فمن طريق الدمج
بين مزايا مختلف المدارس يمكن تحقيق الكمال والارتقاء .
وفى ظل الصين الجديدة وفى مدرسة اوبرا بكين — مهد الفن التمثيلى
ترعرعت على نحو سليم تحت اشعة الشمس .

الزوج يساعدني

ما ان بدأت اضطرابات " الثورة الثقافية " التى دامت ١٠ سنوات
حتى تعرضت لصدماتها ، وانا فى الثامنة عشرة من عمرى حينذاك .
واتهمت بما يسمى " طالبة بارزة شريرة " ، فأصبحت فى عزلة وفى
موقف حرج للغاية . وكان هناك من يعمد الى ايذائى خفية . وذات
مرة عندما كنت امشى تحت نافذة من نوافذ احد المبانى فى طريق
عودتى من التدريب الصوتى رمانى مجهول بحجر من اعلى المبنى ،
فلم يصبنى لحسن الحظ . ودائما ما كنت اتعرض للشتائم والاستهزاء .
وكان من اصعب معاناتى مرافقة اولئك الذين اطلق عليهم فى ذلك
الحين " الشياطين والغيلان " لنعرض انفسنا للشمس فى الصيف القائظ ،
حيث كنت احس بالوهن وشدة خفقان القلب ودوار فى الرأس . وكان
قضاء يوم واحد مثل قضاء السنة بكاملها . وقد سألنى احدهم : " لماذا
لا تنتحرين ؟ " فرددت عليه قائلة : " ان هذه الآلام لن تطول .
ستنتهى بعد ثلاث او خمس سنوات لأن كل شىء فى هذه الايام

غاية فى الظلم . "

فى ايام معاناتى مثل هذا العذاب والظلم ، تذمر احد زملائى دفاعا عنى . ففى احد اجتماعات الشجب ، انبرى وقال صارخا : " اذا اخذتم السياسة بعين الاعتبار ، فعليكم الا تعاملوها معاملة كهذه ! " واوقع هذا الصراخ الشريرين فى حيرة وارتباك بينما شعرت بالراحة . انه زميلى فى نفس الصف ، ويدعى قنغ تشى تشانغ ، واسمه مدرج مثلى فى قائمة اسماء " الطلبة البارزين الشريرين " . وقضينا ٨ سنوات فى الزمالة ، واصبحنا صديقين حميمين فى السراء والضراء . وبعد ذلك اصبحنا حبيبين ، احب كل منا الآخر حبا عميقا . ولم نتزوج الا بعد ان بلغنا الثامنة والعشرين فى عام ١٩٧٥ .

لقد بدأت حياته المسرحية مثلى فى الثانية عشرة من العمر . وكانت اول مسرحية من اوبرا بكين اشترك فى عرضها هى مسرحية « اعدام الإبن عند الباب الخارجى لمقر القيادة » ، ولعب دور بطل مسرحية ابن يانغ السادس . وقوبل بتصفيق حاد كانت تضج به القاعة بين حين وآخر طوال تمثيله هذا الدور على خشبة المسرح ، الامر الذى اعطاه الثقة بنفسه فى الابداع الفنى بعد ذلك . وكتب لنا احد الخطاطين " اصعد القمة " و" سر قدما " . وظللنا ، انا وهو ، نتخذ ذلك شعارا فى ممارساتنا الفنية ، ونشجع به بعضنا بعضا .

وبعد الزواج اصبحنا اكثر اتفاقا فى الطموح والرغبات . فكلما بزغ الفجر ، خرجنا معا مستقبلين نسيم الفجر للقيام بالتدريب الصوتى . وكلما اسدل الليل سدوله ، جلسنا معا تحت ضوء المصباح لدراسة السيناريو وتبادل الآراء فى انماط الغناء . وكلما عدنا الى البيت بعد

انتهاء العرض فى منتصف الليل ، واصلنا تبادل الآراء حول ردود افعال المشاهدين ، واستخلصنا الدروس . صحيح ان مسكننا ضيق ، مساحته تقدر ببضعة عشر مترا مربعا ، ولكنه مفعم بالفرح والسعادة . وصار فن اوبرا بكين قوام حياتنا . كنا قبل تقديم كل عرض من العروض نشترك فى التدريبات الجماعية ، وليس هذا فحسب ، بل نتخذ بيتنا ساحة للتدرب ايضا . وكنا فى فن التمثيل لا نتساهل مع بعضنا بعضا قيد انملة ، ذلك ان الممثل لا يجوز ان يكون معمولا من قالب واحد ، بل عليه ان يكون قادرا على تمثيل مختلف الادوار ذات الصفات المميزة ، ولا يسمح له بأن ينحرف حسب مزاجه الشخصى عن المميزات الاصيلة للادوار التى يلعبها على خشبة المسرح .

ومن اجل طموحنا المشترك لن ننجب قبل الثالثة والثلاثين من العمر . ومولودتنا تدعى " اختُ الثمانية " لأن وزنها حين ولدت كان ٨ جينات (وحدة الوزن الصينية وجين واحد يساوى نصف كيلوغرام) ، فسماها شى مدير مدرسة اوبرا بكين بهذا الاسم . وفى الفترة الاولى من حملى كانت معاناة الحمل واضحة على ، فبذل زوجى مساعيه لشراء الحوامض من هنا وهناك ، الامر الذى اراحنى كثيرا . والانجاب فى هذا السن امر ارضاه كما ارضانى ، ولم يتأثر عملنا بمولودتنا . فعندما كنا نقوم بتدريبات فنية فى البيت عادة يتدرب احدنا على الغناء ، وفى حضنه المولودة ، بينما يتدرب الآخر على الحركات البهلوانية . واذا كانت الطفلة منزعجة مضطربة حملها زوجى الى الخارج وهو يمشى فى خطوات مسرحية ويتمتم حسب الايقاع ، حتى تهدأ الطفلة فيعود يغنى بحوار المسرحية . وعند مغادرتنا بكين فى

مهمة عروض فنية كنا نترك طفلتنا عند والدتي لترعاها ، ونحمل صورها الفتوغرافية معنا . فحينما نشتاق اليها نخرج الصور ونمعن النظر فيها لنخفف من شوقنا اليها . ولما كبرت الطفلة لم تعد تسمح بمفارقتنا لها ، فدائما ما كانت تبكي وتصرخ عند الفراق ، وتقول بأنها تفضل البقاء معنا . فنضطر الى مفارقتها ، وقلب كل منا يتفطر ألما لهذا الفراق القاسي . واحيانا لن نكن نجد احدا يرعاها عند خروجنا من البيت للاشتراك في التدريبات الجماعية اللازمة او العروض الرسمية ، فلا نجد بدا من اخراجها معنا . واذا ما جاء دورنا للعرض على خشبة المسرح ، كلفنا الآخرين برعايتها . وذات مرة اشتكت باكية : " يا والدى ، انتما ترسلانني هنا وهناك ، فبذلك انسى بيتنا . ارجوكما الا تفعلا ذلك ، انى مشتاقة اليكما . " واستمر بكاؤها اكثر من ساعة ، حتى ان والدها لم يستطع كبح دموعه . ألا نرغب في ان نعيش عيشة هادئة مستقرة ؟ ! مثلا في المساء نجلس نتجاذب اطراف الحديث ، او نداعب طفلتنا ، او نشاهد برامج التلفزيون ، مستمتعين بالسعادة العائلية غير ان ذلك حلم بالنسبة لجميع الممثلين والممثلات . وحرصا منا على عدم جرح مشاعر طفلتنا قدر الامكان توصلنا بالتدريج الى وسيلة فعالة ، هي ان نتجاذب معها دائما اطراف الحديث ، نعاملها معاملة قائمة على المساواة ، ونسمعها غناء جديدا ، ونعرض لها حركات تمثيلية جديدة ، فوجدت في ذلك السرور والبهجة . وذات مرة قالت لي : " انك يا ماما صديقتي الحميمة الانيسة . " واحيانا كانت تسألني قائلة : " يا ماما هل لديك اية مشكلة ؟ " انها تتعلم كيف تعتني بغيرها وكنت اهتم بتشجيعها على تعميق التفكير وقدح زناد

فكرها . انها طيبة القلب برغم صغر سنها . فاذا شاهدت فى التلفزيون ان بعض الابطال اصيبوا بجروح تقول بانفعال : " يا ماما ، عندى خمسة مليمات نعالج بها جروحهم ! "

لقد مضت قرابة ثلاثين سنة على دراستى وممارساتى لاوبرا بكين . وخلال هذه السنين الطويلة ، لم ابذل جهودا فيما يتعلق باعداد الطعام . اذ كنا نتناول الطعام فى المطعم عادة . وبعد الزواج اشترينا لوازم المطبخ ، ولكن نادرا ما نستخدمها ، اذ ليس لدينا وقت لاعداد الطعام ، كما اننا لا نعرف فن الطهى . فمثلا عندما ننتهى من العروض الفنية نسارع الى خلع الزى المسرحى وازالة الماكياج وغسل الوجه ، ثم نهرع الى محطة الاتوبيس . وبعد عودتنا الى البيت نلقى بأنفسنا على السرير من شدة التعب ، لا نريد الحركة ولا الكلام ناهيك عن الرغبة فى اعداد الطعام ، ويكفينا ان نسلق بعض الشعرية او ننقع بعض الشعرية الجاهزة بالماء المغلى لسد جوعنا . وكثير من الزملاء والزميلات فى فرقة اوبرا بكين التى اشتغل فيها لاحظوا ان طعامنا موغل فى البساطة ، فأولونا عناية بالغة . انهم دائما ما يقدمون الينا الاطعمة الجاهزة اللذيذة كالسمك المطبوخ بالبخار واللحم المحمر والسلطة حرصا منهم على تحسين غذائنا . وبالتدريج نشأت عندنا الرغبة فى اعداد الطعام بأنفسنا . وذات مرة اشترينا دجاجة حية ، وحاولنا ان نعد منها طعاما لذيذا ، ولكننا لم نعرف كيف نذبحها . فشجعنا بعضنا بعضا على ذبحها . وفعلنا ذلك ولكن دون تمكن ، فظلت الدجاجة تنازع الموت . وما ان ضغطنا على بطنها حتى صاحت صياحا شديدا ، الامر الذى افزعنا واوقعنا فى حيرة . وذات مرة ، كما نحاول طبخ

كبد ، ولافراطنا فى تقطيعه صار الكبد طحينة عند الطبخ . وادركنا من خلال مثل هذه الممارسات ان الطهى امر ليس سهلا بل يحتاج الى تعلم مثل التمثيل المسرحى ."

ان زوجى تشى تشانغ هو صديقى الحميم المخلص وشريكى فى الحياة ، لا يمكننى ان افارقه ابدا . وان حبنا المتبادل ثمين للغاية . لقد سألنى احدهم : " انتما ممثلان شهيران على خشبة المسرح ، فأيكما نموذجى فى اعمال البيت ؟ " فقلت على الفور : " تشى تشانغ هو النموذجى ، وهو الذى يبادر الى القيام بكل شىء كشراء الخضروات واعداد الطعام وغسل الملابس ورعاية طفلتنا ، ولولاه لعجزت عن اتقان التمثيل على خشبة المسرح . " بينما قال تشى تشانغ ردا على هذا السؤال : " وى كانغ هى النموذجية انها لا تعتبر نفسها صاحبة امتياز ابدا فى البيت ، سواء أكان فى الطعام ام الملابس ام المصاريف . ولولا كونها مساعدة منزلية ممتازة لما استطعت متابعة فن التمثيل . "

ويربط بيننى وبين زوجى تشى تشانغ الانسجام والتوافق فى الطموح والفن والتفكير على السواء . واننا نتمتع برحابة الصدر وطيب السريرة والاخلاص والتسامح فى معاملة الآخرين . فهم يقولون : " ان وى كانغ وتشى تشانغ طيبان شفيقان مستقيمان . "

الامل يدفعنى الى الامام

انا ممثلة من الجيل الجديد فى الصين الجديدة . واذا قيل انى قد احرزت بعض النجاحات فى فن التمثيل ، فان الفضل فى ذلك يعود

اولا الى المعلمين ومساعدة ودعم الزملاء ثم الى مجهوداتى الشخصية ، واولا المعلمين والزملاء لاصبحت شجرة بلا جذور ، وماء بلا منبع ، ولما حققت اى نجاح . ان الفن لا حدود له . واوبرا بكين فن ذو تاريخ عريق ، يجب تطويره والنهوض به ، وذلك يتطلب منا ابداعا جديدا . وانى لأرغب فى القيام ببعض الخطوات فى مجال اصلاح اوبرا بكين ، ويسرنى ان اقدم دروسا فى فشلى ان لم انجح فى ذلك .

منذ لعبت دور يون مى فى مسلسل المسرحية التلفزيونية « اربعة اجيال يعيشون تحت سقف واحد » ، اصبحت عرضة للتقييم العام . وقد جاءتنى دعوات كثيرة ، الواحدة تلو الاخرى ، من مخرجى الافلام للقيام بأدوار فيها ، ولكنى رفضتها جميعا . وذلك لأن الاشتراك فى الاعمال السينمائية والتلفزيونية ليس من تخصصى . فاذا كان من المسموح به ان اقوم بذلك مصادفة فمن غير المناسب ان اكرره . اننى متخصصة بفن اوبرا بكين ولا استطيع ان اتخلى عنه وعن خشبة المسرح التى عشت معها عشرات السنين . ان اوبرا بكين فى حاجة الى تطوير وقد جعلنى هذا الاتجاه التاريخى اتشبث بتصميمى على مواصلة السير قدما فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

طموح العالمة الفلكية يه شوهوا

قالت : " ان من اشد ما يؤلم المرء هو ان يرسم له الآخرون صورة غير مطابقة للاصل . " فانى لا أود ان ارسم لها صورة ، لأن مسيرة حياتها الطويلة ونجاحاتها فى اكتشاف اسرار الفضاء الكونى لايمكن التعبير عنها بصورة مرسومة ، وانما اود ان اضع الخطوط العريضة لشخصيتها : انها تسعى الى البساطة والصدق .

تدعى يه شو هوا ، وهى عالمة فلكية وواحدة من الخمس عشرة عضوة فى المجمع العلمى التابع لاكاديمية العلوم للصينية ، وتتمتع بشهرة واسعة على نطاق البلاد . ان الفضاء الكونى هو مكمن الاسرار ، فهل هى مكمن للاسرار كذلك ؟ كلا ! انها انطلقت من الافق ، وصعدت درجة فدرجة ، وواصلت مساعيها وتلمساتها خلال عشرات السنين ، وبذلك فقط دخلت " مملكة الفضاء الكونى" .

ولدت يه شو هوا فى مدينة قوانغتشو بجنوبى الصين ، وقضت شبابها فى هونغ كونغ . وفى ايام دراستها فى المدارس الاعدادية والثانوية كانت شغوفا بالادب اولا ثم بالرياضيات تحت تأثير تدريجى من معلمها فى الرياضيات . وبعد تخرجها من المدرسة الثانوية التحقت

بكلية الرياضيات والفلك بجامعة صون يات صن فى قوانغتشو . ومن المعروف ان علم الفلك مرتبط بعلم الرياضيات ارتباطا وثيقا . وكانت يه شو هوا على الرغم من تعلقها بالرياضيات لا تحب الأعداد لكونها مملة وغير شيقة مثل علم الفلك المتصف بالغموض والاتساع . فما العمل ؟ انها تعرف ان علم الفلك لا غنى له عن الأعداد . فما دامت قد اختارت التفرغ للفلك طول حياتها ، فلا بد لها من التدرب على حب الأعداد . ومنذ ذلك الوقت بدأت تهتم بتعميق فهمها لمغزى الأعداد ، فوجدت ان الأعداد الصامتة تتضمن ايضا كثيرا من المضامين الشيقة . وهكذا نشأ حبها للأعداد . وعندما ادركت ان دراستها واعمالها تتحلى بأهمية كبرى فى بناء الوطن ، ازداد حبها لعلم الفلك والرياضيات . فطوال السنين الماضية انكبت على البحوث العلمية فى عالم الفلك



يه شو هوا فى امريكا

واستولت على كثير من المعاقل المنيعة فى هذا الميدان .

تخرجت يه شو هوا فى الجامعة عام ١٩٤٩ . ومنذ نوفمبر ١٩٥١ بدأت تعمل فى مرصد شيويجياهوى التابع لمرصد تسيجينشان الذى يعتبر اشهر مرصد فى الصين (فى عام ١٩٦٢ اندمج مرصد شيويجياهوى فى مرصد آخر فى شانغهاى ، وسمى مرصد شانغهاى) وتولت على التوالى منصب نائبة رئيس قسم الابحاث فى المرصد ثم رئيسة هذا القسم ثم نائبة رئيس المرصد ثم رئيسة المرصد .

وقبل تحرير الصين كان فى شانغهاى مرصدان ــ مرصد شيويجياهوى ومرصد شهشان ــ اسستهما الجمعية المسيحية الكاثوليكية فى باريس عام ١٨٢٧ وعام ١٩٠٠ على التوالى . وفى ديسمبر ١٩٥٠ تولت الحكومة الشعبية ادارة هذين المرصدين ، روضعتهما تحت اشراف مرصد تسيجينشان التابع لاكاديمية العلوم الصينية . وفى عام ١٩٦٢ تأسس مرصد شانغهاى التابع لاكاديمية العلوم الصينية بعد دمج هذين المرصدين احدهما فى الآخر . ومنذ ذلك الوقت استقلت الصين بجهدها فى علم الفلك . وعندما بدأت يه شو هوا تعمل فى مرصد شيويجياهوى كان الفرنسيون قد انسحبوا من هذا المرصد ، ولم يبق منه الا اثنان من المواطنين الصينيين . وعلى الرغم من ان هذا المرصد ذو تاريخ عريق ، لكن معداته واجهزته قديمة عتيقة . فأخذت الحكومة الشعبية بعد توليها ادارته تزوده بعدد من الاختصاصيين فى علم الفلك اولا ، ثم جددت معداته واجهزته . وعلى هذا الاساس بدأ المرصد يقوم على نحو شامل بأعمال التوقيت اسهاما منه فى بناء الوطن . ففى اواخر الخمسينات وضع هذا المرصد النظام الصينى للتوقيت العالمى بالتعاون

مع غيره من المراصد ونقط الرصد داخل الصين ، واضطلع بمهمة اجراء العمليات الحسابية لمعطيات التوقيت العالمى الجامع والاعمال المتعلقة بالطباعة والنشر فى هذا الصدد . وفى اواسط الستينات اجتازت معطيات التوقيت العالمى الجامع التى توصل اليها هذا المرصد تقييم الدولة ، وصارت المعيار الصينى للتوقيت العالمى . وما يزال هذا المعيار حتى الآن يعتبر المستوى العالمى المتقدم ، وقد حظى بالثناء عدة مرات . وفى عام ١٩٨١ تولت يه شو هوا منصب مديرة مرصد شانغهاى ، فقام هذا المرصد تحت تنظيمها وقيادتها ببحوث علمية فى مواضيع التقنيات الحديثة مثل تقنية مسح المسافات بالليزر فيما يتعلق بالاقمار الاصطناعية وتقنية VLBI فيما يتعلق بالتدخل الاشعاعى ، وحقق نجاحات اولية فى الرصد الفلكى المشترك داخل البلاد وخارجها . وقد كتبت يه شو هوا اكثر من ٣٠ بحثا او تقريرا علميا ، وفاز بعض ابحاثها بجوائز فى الندوات العلمية الوطنية . ان تطور مرصد شانغهاى لا ينفصل عن جهود جميع العاملين فيه ، كما لا ينفصل عن جهود العالمة الفلكية يه شو هوا .

ان يه شو هوا واحدة من الخمس عشرة عضوة بين ٤٠٠ عضو فى المجمع العلمى التابع لاكاديمية العلوم الصينية . وقد كسبت هذا الشرف الكبير بعملها الكدود ونتائج ابحاثها العلمية . وتتميز العالمة يه شو هوا بالصدق والتواضع ، فكلما تحدثت عن نفسها ، قالت : " ان عملى لاينفصل عن عمل جميع زملائى ، فعملنا عمل جماعى ، بذلت ما فى وسعى فقط فى حلقة من حلقاته . "

لقد قال زملاؤها عنها : " ان العالمة يه شو هوا ليست اخصائية

فحسب ، بل عالمة ذات موهبة ادارية ايضا . " ويرجع السبب فى ذلك الى انها تسعى الى البساطة والصدق . ما مكانتها ؟ وما نفوذها فى مجال علم الفلك ؟ انها لا توضح ذلك بنفسها ، لكن هناك بعض الامور الواقعية التى توضح ذلك .

فى فبراير ١٩٨٥ اختيرت يه شو هوا مراسلة اجنبية للجمعية الملكية البريطانية لعلم الفلك (وفى تلك المرة اختير ٥ اعضاء ذوى جنسية غير بريطانية من بين المرشحين الخمس عشرة) وفى نوفمبر ١٩٨٥ اجازت الدورة التاسعة عشرة الاتحاد الدولى لعلم الفلك خلال انعقادها فى الهند قرارا باقامة هيئة جديدة لخدمة الدوران الذاتى للكرة الارضية على الصعيد للدولى ابتداء من عام ١٩٨٨ ، تتخذ تقنية مسح المسافات بالليزر فيما يتعلق بالاقمار الاصطناعية وتقنية V L B I فيما يتعلق بالتدخل الاشعاعى وغيرهما من التقنيات الحديثة الاخرى لتبديل الرصد البصرياتى الكلاسيكى . وخلال التحضير لاقامة هذه الهيئة كون الاتحاد الدولى لعلم الفلك بالاشتراك مع الاتحاد الدولى لعلم مسح الارض وعلم فيزياء الارض فرقة قيادية موقتة تتألف من ١٤ عضوا ، وكانت يه شو هوا واحدة بينهم . وفى اغسطس ١٩٨٨ تم اختيار ٣ نواب جدد لرئاسة الاتحاد الدولى لعلم الفلك ، وكانت يه شو هوا واحدة منهم كذلك . وكانت تلك هى المرة الاولى التى يضطلع فيها صينى بهذا المنصب .

لقد بلغت يه شو هوا الستين ، ولكنها ما تزال تعمل ، وستستمر فى العمل . وامامها مستقبل جديد ، ولديها قدرة جديدة على المنافسة ، شأنها شأن مرصد شانغهاى . ان الذى يهمها هو علم الفلك بالذات لا المنصب القيادي . ولقد قالت : "كنت فى الاصل مدرسة فى

مدرسة ثانوية ، وانى لعلى استعداد للعودة الى عملى السابق هذا ، بل مستعدة لمفارقة الحياة فى اى يوم ، وانا فى غاية الاطمئنان . انى سعيدة بالفرصة التى اتيحت لى لاكمال دراستى فى جميع المراحل ، مما مكننى من القيام بالاستكشافات العلمية . فهناك اناس لم تتح لهم فرصة التعلم المدرسى ، لذلك لم تتوفر لديهم الظروف لاظهار مواهبهم . وهذا ما يجعلنى اشجع الآخرين دائما على الاعتزاز بفرص الدراسة . "

لم يكن طريق الاستكشافات العلمية الذى سلكته يه شو هوا خلال عشرات السنين طريقا ممهدا ، بل محفوفا بالصعوبات . ولقد دفعت ثمنا اغلى باعتبارها امرأة ، فكان عليها اولا تحطم تقييد الفكرة المتعفنة الاقطاعية التقليدية التى استمرت آلاف السنين ، تلك الفكرة التى تدعو الى السعى وراء الترف والبذخ . فاكتفت يه شو هوا بانجاب ولد واحد حتى تظل متفرغة لاختصاصاتها ، فهى ترى ان تربية طفل واحد تكلف الوالدين كثيرا من الجهود كى يصلا به الى مدار الحياة السديدة . وليس لديها من الوقت ما يتسع لهذا كله .

. انها سعيدة كزوجة لأن لديها زوجا طيبا ، يتبادل معها الاحترام والتفاهم . وكان زميلا لها فى الجامعة ، متخصصا مثلها فى دراسة علم الفلك . ويشتغل الآن استاذا فى كلية الرياضيات التطبيقية فى جامعة جياوتونغ فى شانغهاى . ومزاجهما ورغباتهما المشتركة جعلتهما لا يسعيان ابدا وراء المظاهر الخادعة ، انما يسعيان وراء الحقائق الجوهرية . وحياتهما تتميز بالبساطة والتواضع ، ولكن عملهما يتصف بروح المبادرة والكفاح . وتوافقهما فى الميل والآراء جعلهما يعيشان

فى وثام دائم . وابنهما الوحيد فى الخامسة والثلاثين من عمره الآن . وفى ايام صغره لقى من والده رعاية اكثر مما لقى من والدته . وفى فترة اضطرابات " الثورة الثقافية " لم يجد مفرا من معاناة آلام الانقطاع عن المدرسة ، فاشتغل عاملا فى المصنع مدة ١٠ سنوات برغم ان والديه عالمان كبيران . وبعد سقوط " عصابة الاربعة " استؤنف نظام الامتحان لقبول الطلبة الجامعيين ، وحينذاك اتيحت له فرصة الدراسة فى الجامعة . ويدرس الآن فى الولايات المتحدة لنيل شهادة الدكتوراه .

ان بيت العالمة يه شو هوا فى شانغهاى يخلو من الاثاث الفاخر ، ومسكنها يتميز بالبساطة والتواضع والذوق الرفيع ، الامر الذى يدل على ان المنحى الرئيسى لحياة صاحبته هى السعى وراء البساطة والصدق .

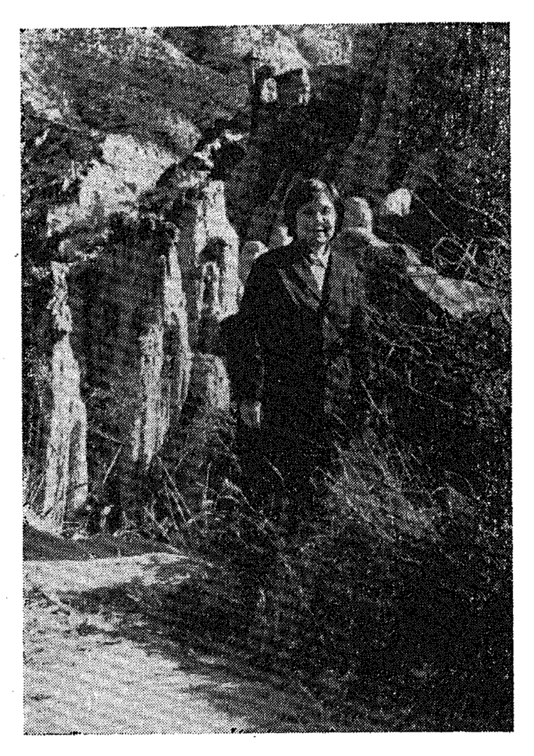
وانغ تشى رن

ـ من يتيمة ريفية الى اختصاصية فى التكنولوجيا الفضائية

قلما يكون كبار الاختصاصيين فى التكنولوجيا بالصين من الجنس اللطيف . فقد جاء فى احصاء عام ١٩٨٢ ان عدد الاختصاصيات الكبيرات فى التكنولوجيا فى الصين عامة ٧٤٠٠ اختصاصية ، وهذا يحتل ٩ر١٠٪ من مجمل عدد كبار الاختصاصيين فى التكنولوجيا فى البلاد كلها . ولذا تعتبر كل واحدة منهن شخصية بارزة فى صفوف النساء .

ومن بين اولئك الشخصيات البارزات مهندسة كبيرة وباحثة علمية بدرجة بروفسورة ، تدعى وانغ تشى رن . انها تشغل منصب مهندسة عامة مساعدة فى تصميم صواريخ الصين الناقلة الحديثة الطراز ، كما انها اختصاصية فى التكنولوجيا الفضائية . وقد نشأت فى الاصل ، يتيمة ريفية ، لذلك استرعى طريق كفاحها اهتمامنا البالغ .

ذات يوم اجرينا معها لقاء صحفيا فى معهد البحوث التابع لوزارة صناعة للفضاء فى الضاحية الجنوبية من مدينة بكين على بعد ٢٠ كيلومترا من مركزها ، حيث الجو الهادئ الجميل ، وهذا المعهد يعتبر مدينة علمية صغيرة .



وانغ تشي رن

وعندما وصلنا غرفة الاستقبال فى المعهد وجدنا امرأة كهلة تستقبلنا عند المدخل ، هى المهندسة الكبيرة وانغ تشى رن . انها من حيث المظهر امرأة عادية ، متوسطة القامة ، اميل الى السمنة ، سمراء ، شائبة الشعر . ولباسها كان عاديا جدا : بنطالا ازرق وجاكيتا رمادية وحذاء قماشيا ارجوانى اللون . ومن هيئتها الخارجية يبدو عليها انها امرأة ريفية من شمالى الصين ، وليست اختصاصية ذائعة الصيت فى مجال العلوم والتكنولوجيا . تقدمت وانغ تشى رن منا تصافحنا مصافحة ودية حارة ، ووجهها يطفح بالبشر والبساطة .

ومراعاة لوقتها الثمين طرحنا عليها الاسئلة مباشرة . وكان اول حديثنا عن نشأتها من يتيمة ريفية الى اختصاصية تكنولوجية .

يتيمة ريفية ـ عاملة فى معمل كيمياء ـ طالبة جامعية

" ليس عندى شىء يستحق الذكر ، وحياتى كلها عادية . هناك نساء كثيرات اقوى منى ، الا ان فرصتى احسن من فرصهن ، وعمرى اكبر من اعمارهن . وتجاربى اكثر من تجاربهن ولا شىء غير ذلك . " ان هذه الجمل التى استهلت بها حديثها تبرهن على صحة انطباعنا الاول عنها .

ومضت تقول : " ولدت عام ١٩٢٨ فى محافظة آنقوه بمقاطعة خبى وكان والدى معلما فى المدرسة الابتدائية الريفية ذا دخل قليل . وتوفيت والدتى ، وانا فى السابعة من العمر . وبعد ذلك بثلاث سنوات توفى والدى . ومنذ ذلك الوقت عشت عالة على اخي وزوجته ،

واضطررت الى الانقطاع عن الدراسة وانا فى الصف الثانى الابتدائى بسبب فقر عائلة اخى .

وبعد حادثة ٧ يوليو عام ١٩٣٧ صار موطنى منطقة لحرب العصابات ضد العدوان اليابانى . وتأسست فيه سلطة شعبية تحت قيادة الحزب الشيوعى لمقاومة الغزاة اليابانيين . وفى عام ١٩٤٥ التحقت بالمدرسة من جديد . وكان التلاميذ يدرسون قبل الظهر ويقومون بالعمل الانتاجى بعد الظهر . وحينذاك كان الغزاة اليابانيون يمارسون فى شمالى الصين سياسة بربرية ، تدعى سياسة احراق الكل ونهب الكل وقتل الكل ، فانتشرت الخنادق والقلاع فى كل مكان ، وخيم الارهاب على كافة البقاع فى شمالى الصين ، ولجأت سلطة مقاومة العدوان اليابانى الى العمل السرى . وكان المواطنون يريقون دماءهم ويستشهدون فى سبيل انقاذ الوطن . وبتأثير ذلك اشتعلت نيران الحقد فى صدرى ، فطلبت الانضمام الى الجيش لمقاومة العدوان اليابانى . ولكن الجيش لم يقبلنى لصغر سنى ، فانضممت الى منظمة الاطفال للاشتراك فى بعض النشاطات ضد العدوان اليابانى .

وفى ربيع عام ١٩٤٥ اخترقت مع عدد من المقاومين خط حصار العدو ــ السكة الحديدية بين بكين وهانكو ووصلت الى المنطقة الحدودية بين مقاطعات شانشى وتشاهار وخبى ، تلك المنطقة المحررة المفعمة بالجو الثورى . وبدأت اشتغل عاملة فى فرقة انتاج الحامض الكبريتى فى معمل كيمياء ، معداته غاية فى البساطة . فصهريج التفاعل هو مجرد اناءين فخاريين كبيرين يطبق احدهما فوق الآخر ، والمنفاخ مجرد قربة مصنوعة من جلد الغنم ، والانتاج بدائى ، والورشة

يسودها ثانى اكسيد الكبريت وثانى اكسيد النتروجين ، مما يحبس انفاس العاملين فيها ، فيلزمهم التمشى على ضفة النهر حيث الهواء النقى قبل تناول الطعام . وكانت ظروف العمل والمعيشة فى ذلك الوقت صعبة جدا ، ولكننا كنا نعمل جميعا بمعنويات عالية وسرور بالغ ، لا احد منا يتحسر او يتذمر لأننا نعلم جيدا ان القوات المسلحة الشعبية فى الجبهة الامامية فى ميدان القتال تنتظر فى تلهف المزيد من ذخائر الحرب .

وعلى الرغم من مزاولتنا الانتاج الكيماوى ، الا ان القليل منا كان يستوعب معارف الكيمياء حقا . وهذا الحال غير طبيعى ، فبدأت اتعلم الكيمياء مستغلة جميع الفرص السانحة . وخلال ثلاث سنوات تعلمت الفيزياء والجبر من منهج المرحلة الاعدادية والكيمياء من مناهج المراحل الاعدادية والثانوية والجامعية . وفى مايو ١٩٤٨ نجحت فى امتحان قبول الطلاب الجدد للمدرسة الصناعية فى المنطقة الحدودية بين مقاطعة شانشى وتشاهار وخبى لأدرس فيها الكيمياء . ودرست بجد واجتهاد جميع المعارف المفيدة ، واحرزت نتائج ممتازة . وفى شتاء العام نفسه تأسس المعهد الصناعى لشمالى الصين ، فالتحقت عبر الامتحان بالفصل التمهيدى للدراسة فى هذا المعهد . وفى اغسطس ١٩٤٩ انتقل هذا المعهد الى بكين وتحول اسمه الى معهد بكين الصناعى . وفى عام ١٩٥٠ بدأت ادرس فى السنة الاولى فى هذا المعهد . وهكذا اصبحت طالبة جامعية من الدفعة الاولى من الطلبة الجامعيين فى الصين الجديدة ، وانا فى الواحدة والعشرين من عمرى حينذاك . »

النجاح حليف الطموح

" فى احدى ليالى الصيف عام ١٩٥١ كانت قاعة المآدب فى فندق بكين مشرقة بالانوار ، حيث اقام رئيس مجلس الدولة شو ان لاى حفلة توديع للدفعة الاولى من الطلبة الذين سيتوجهون الى الاتحاد السوفياتى للدراسة . ان الدراسة خارج البلاد امر ما كنت اتصوره على الاطلاق ، ولكنه اصبح واقعا بالنسبة لى . وفى المأدبة اوصانا رئيس مجلس الدولة شو ان لاى قائلا : ' على الرغم من ان الدولة تواجه صعوبات اقتصادية ، الا انها توفدكم الى خارج البلاد للدراسة . عليكم ان تعاملوا الطلبة السوفياتيين وغيرهم من الطلبة الاجانب خير معاملة انطلاقا من دافع الوحدة والتضامن . وارجو ان تبذلوا قصارى جهدكم فى الدراسة لاستيعاب المعارف العلمية وكسب المهارة من اجل بناء الصين الجديدة . '

بعد وصولنا الى الاتحاد السوفياتى درسنا اللغة الروسية مدة سنة ، ثم التحقنا بمعهد موسكو للطيران حيث درسنا مواد الاختصاصات المتعلقة بالطيران .

ان الحياة الدراسية خارج البلاد طويلة شاقة ، فمن اجل الدراسة تخليت عن ايام الراحة جميعها تقريبا . كان الطلبة السوفياتيون يشتركون ايام السبت فى حفلات الرقص ، بينما اعكف انا على مراجعة الوثائق غير المفتوحة فى قاعة المطالعة الخاصة . وفى ايام الاحد يقومون بزيارات للاماكن السياحية والاثرية ، بينما اقضى انا الاوقات فى قاعة المطالعة ،

لا اخرج منها طول اليوم مكتفية عند الغداء بقطعة خبز . وامام مساكن الطلبة ينبسط ميدان كبير للتزلج على الجليد ، ولكنى قلما كنت ألعب فيه .

لقد كنت المتزوجة الوحيدة بين الطلبة الصينيين . ولكن طوال تلك السنوات السبع من دراستى فى الاتحاد السوفياتى لم اعد الى وطنى الا مرة واحدة . وكان طبيعيا ان اشعر بالحنين الى زوجى ، ولكنى كنت اتغلب على ذلك حين يخطر ببالى ان الوطن قد ارسلنى الى الخارج للدراسة على الرغم مما يواجه من صعوبات اقتصادية ، وان قضية الطيران الصينية تنتظرنى ، ولقد قلت لزوجى وانا اودعه لدى مغادرتى الوطن من اجل الدراسة : " ان نتائج الدراسة اهم من كل شيء ، فلن اعود الى الوطن لأقابلك ان لم احقق النتائج الممتازة . "

النجاح حليف الطموح . ومعظم الطلبة الصينيين حققوا نتائج ممتازة فى دراستهم ، وكانوا من اوائل الفائزين فى سنواتهم الدراسية ، مما ترك انطباعات طيبة جدا فى نفوس الاساتذة السوفياتيين فقالوا : " ان الطلبة الصينيين جديرون بالثناء ، وهم دون شك سيكونون قادرين بعد عودتهم على بناء وطنهم على خير وجه . "

وفى عام ١٩٥٧ ، اى قبل عودتنا الى الوطن بسنة واحدة ، توجه الرئيس ماو تسى تونغ الى موسكو على رأس وفد صينى للاشتراك فى احد الاجتماعات الدولية . وهناك قام مع السيدة سونغ تشينغ لينغ ودنغ شياو بينغ وبنغ ده هواى وغيرهم من قادة الحزب والدولة باللقاء مع الطلبة الصينيين فى قاعة الاجتماع بجامعة موسكو . وقال كلمته المشهورة : " ان العالم لكم ولنا كذلك ، ولكنه لكم فى التحليل

النهائى .. ان الامل معقود عليكم . ' ولدى سماعنا هذا الكلام ازداد احساسنا بالمسئولية ازاء الوطن . وكانت الفكرة التى ترسخت فى ذهنى حينذاك هى عقد العزم على بذل قصارى جهدى لتحقيق النجاح فى الدراسة قبل عودتى الى الوطن ، والا فكيف اقابل الاحباء فى الوطن .

وفى عام ١٩٥٨ انجزنا — نحن الدفعة الاولى من الطلبة الدارسين فى الاتحاد السوفياتى — مهمة الدراسة ، وعدنا الى الوطن الذى كان فى مد عال للبناء الاشتراكى . "

سلوك طريق خاص

" عقب انتهائنا من الدراسة الجامعية فى الاتحاد السوفياتى وعودتنا الى الوطن اضطلعنا مباشرة بأعمال البحوث الخاصة بصنع محركات الصاروخ الجديدة الطراز . ويومها بدأت العلاقات الصينية السوفياتية تتوتر ، فأصبح الخبراء السوفيات لا يزودوننا بالمعلومات الجوهرية . ولدى قيامنا بترجمة الوثائق الاجنبية وجدنا كثيرا من المصطلحات العلمية الجديدة علينا ، فلم نعرف لها تسمية باللغة الصينية . ما العمل ؟ هل نقلد محركات الصاروخ القديمة الطراز التى قدمها لنا الاتحاد السوفياتى ؟ كلا ! انها اقدم المحركات والصواريخ صنعها فى اثناء الحرب العالمية الثانية مقلدا المحركات الالمانية . وان التقليد دون تجديد يعنى استمرار التأخر ، والبناء الاشتراكى لا يسمح بالزحف وراء الآخرين .

وفى عام ١٩٦٠ مزقت الحكومة السوفياتية جميع الاتفاقيات

المعقودة مع الصين ، بما فيها الاتفاقية الخاصة بمساعدة الصين على بحث وصنع الصواريخ . وانسحب الخبراء السوفيات ، الامر الذى أفقدنا " الركيزة " التى نستند اليها . والحقيقة ان تلك " الركيزة " لم تكن موضع ثقة . وازدادت مهامنا — انا وزملائى — صعوبة ، ولكن ظل لدينا تصميم مشترك على انجاح اطلاق الصواريخ الصينية التصميم والصنع الى الفضاء .

وبدهى ان المحرك هو قلب الصاروخ . وقد اضطلع بمهمة بحث وصنع المحرك اربعة خريجين جامعيين جدد . وكانت الصعوبات التى تعترضهم كثيرة اذ لم تكن لديهم التصميمات الجاهزة ولا المعدات اللازمة فضلا عن افتقارهم الى الخبرة الكافية . وهكذا بات لزاما علينا ان نسلك طريقنا الخاص بالاعتماد على انفسنا .

وحظيت اعمالنا بالتأييد من جميع الجهات ، بدءا من كبار قادة الحزب والدولة وانتهاء بالعمال العاديين . وكان المارشال نيه رونغ تشن هو الذى يقود اعمال البحوث العلمية فى مجال الدفاع الوطنى ، فاستمر يقدم لنا توجيهاته القيمة . وكان المهندسون المتخصصون فى عالم الصواريخ ينزلون الى الورش حيث يعلمون سويا مع العمال لصنع وتركيب المعدات اللازمة . واذا وجد العمال قطع الغيار المصنوعة حسب التصميمات غير نافعة قدحوا زناد اذهانهم لصنع قطعة قياسية اولا ، ثم يرسم المهندسون التصميم وفقا لها .

ولم تذهب سدى جهودنا التى استمرت ثلاث سنوات . ففى عام ١٩٦٤ نجحنا اخيرا فى صنع محرك صاروخ صينى بفضل تعاوننا الجماعى وجهودنا المشتركة . ومن المعروف على نطاق العالم كله ان

تلك السنوات الثلاث كانت اصعب فترة على جمهوريتنا الفتية ، اذ ان الكوارث الطبيعية والنكبات التى من صنع الانسان فى تلك الفترة قد عرضت اقتصاد بلادنا لخطر الانهيار . فالبلاد اذ ذاك تنقصها الحبوب الغذائية وجميع الصينيين ، من الرئيس ماو تسى تونغ ورئيس مجلس الدولة شو ان لاى الى المواطنيين العاديين ، يعيشون عيشة تقشف متحملين آلام الفقر والجوع الناجمين من تلك الكوارث والنكبات. وكثير منا يعانون من مرض الاستسقاء الذى يرجع سببه الى شدة نقصان الغذاء ، ولكننا من اجل انجاح صنع اول محرك صاروخى صينى واظبنا على العمل الرسمى والاضافى متحدين الجوع .

ولم يكن الامر ميسورا ، فقد حدثت للمحرك مشكلة عند اول تجربة لاستخدامه . فأصبحت — انا المسؤولة عن الفرقة المتخصصة ببحث وصنع هذا المحرك — فى اشد حالات القلق ، لا اجد شهية للطعام ولا راحة فى النوم ، وبقيت ملازمة موقع التجربة وورش الانتاج . وشاءت المصادفة ان تمرض ابنتى التى لم تتجاوز الثالثة من عمرها حينذاك ، واصبح من المفروض ان ألازمها فى البيت للعناية بها . لكنى كنت مدركة تماما أن مسألة المحرك الصاروخى لا تستغنى عنى . فأوكلت اخت زوجى برعاية ابنتى المريضة ، وقلت فى نفسى : انك مظلومة يا ابنتى ، فلا بد ان اتركك فى سبيل انجاح الصاروخ الفضائى الصينى بأسرع وقت ممكن .

واكتشفنا ان السبب فى فشل تجربة استخدام المحركة يرجع الى عدم أستقرار الاحتراق . فكيف تحل هذه المشكلة ؟ لقد كتمت الدول الاجنبية سر ذلك عنا . فلم نجد بدا من الاعتماد على حكمتنا

الجماعية ، حيث وضعنا بضعة وثلاثين مشروعا ، وقمنا بما يزيد عن مائة تجربة ، وتوصلنا فى النهاية الى الحل . "

فى سبيل المثل الاعلى

" هناك عدة مديرات لمعاهد البحوث التابعة لوزارة صناعة الفضاء . وجميعهن قادرات وجريئات . ان اعمال البحوث العلمية تتطلب مستوى اختصاصيا عاليا وروحا ابداعية وصحة بدنية جيدة . والمرأة فى هذا المجال تواجه متاعب اكثر من الرجل لأنها تضطلع الى جانب ذلك بالشؤون المنزلية وتربية الاولاد .

وانى مثل اغلبية زميلاتى اضطلع بحملين ثقيلين ، احدهما مهام العمل وثانيهما الشؤون المنزلية . وقد تعبت ذهنيا وجسديا ، ولا سيما فى فترة طفولة ولدى الاثنين . ومن حسن الحظ انى نشأت فى الريف فأعمال الخياطة لم تكن غريبة على . وفى ايام الراحة كنت دائمة الانشغال باعداد الملابس لولدى الاثنين . ومن اجل ان اربى عندهما قدرة الاعتماد على النفس كنت اتركهما فى البيت دون رعاية من الآخرين حين اشغل عنهما بأعمال المكتب .

انى متقشفة فى المعيشة . وعند شراء المستلزمات اليومية أفضل عدم الشراء على الشراء فى الطابور لأنى ارى فى ذلك هدرا للوقت الثمين . وفى سن الشباب كثيرا ما كنت اقضى وقتى فى معمل الاختبار طوال اليوم . وفى هذه الحالة كنت اجهز الطعام مسبقا فى المساء ليتناوله ولداى بعد الاكتفاء بتسخينه . وقد يساعدها الجيران فى ذلك

لأن زوجي يعمل ايضا فى مكان بعيد عن البيت ، ولا يستطيع العودة ظهرا .

هوايتى هى السباحة ، وقلما اشاهد السينما . وبالنسبة للتلفزيون اشاهد نشرة الاخبار المشتركة بين جميع محطات التلفزة وبرنامج " نافذة على الصين " و" نافذة على العالم " والافلام العلمية التعليمية . اما زوجي فيهوى مشاهدة اوبرا بكين . وكثيرا ما تحدث بيننا تناقضات لاختلاف هواياتنا .

والآن توظف ولدانا . فالابنة خريجة فى جامعة جياوتونغ فى مدينة شيآن واختصاصها الاتصال اللاسلكى وهى متزوجة . والابن خريج فى معهد بكين للطيران واختصاصه الآلة الحاسبة . وزوجي قد تقاعد ، فيضطلع نيابة عنى بجميع الاعمال المنزلية تقريبا ، وبرغم ذلك لا ازال اشعر بضيق الوقت . فالعلم فى تطور ، والمجتمع فى تقدم . وعصرنا الحاضر يتميز بانفجار المعارف . وهناك كثير من المعارف الجديدة ينبغى لنا ان نتعلمها ، والا فمن المستحيل ان نساير العصر المتطور . ولذلك اقضى كل اوقات فراغى فى دراسة المعارف الجديدة . فقد تعلمت مثلا استخدام الحاسبات الالكترونية بالاعتماد على النفس ، وتمكنت من ذلك خلال السنوات القليلة الماضية . وبعد عودتى الى البيت فى المساء استمع عادة الى المحاضرات التلفزيونية وانا اعد العشاء . ان تخصصات العلوم والتكنولوجيا لا تستغنى عن مراجعة عدد كبير من المعلومات الاجنبية . وكنت لا اعرف الانجليزية ، فشرعت ادرسها فى اوائل السبعينات باستخدام اوقات الفراغ . فى الصباح استمع الى برامج الاذاعة بالانجليزية خلال اعداد الفطور ، وفى المساء

اقرأ الكتب واحفظ الكلمات الانجليزية . وجملة القول ان رغبتى فى دراسة المعارف شديدة ، ولكن وقتى الخاص للدراسة قليل جدا . "

لقد قطعت العالمة وانغ تشى رن معظم حياتها مارة بالمجتمعين القديم والجديد . واشتركت فى بحوث وصنع اربعة انواع من محركات للصواريخ الجديدة الطراز . وبهذا وهبت للمجتمع والشعب ذكاءها وموهبتها وشبابها . وهى اليوم تناهز الستين ، وتجد ان قوتها الجسدية ليست على ما يرام ، فتنوى الاستقالة وترك منصبها القيادى للرفاق الشباب ، وترى ان الجيل الجديد سيخلفهم عاجلا او آجلاً . ومن الممكن ان يؤدى خدمة افضل . وقالت بأنها ستقوم بعد تنازلها عن المنصب القيادى بتدريس طلبة الدراسات العليا واستخلاص الخبرات وممارسة البحوث النظرية . انها لا تزال تواظب على اعمال تخصصاتها دون كلل ولا ملل . وهى راضية بذلك ، ولكنها مع تقدمها فى السن تواجه مسألة التقاعد اضافة الى رغبتها فى التخلى عن منصبها القيادى .

وقانون التقاعد فى الصين يقضى بأن تتقاعد المرأة فى سن الخامسة والخمسين ، بينما يتقاعد الرجل فى الستين . وتتخذ اوساط المرأة عموما موقفا مخالفا لذلك . والمثقفات على الاخص يرين ان سن التقاعد يجب ان تكون واحدة للرجل والمرأة على السواء بحجة ان اغلبية النساء يمكنهن ان يشتغلن بحيوية وافرة بعد بلوغهن الخامسة والخمسين ، ولذلك لا يجوز للمجتمع ان يجردهن من حق العمل مبكرا . ويقال ان اتحاد النساء لعموم الصين قد اهاب بالجهات المعنية ان تعدل سن تقاعد المرأة ، ولكن لم يظهر حتى الآن ما يشير الى هذا التعديل .

ما العمل بعد التقاعد ؟ هذا سؤال موجه لعدد كبير من النساء

العاملات اللاتى تقاعدن حديثا او سيتقاعدن قريبا ، ويمثل فى الواقع مشكلة محيرة . لكن العالمة وانغ تشى رن لم تبال بذلك ، وقد قالت لنا فى سرور : " سأقوم بعد التقاعد باستخلاص التجارب نظريا ، وسأشارك زوجى فى اداء الشؤون المنزلية وتنظيم امور المعيشة على نحو افضل . "

وفى نهاية مقابلتنا الصحفية معها رددت ان اعبر عن تمنياتى لها بسنوات سعيدة من حياتها الباقية ، لكنى لم افعل ، اذ رأيت انها سيدة دائمة الشباب .

مخرجتان سينمائيتان صاعدتان

فى السنوات الاخيرة برزت فى الاوساط السينمائية ظاهرة عجيبة ، الا وهى ان جيلا جديدا من المخرجات السينمائيات برزن فى ميدان السينما بمواهبهن العظيمة ، حيث اخرجن واحدا بعد آخر من الافلام الجديدة التى تسترعى الانتباه ، واظهرن فيها جبروتهن واحساساتهن الفنية الفريدة واساليبهن التعبيرية الدقيقة ، فحظين بالثناء والشهرة داخل الصين وخارجها . وعددهن يتجاوز الثلاثين ، واعمارهن تتراوح بين الاربعين والخمسين ، ونتائج اعمالهن بارزة ، فمن بين الافلام الروائية الممتازة الخمسة عشر التى وقع عليها الاختيار عام ١٩٨٥ تحت اشراف وزارة الثقافة الصينية ٧ افلام من اعمال هؤلاء المخرجات ، هذا وان معظم الافلام الصينية التى احرزت جوائز دولية فى السنوات الاخيرة هى من اخراجهن .

وفى احد مهرجانات الافلام الدولية ابدى المجتمعون اعجابهم الشديد حين عرفوا ان فى الصين اكثر من ثلاثين مخرجة يقمن باخراج الافلام كل على انفراد ، فعدد المخرجات السينمائيات مايزال قليلا على نطاق العالم . وسنعمد فى هذا الكتاب الى تعريفكم اعزاءنا القراء بمخرجتين صينيتين هما جيانغ شو سن ووانغ هاو وى :

أ ـ المخرجة جيانغ شو سن الملقبة بالرجل المكافح

جيانغ شو سن مخرجة شهيرة فى استوديو تشانغتشون للافلام السينمائية . انها امرأة طويلة القامة قوية البنية . ومن وجهها الاسمر اللون يعرف الناس انها تعمل فى الخلاء دائما بلا شك . ومن اول لحظة فى مقابلتنا الصحفية معها حدثتنا عن مختلف المواضيع باسهاب ، فقالت : " ان المخرجات الصينيات يلعبن دور ' نصف المجتمع ' عن جدارة ، وانهن يعملن جميعا على نحو رائع محققات نتائج بارزة . فالمخرجة وانغ بينغ من الجيل القديم قد اخرجت عدة افلام سينمائية قبل ان أشتغل مخرجة . وهى لطيفة سهلة التعامل رفيعة المستوى ، لذلك اتخذتها قدوة . والمخرجة وانغ تشون لان من استوديو شينجيانغ للافلام السينمائية جريئة وقوية فى العمل ، وتحت اشرافها نشأت مجموعة من السينمائيين الممتازين . والمخرجة وانغ هاو وى من استوديو بكين للافلام السينمائية وديعة هادئة ومستقيمة فى عملها . فيلمها « انظروا ، هؤلاء من نفس العائلة » يتميز بالظرافة ، ولا يتقيد بالاساليب التقليدية . وفى استوديو شانغهاى للافلام السينمائية مجموعة من المخرجات يتصفن بالجرأة على المنافسة ، وبعض اعمالهن السينمائية تتحلى بأساليب فنية رفيعة جدا . ففيلم « خرير ماء المعين » الذى اخرجتها شى شياو هوا قد نال الجائزة الدولية ست مرات على التوالى . وفيلم « الفتاة ذات الرداء الاحمر» الذى اخرجته لو شياو يا فى استوديو اومى لأول مرة بصورة مستقلة قد نال الجائزة على الصعيد



جيانغ شو سن

الوطنى ثلاث مرات لتجديداته المميزة فى الاسلوب والمعنى . والمخرجة شياو قوى يون تتمتع باحساس فنى جيد جدا ، وامامها مستقبل مشرق وضاء . . . " وهكذا عرفت لنا اكثر من عشر مخرجات دون توقف ، فقاطعتها مضطرة ، وطلبت منها ان تحدثنا عن احوالها .

الفوز بالجائزة ليس معيارا للنجاح التام

عرفتنا المخرجة جيانغ شو سن بنفسها قائلة : " انى فى السادسة والخمسين من العمر ، ومن المفروض ان اتقاعد . ولكن الاستوديو طلب منى ان اشتغل سنتين اخريين لاقوم باخراج فيلمين جيدين . وقد قبلت هذا الطلب . وانى اسعى الآن جاهدة لاختيار السيناريو . ان عمل المخرج السينمائى يتكرر دائما على النحو التالى : اختيار السيناريو ثم تصوير الفيلم ثم تلخيص العمل كتابيا ثم اختيار سيناريو جديد . وانا لا ارتضى البقاء فى البيت ، فقال زوجى : ' انك كفرس مربوطة ، تحفر الارض بحوافرها لعجزها عن الركض ، فيستحسن ان تغادرى البيت حتى لا تثيرى ازعاجا ان بقيت حبيسة فيه ! ' وهكذا تركت البيت وجئت الى بكين . "

ان المخرجة جيانغ متسرعة ومتميزة بالصراحة . واذا سألتها عن هوايتها ، اجابتك بأن هوايتها الوحيدة هى الاخراج السينمائى . وعندما استعرضت مسيرتها فى العمل السينمائى قرابة ٣٠ سنة قالت بتأثر : " وظيفتى الاولى لم تكن فى مجال السينما . ففى اول الامر كنت اشتغل ممثلة فى فرقة فنية تابعة للقوات المسلحة ، وعمرى فى ذلك



جيانغ شو شن خلال قيامها باخراج احد الافلام

الوقت ١٥ عاما ، وخريجة مدرسة اعدادية فقط . وفى عام ١٩٥٨ سرحت من الجيش ، فوقع اختيارى على مهنة الاخراج السينمائى لتعلقى بالفن التمثيلى منذ نعومة اظفارى . وكنت حينذاك قد بلغت السابعة والعشرين . فاشتغلت فى البداية مخرجة مساعدة . وعندما اصبحت قادرة على اخراج الفيلم بدأت اضطرابات "الثورة الثقافية" التى دامت ١٠ سنوات ، مما افقدنى كثيرا من فرص الممارسة الفنية .

ينبغى للمخرج الممتاز ان يكون مهذبا تهذيبا عاليا سياسيا وفنيا وملما بمعلومات واسعة ، ولديه بصيرة ثاقبة بالحياة وفهم سليم للمجتمع وافكار نفاذة لا تضاهى . كما ينبغى له ان يكون شديد الاحساس

بالمسؤولية ازاء مئات الملايين من النظارة . . . وهذه كلها تأتى عبر الدراسة الكدودة وجمع الخبرات فى الممارسات العملية . وعلى الرغم من دراستى الفن والادب طالبة غير نظامية فى الجامعة ، الا اننى بقيت بحاجة الى بذل المزيد من الجهد لتحقيق الكفاءة المنشودة فى العمل بالقياس الى الطلبة النظاميين فى معاهد السينما . فالعمل الذى ينجزه آخرون خلال ١٠ دقائق قد يستغرق منى ساعتين ، فمن اين يتهيأ الوقت ؟ ورحت اشتغل كل وقت فراغ لدى . حتى اوقات الراحة خلال تصوير الفيلم كنت اقرأ فيها الكتب ، واتعلم وانام فى فى وقت متأخر .

فى عام ١٩٧١ بدأت اشتغل مخرجة للافلام الاجنبية المترجمة الى الصينية . ومن بين هذه الافلام فيلم رومانى « الشجاع ميخاى» وفيلمان كوريان « اسرة عامل » و« بائعة الازهار» وفيلم روسى « الحرب والسلام » . وفى الفترة ما بين عامى ١٩٧٣ و١٩٧٧ اضطلعت بمهمة اخراج ثلاثة افلام روائية بالاشتراك مع مخرجين آخرين ، وهذه الافلام هى « جبل الصنوبر» و« اناس جدد فى ريف جبلى » و« القتال فى بلدة الفهد » . وفى عام ١٩٧٨ بدأت اقوم باخراج الافلام على نحو مستقل فاخرجت فى ذلك العام فيلم « امتداد مياه نهر قانسوى» ثم اخرجت على التوالى فيلم « الثلوج الذائبة » و« الوان قوس قزح» و« رقم ٥ — شارع هوايوان » و« قدرة المرأة » . ثم ساعدت استوديو لونغجيانغ على تصوير فيلم « الحب ليس بعيدا تحقيقه » كما ساعدت محطة التلفزيون فى مقاطعة لياونينغ على تصوير فيلم تخيلات علمية للاطفال بعنوان « طفل ساحر» . ”

لقد لخصت المخرجة جيانغ حياتها الفنية التى دامت ٣٠ سنة دون ذكر نجاحاتها الفنية ودرجات الشرف التى نالتها . والواقع ان الافلام التى اخرجتها متميزة بالبساطة ونابضة بالحياة وخالية من الاساليب التقليدية وفائضة بالحماسة والاحساس بالمسؤولية ازاء المجتمع ، لذلك تعتبر اعمالا سينمائية راقية ، وقد لقيت اقبالا عظيما لدى النظارة . ومنذ السنة الثانية لقيامها بالاخراج المستقل بدأت تحصل على الجوائز ، واحدة تلو الاخرى . ففى عام ١٩٨٠ فاز فيلمها الروائى الثانى « الثلوج الذائبة » بجائزة الفيلم الروائى الممتاز من وزارة الثقافة وجائزة افضل اخراج فى مسابقة الافلام الثالثة على نطاق استوديو تشانغتشون للافلام السينمائية . وفى عام ١٩٨٣ منح فيلم « الحب ليس بعيدا تحقيقه » الذى ساعدت فى اخراجه بالجائزة الاولى على نطاق مقاطعة هيلونغجيانغ . وفى عام ١٩٨٤ فاز فيلم « رقم ٥ — شارع هوايوان » الذى اخرجه مخرجون شبان تحت اشرافها بالجائزة الثانية من وزارة الثقافة للافلام الروائية الممتازة ، وجائزة افضل فيلم روائى فى مسابقة الافلام السابعة على نطاق استوديو تشانغتشون . وفى عام ١٩٨٥ نال فيلم « قدرة المرأة » الذى اخرجته بالاشتراك مخرجين شبان جائزة من وزارة الثقافة للفيلم الروائى الممتاز وجائزة افضل فيلم ، وجائزة افضل اخراج فى مسابقة الافلام الثامنة على نطاق استوديو تشانغتشون .

ولكن هذه الجوائز الكبيرة لم تفقد المخرجة جيانغ رويتها وهدوءها ، اذ قالت : " ان الافلام السينمائية منتجات معنوية يتم انتاجها مرة واحدة لا غير ، ولا يمكن تدارك العيب فى الفيلم بعد انتاجه . واذا تجسدت تصوراتى الفنية فى الفيلم الذى اخرجه ، اعيش اسعد لحظة

فى حياتى . ولكنى اعتقد اننى لم اخرج حتى اليوم اى فيلم يرضينى كل الارضاء ، رهذا ما يجعلنى اشعر بأشد الاسف . ان الفوز بالجائزة ليس معيارا للنجاح التام ، فهو امر وقع فى الامس ، بينما اتطلع انا الى الغد والى المستقبل والى اخراج الافلام السينمائية بعدد اكبر ونوعية افضل من اجل مئات الملايين من النظارة .

المعاناة الشديدة من اجل تصوير الافلام

من يعمل فى استرديو تشانغتشون للافلام السينمائية يعرف جيدا المخرجة جيانغ . انها تتميز بالحزم والصراحة والعمل السريع المتقن ، ولذلك لقبت بالرجل المكافح .

قال لنا بعض الناس عن اسلوب عملها فيما يلى :

" فى مارس ١٩٨٣ قبلت المخرجة جيانغ مهمة اخراج لفيلم « رقم ٥ – شارع هوايوان » . وقد ظلت مدة نصف سنة لا تنام الا ثلاث او اربع ساعات فى اليوم ، فتورمت عيناها بسبب السهر المتواصل حتى لم تعد ترى شيئا . ودخلت المستشفى للعلاج ، ولكنها عادت الى موقع التصوير بعد ايام معدودة . وكثيرا ما كانت تحرم تناول الطعام مع زوجها لضيق الوقت ، فلا تكاد تدخل البيت حتى تخرج ثانية ببعض ملابسها لاكمال تصوير المشاهد .

ذات مرة كانت المخرجة جيانغ تقود عملية التصوير فى مقاطعة جيانغشى بجنوب الصين ، وموضوع التصوير هو اجتياز جيش جرار لممر جبلى ، وقد اشترك فى عملية التصوير عدة آلاف من جنود جيش

التحرير الشعبى ، وكانت اعمال التصوير كثيرة ومعقدة لا تستغنى عن اشراف المخرجة جيانغ فى موقع التصوير . ولكن المخرجة كانت مريضة . ومن اجل عدم تعطيل عملية التصوير واظبت على للعمل فى الاخراج طول اليوم متجاهلة تعبها الشديد وآلامها المبرحة . "

وتقول المخرجة جيانغ دائما : " ان المرء اذا اراد انجاح عمل من اعماله ، فعليه ان يتحلى بروح الكفاح المتواصل لتقوية ذاته . وانى اتحمل اشد العناء من اجل تصوير الافلام . "

ان المخرجة جيانغ مازالت تعمل دون كلل ولا ملل على الرغم من تقدمها فى السن .

عمل المخرج صعب وعمل المخرجة اصعب

واصلت المخرجة جيانغ حديثها قائلة : " ليس من السهل على المخرج ان يقود فرقة تصوير الى الخلاء لتصوير المشاهد الخارجية . اذ عليه ان يأخذ بعين الاعتبار جميع الامور الكبيرة والصغيرة المتعلقة بمعيشة الفرقة من مختلف النواحى ، كما عليه ان يقوم بتنسيق العلاقات بين مختلف الجوانب حتى يتمكن من انجاز تصوير الفيلم بأقل زمن وفى اعلى مستوى . ان كل يوم يزيد عن المدة المحددة للتصوير يكلف من الفين الى ثلاثة آلاف يوان . والمطلوب هو توفير المال وخفض التكاليف من جهة واخراج الفيلم الجيد من جهة اخرى ، مما يشكل ضغطا كبيرا جدا على المخرج .

بعد قراءة السيناريو تخرج فرقة التصوير الى الخلاء لتصوير

المشاهد الخارجية ، شأنهم فى ذلك شأن اعضاء فرقة التنقيب الجيولوجى .
ومن المفروض ان يختار المخرج مواقع ومناظر لم تصورها فرق التصوير الاخرى من قبل . وعند صعود الجبال ينبغى للمخرج ان يتسلق القمة . وعند عبور الانهار عليه ان ينزل فى الماء قبل غيره .
واذا تعب الجميع عليه ان لا يبدى التذمر ، بل يشجع الآخرين على مواصلة العمل بمعنويات عالية . واذا اعتبر عمله الشاق مصيبة ، فلن ينجز اى عمل على خير وجه .

ان السينما فن شامل . والعامل الحاسم لنجاح الفيلم يتوقف على مستوى المخرج الايديولوجى ومدى تهذيبه الفنى وحماسته الابداعية وقدرته كذلك على تركيز حماسة الابداع عند جميع اعضاء فرقة التصوير .

والعلاقة بين المخرج واعضاء فرقة التصوير يجب ان تكون قائمة على الصداقة الوفية والهدف المشترك . فحين يغضب اعضاء فرقة التصوير على المخرج ان يصبر على ذلك من اجل مصلحة العمل عامة ، ولا يغضب ولا يتذمر فى اى حال من الاحوال حتى لا يؤثر ذلك فى معنويات الآخرين . وينبغى له ان يتجرع حزنه ويخفى كآبته ."

لقد اعربت المخرجة جيانغ عما يعانيه المخرجون السينمائيون من خلال حديثها عن تجاربها العملية الشخصية . وانى اعتقد انها عانت الكثير جسديا ومعنويا وعاطفيا .

واستطردت المخرجة جيانغ تقول : "يرى عامة الناس ان المرأة قصيرة النظر كثيرة المشاكل ضئيلة المعارف . واعتراضا على هذا

الانتقاص من قدرات المرأة عملت مخرجة سينمائية وانا اعتقد ان النظارة عند تقييم الافلام لا يفكرون : هل المخرج من الجنس الخشن ام الجنس اللطيف ؟ ولا يجوز لهم طبعا ان يتسامحوا فى عيوب الافلام بحجة ان المخرج امرأة . "

" ان التحيز ضد المرأة جعل من الصعب جدا على المخرجة ان تخرج اول فيلم لها . فقد لا يعترف بها ، حتى ولو بعد اخراج فيلمين او ثلاثة افلام . واذا فشلت فى تجربتها الاولىٰ ، فقد تجد من يواسيها . ولكن اذا نجحت ونالت الجائزة ، فتجد من يمدحها تشجيعا لها ، كما تجد من يسخر منها . وفى هذه الحالة ستتضايق كل التضايق من هذه المعاملة الظالمة . "

لقد عانت المخرجة جيانغ من هذه المعاملة الظالمة ، شأنها شأن جميع النساء القادرات ، ولكنها دفنت الآلام فى اعماق قلبها وواصلت تقدمها فى خطوات ثابتة نحو هدفها المنشود .

" فى طريق حياتى غير الممهد تلاحقنى من حين لآخر بعض الاشاعات والاتهامات ، فأقول لنفسى دائما : مادمت نقية السريرة فعلى ان لا اعير ذلك اذنا صاغية وإلا عشت فى ارتباك ، وفقدت الجرأة على مواصلة السير قدما . وكلما تعرضت لهذا الموقف ، بذلت جهدا للتخلص منه بأسرع ما يمكن . ودائما ما اوجه نفسى قائلة : لا تنظرى الى الشقوق فى الحجر ، بل انظرى الى البحر ، وكونى مثله واسعة الصدر طويلة الاناة . "

واذا كان التغلب على المتاعب الجسدية والضغوط الصادرة من مختلف الجهات امرا ليس صعبا ، فان تحمل المعاناة العاطفية امر

مؤلم وخاصة بالنسبة للمرأة .

وقالت من جديد : " فمن اجل تصوير الفيلم كثيرا ما اضطررت الى ترك العائلة والاقرباء جانبا . وفى بعض الاحيان كنت اغادر البيت بغض النظر عن المرض المفاجئ الذى يلم بأحد افراد عائلتى . وكلما سافرت فى مهمة رسمية انقطعت اخبارى عن عائلتى ، فضيق الوقت يمنعنى من كتابة الرسائل . وكثيرا ما قال لى زوجى : ' انت دائما تظهرين فجأة ، وتختفين خلسة . فلو وقعت لك حادثة قطار ، لايمكننا ان نعرف مصيرك . ' ان زوجى مثلى يسافر دائما فى مهمات رسمية . فكثيرا ما حدث ان نلتقى فى محطة القطار ، حيث يركب احدنا مسافرا وينزل الآخر عائدا .

انى اعمل حوالى عشرة اشهر فى السنة بعيدة عن البيت ، فكيف لا اشتاق الى زوجى واولادى . لذلك كلما اتيحت لى الفرصة ، عدت الى البيت لأراهم . وانا مفعمة بالشوق اليهم . وفى بعض الاحيان لا اجدهم فى البيت عند وصولى اليه . وقد يكون الزوج او احد الاولاد فى المستشفى بسبب المرض ، وفى هذه الحالة اسرع الى المستشفى" .

زوجة فاضلة وام طيبة

مثل الآلاف المؤلفة من النساء الصينيات تعيش المخرجة جيانغ شو سن فى اسرة سعيدة ، افرادها من اربعة اجيال . ام زوجها فى الثمانين من عمرها ، وحفيدتها عمرها ثلاثة اعوام ، وزوجها ضابط فى القوات المسلحة ، وابنها قائد سرية فى الجيش وابنتها طبيبة عيون .

وبمقتضى عملها مخرجة سينمائية قلما تجد الوقت لرعاية عائلتها ، فيقول زوجها ممازحا : " يبدو انك لست من افراد عائلتنا ! انك سريعة الظهور والاختفاء كالبرق . "

ولكن حين تكون المخرجة جيانغ فى البيت تبادر الى اداء المزيد من الاعمال المنزلية . وفى الربيع والخريف من كل عام تعد لجميع افراد العائلة مختلف الملابس الملائمة ، وتحوك بيدها السترة الصوفية لزوجها . ولقد قالت المخرجة جيانغ : " سأبذل قصارى جهدى لاكون زوجة فاضلة واما طيبة . "

انها تعود الى البيت فور انتهائها من اعمال التصوير المتعبة ، وتستأنف القيام بالاعمال المنزلية على اختلاف انواعها كاعداد الطعام وتنظيف الغرف واصلاح الملابس . وذات مرة جاء الى بيتها صحفى ليأخذ منها بعض الاخبار الفنية . وما ان دخل الباب حتى وجد عجوزا سمينة تلبس وزرة ، فاعتقد انها خادمة فى بيت المخرجة جيانغ ، واذا به يكتشف انها المخرجة بالذات ، وكانت اذذاك تؤدى بعض الاعمال المنزلية .

وفى اغسطس ١٩٨٦ بدأ تصوير فيلم « قدرة المرأة » ، فانهمكت المخرجة جيانغ باخراج المشاهد الخارجية ، ولذلك ظلت غائبة عن البيت مدة شهرين . وفى يوم العيد الوطنى اشترت بعض الاطعمة المعلبة ووكلت زميلها الذى يعود الى مقر الاستوديو فى مهمة رسمية بتسليم هذه الاطعمة الى حماتها العجوز ، وكتبت على الحزمة عبارة " هدية الى امى العزيزة " . وعندما انجزت مهمة تصوير المشاهد الخارجية اشترت على الفور جهاز توليد ايونات الاكسجين بأكثر من

ثمانين يوانا ، وحملتها هدية الى حماتها ، لأنها سمعت ان هذا الجهاز يعمل على خفض الضغط الدموى وتنقية الهواء .

وابنتها تهوى الابداع الادبى ، فتشجعها دائما على ان تتعلم وتتدرب بجد واجتهاد حتى تكسب اعتراف المجتمع بنبوغها الحقيقى ، ولم تلجأ ولن تلجأ الى المحسوبية لتقديم سيناريو ابنتها الى اى استوديو .

ان المخرجة جيانغ زوجة فاضلة وام طيبة فى البيت ، وام رحيمة ، ومعلمة محترمة فى فرقة التصوير كذلك . وهى تدعو الممثلين القادمين من خارج مدينة تشانغتشون الى بيتها ، وتقدم لهم الطعام بنفسها اكراما لهم . واحيانا تستضيف اعضاء فرقة الدراما فى بيتها . وحين يرتكب الشباب اخطاء تبادر الى مساعدتهم وتصحيح اخطاءهم بكل تسامح بدلا من ابداء اللوم والتذمر ، وتعاملهم معاملة المعلمة للتلاميذ والمربية للأطفال والام للاولاد . وبهذا القلب الكبير كسبت احترام جميع اعضاء فرقة التصوير واطلق عليها كثير من الممثلين الشباب اسم الام جيانغ .

وفى ستبمبر ١٩٨٧ تلقت المخرجة جيانغ دعوة لاخراج فيلم جديد يدور حول تصادم آراء جيلين من الناس فى المثل الاعلى . فقرأت السيناريو مرارا وتكرارا ، وفكرت فيه بكل روية ، ثم غادرت البيت الدافئ مرة اخرى من اجل انجاز هذه المهمة الجديدة .

لقد قالت جيانغ : " فى الواقع لا يمكننى ان أتراخى ولو قليلا . واخشى ان يخلف الفيلم الذى اخرجه آثارا مؤسفة اكثر مما ينبغى ، ذلك ان عدد مشاهديه يصل الى مئات الملايين من ابناء الشعب . "
انها تنكر نفسها دائما ، ولا تقتنع ابدا بما تحققه فى مساعيها الفنية .

لقد انجزت الآن الاعمال التحضيرية لتصوير هذا الفيلم الجديد ، فسافرت مرة اخرى لتصوير المشاهد الخارجية لهذا الفيلم راجية له ان يتحلى بدلالة جديدة .

ب ـ المخرجة وانغ هاو وى تشرف على تصوير الافلام

قالت المخرجة وانغ هاو وى دون تردد جوابا عن سؤال صديق يابانى من الاوساط السيمائية : " ان فى الصين اكثر من ٣٠ مخرجة للافلام السينمائية الروائية ، وهن يتمتعن بحق المساواة التامة فى الابداع مثل المخرجين الرجال . "



وانغ هاو وي

لقد اثار هذا الجواب اعجاب الحاضرين ، فهذا العدد نادر ليس فى اليابان وحدها ، بل فى جميع الدول الكبرى المشهورة بصناعة السينما . والمخرجة وانغ هاو وى مشهورة طبعا بين هؤلاء المخرجات الصينيات . وهى الآن عضوة فى مجلس اتحاد السينمائيين الصينى وعضوة فى اللجنة الفنية فى استوديو بكين للافلام السينمائية . وقد اخرجت كثيرا من الافلام الروائية منها « شفق البحر » ، « انظروا ، هؤلاء من نفس العائلة » ، « شبكات خفية » ، « شارع شيتشاو » ، « ثمرة الحب فى الشمال » ، « جوقة موسيقية خلابة » ، و « قرية غير موثوق بها » . كما يجرى الآن تصوير فيلمين من اخراجها ، وهما « طريق القرية المؤدى الى بيتى » و « ما وراء قطعة حريرية مطرزة بالخيوط الذهبية » . وقد نالت المخرجة وانغ مرتين " جائزة الفيلم الممتاز " الحكومية ، و " جائزة مسابقة جينجى " من اتحاد السينمائيين الصينى ، و " جائزة الابداع الممتاز للشباب " من وزارة الثقافة و " جائزة لجنة التحكيم " فى مهرجان الافلام الدولى العاشر الذى اقيم فى البرتغال .

لقد سبق للمخرجة وانغ هاو وى ان قالت : " احب ان اكون مخرجة سينمائية ، ذلك لأن المخرج يمكنه ان يعيش مع علة حيويات للانسان خلال اخراج الافلام ، وبذلك يبدو انه عاش فى هذه الدنيا عدة مرات ، بينما بقية الناس يعيشون فيها مرة واحدة فقط . " وفى تلك السنوات الطويلة من حياتها فى العمل السينمائى كان لها احلام جميلة وتعرجات ومسيرات شاقة مريرة ونجاحات مفرحة ، ولكنها على اى حال ظلت تسعى لتحقيق هدفها المنشود ، وهو ان تصبح مخرجة ممتازة .

وفى فترة فاصلة بين مراحل تصوير فيلم « طريق القرية المؤدى الى بيتى » اتيحت لى فرص طيبة للقائها فى مكتبها وبيتها . واتخذتنى المخرجة وزوجها صديقة لهما ، الامر الذى مكننى من معرفة المخرجة وانغ هاو وى معرفة جيدة .

وفى مكتبها لم يقنعنى حديثها المبسط جدا حيث قالت لى : " ان عملية تصوير الفيلم تبعث السرور فى نفسى ، وانا احب الريف والطبيعة حبا خاصا ، واحب التجول فى الريف ، بينما لا احب تصوير الفيلم فى المدن الكبرى . " ان كلامها هذا قد اثار اهتمامى البالغ . ولا اود هنا ان ابحث فى اسلوبها الفنى ، وانما اود ان ابحث فى الحياة المتنوعة والمشاعر الفياضة التى تكمن فى رصانتها وكلامها القليل . ففى نهاية احد الاسابيع جئت الى بيتها . وما ان دخلت الباب حتى وجدتها تعمل مثل ربات المنازل الاخريات ، وكانت يومها تطبخ لحم البقر المحمر ، وزوجها لى تشن شنغ يعمل فى غرفة المكتب ، وهو يشتغل مصورا سينمائيا شهيرا ، وكان زميلا وصديقا لوانغ هاو وى فى معهد بكين للسينما ، ثم اصبح قرينا لها ، ويتعاون معها فى العمل . وحسب الاتفاق عرفنى المصور لى تشن شنغ بزوجته المخرجة وانغ هاى وى ، فقال ما يلى :

صمود فى الطفولة

" زوجتى وانغ هاو وى تبلغ هذا العام السابعة والاربعين من عمرها . ووالداها خريجان جامعيان . وقد اشتركا فى شبابهما فى

النضال من اجل تحرير الامة الصينية ، متنقلين فى انحاء البلاد فى سبيل مقاومة العدوان اليابانى ، تاركين طفلتهما وانغ هاو وى عند ام والدتها . التحقت وانغ هاو وى بالمدرسة الابتدائية عندما بلغت الخامسة من عمرها . وكانت منذ صغرها متحمسة للتفرق فى مختلف النواحي . فكانت تصل الى المدرسة فى الصباح الباكر قبل غيرها يوميا منتظرة فتح الباب وسط ضباب الفجر ، وهى تفتخر بأنها اول من وصل المدرسة . وكلما اشتركت فى الامتحان ، سلمت اوراق الامتحان قبل غيرها ، ولكن نتائجها لم تكن كل مرة فى المرتبة الاولى . فأوضحت لها جدتها قائلة : " ان وصولك الى المدرسة اول طالبة وتسليمك اوراق الامتحان كذلك اول طالبة ليسا بالعامل الحاسم ، انما الاهم هو ان تكون اجوبتك رائعة وصحيحة . " ومنذ ذلك الوقت بدأت تميز بين الصحيح والخطأ . وفى السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية احرزت المرتبة الاولى فى الصف . وهكذا تعلمت روح التصميم والثبات فى ايام طفولتها . "

الاعتماد على النفس

"كان جد وانغ هاو وى لأمها قائدا كبيرا فى القوات المسلحة ايام حكم امراء الحرب الشماليين . وكانت ليان وى ، جدتها لأمها ، سيدة بارزة قدمت للثورة اسهاما كبيرا ، وسجلت مآثرها فى كتاب « النساء البارزات فى بكين » ، والممثلة السينمائية الشهيرة تشانغ روى فانغ هى خالتها . وقد اشترك خالها وخالتها الاخرى فى الثورة منذ

شبابهما . ولكن وانغ هاو وى لم تعتمد على اى من اقربائها المذكورين ، وانما سلكت طريقها بالاعتماد على النفس .

انها مولعة بالادب وهاوية لفن التمثيل . وفى ايام دراستها فى المدرسة المتوسطة الملحقة بجامعة المعلمين فى بكين كانت رئيسة لفرقة التمثيل فى المدرسة ومخرجة لها . وعندما شاهدت وو شيويه الفنانة المسرحية الذائعة الصيت حينذاك مسرحية « هى واصدقاؤها » التى اضطلعت وانغ هاو وى بالدور الرئيسى فيها قالت بأن تمثيلها فى غاية الروعة . وبعد تخرجها فى المدرسة الثانوية التحقت بمعهد بكين للسينما مخالفة بذلك رغبة والديها . وتخرجت فى قسم الاخراج عام ١٩٦٢ بنتائج دراسية ممتازة ، ثم دخلت استوديو بكين للافلام تشتغل مخرجة سينمائية مساعدة . ومن ذلك الوقت بدأت حياتها السينمائية المنشودة التى تتيح لها فرصة بعد اخرى للتعرف على واقع حياة الانسان . "

المسيرة الشاقة

" ولم تمض وانغ هاو وى فى عملها هذا وقتا طويلا حتى بدأت محنة ' الثورة الثقافية ' التى استمرت عشر سنوات . وفى هذه المحنة نبذت وانغ هاو وى جانبا بحجة انها ' نبتة سوداء ' متصلة بالخط الاسود المزعوم ، وعوقبت بالقيام بأعمال السخرة مع من اتهموا بأنهم عناصر سوداء . وهذه دون شك معاملة جائرة لشابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها .

ذات يوم من عام ١٩٦٦ تعرض ضحايا ' الدحض الثورى '
فى استرديو بكين للافلام لتعذيب جسدى بالاضافة الى سيل من
التوبيخ والشتائم ، كما تعرضوا لاهانة بالغة لكرامة الانسان . وكنت
انا ووانغ هاو وى من ضمن هؤلاء الضحايا . وفى طريق عودتنا الى
المنزل عقب وقوع هذه الحادثة المذكورة اعلاه التجأنا الى كشك
منهدم عند طرف احد الحقول تجنبا للمطر . ورحنا ننظر الى السماء
المتلبدة بالغيوم ، وقلب كل منا يتدفق بشتى المشاعر ، وعيوننا تفيض
بالدموع . ثم دفعتنا المعاناة المشتركة الى الزواج عام ١٩٦٧ . لكنها
عانت من الظلم اكثر مما عانيت . ففى عام ١٩٧٠ ، عندما سادت
' اليسارية المتطرفة ' فى الصين ، ارسلت الى الريف لمزاولة العمل
الجسمانى بحجة ان المثقفين يجب ان يتمرسوا فى المعيشة الشاقة
المريرة . وهناك اصيبت بالتهاب شديد فى المفاصل لسوء ظروف
السكن وعدم كفاية الاغطية . ونظرا لقولها كلاما غير صالح لسمعة
جيانغ تشينغ كان العذاب الذى نزل بها اشد مما نزل بغيرها . فلم
يكن يسمح لها بلبس الحذاء المطاطى عند ممارسة العمل الجسمانى
فى المياه الباردة بالحقول المروية ، كما لم يكن يسمح لها بالعلاج
الطارئ عند دخول قشر الارز فى عينها . وظلت حتى عام ١٩٧٢
تعيش فى الريف عيشة مؤلمة ، تمارس خلالها الاعمال الجسمانية
الثقيلة من جهة ، وتعانى التعذيب الشديد من جهة ثانية . واخذ شبابها
الثمين يمضى سدى . كنا نتمنى ان يكون لدينا مولود ، ولكن مشاعر
الاضطراب والحزن منعتنا من الانجاب . "

وهنا استأنف زوجها الحديث يقول فيما يلى :

" فى عام ١٩٧٥ أتيحت فرصة الابداع الفنى لزوجتى وانغ هاو وى التى فقدت عشر سنوات من شبابها الثمين ، فشاركت المخرجين الشهيرين بالصين شيه تيه لى وتشيان جيانغ فى اخراج فيلم « شفق البحر» . وهطل المطر الغزير بعد قحط طويل ، ووجدت وانغ هاو وى الآن اول فرصة للممارسة الفنية التى تطلعت اليها منذ سنوات طويلة ، فألقت بنفسها فى العمل مع زملائها بكل حماسة واخلاص ، منتقلين بين الجزر فى بحر الصين الجنوبى تحت اشعة الشمس اللاهبة والرياح اللافحة ، فيعملون احيانا فى غابة موز فى جو مكتوم تصل الحرارة فيه الى ٤٢ درجة مئوية ، ويتحملون احيانا اخرى متاعب الدوار والتقيؤ من جراء الامواج العاتية . وركزت جهودها العقلية والجسدية على اعمال الاخراج . واخيرا انجز تصوير فيلم « شفق البحر» ولكن الذى نتج مقابل ذلك لم يكن تهنئة وانما متاعب اكبر لم تكن متوقعة .

فعندما راجع المسؤولون فى وزارة الثقافة هذا الفيلم الجديد رأوه لا يتفق مع المقياس السياسى فى ذلك الوقت ومخالفا لمبادئ الابداع الفنى التى حددتها جيانغ تشينغ . ولذلك تعرض مسؤولو فرقة التصوير لما يسمى الدحض الجماهيرى . ولم تستطع وانغ هاو وى تجنب هذه الدوامة السياسية ، فالذى لايشترك فى هذا الدحض يستحيل عليه الاشتراك فى مهمة الابداع الجديدة . وكم تمنت وانغ هاو وى ان تحظى بالمزيد من فرص الابداع الفنى كى تصبح فنانة حقيقية وتهب حياتها لفن الاخراج السينمائى . وأدركت ان الحياة الواقعية الصارمة تتطلب منها اولا وقبل كل شيء ان تكون انسانة حقيقية ، وان تهب حياتها للحق والعدل . ففعلت ذلك حقا لمعرفتها التامة بأن المرء لن

يكون فنانا حقيقيا ما لم يكن انسانا حقيقيا . وظلت وانغ هاو وى مستقيمة صلبة حيث لم تكتب اى اعتراف او تقرير ضد زملائها حرصا منها على بقاء وقائع التاريخ نقية دون تشويه .

وفى اصعب الاوقات أيد دنغ شياو بينغ ، نائب رئيس مجلس الدولة اذ ذاك ، فرقة تصوير فيلم « شفق البحر » ، فتحطمت القيود لمنع عرض هذا الفيلم . ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى حظر عرضه ، ذلك لأن دنغ شياو بينغ تعرض لمحنة جديدة ، حيث عزل من منصبه للمرة الثالثة فى حياته السياسية .

وخلال هذه التقلبات السياسية لم تيأس وانغ هاو وى ، وانما كانت واثقة بأن ظلام الليل سيتبدد آجلا ام عاجلا والفجر سينبلج لا محالة . سارت فى طريقها غير الممهد مسيرا شاقا ، وتقدمت الى الامام مرفوعة الرأس متفائلة ببزوغ الفجر . "

اعتزاز

" سقط حكم ' عصابة الاربعة ' ، وتجددت حياة وانغ هاو وى وابناء الشعب الصينى جميعا . وبدأت وانغ هاو وى تسعى وتكافح بقلب ملؤه الثقة والسرور بالحياة الجديدة باحثة عن الشباب والاوقات المفقودة . لقد تخرجت فى الجامعة وهى فى الواحدة والعشرين من عمرها ، ولكنها لم تبدأ رسميا حياتها الفنية المنشودة الا بعد بلوغها السادسة والثلاثين . لذا فانها تعز هذه البداية النفيسة ، وتعز حياتها المستقبلية ، فعقدت العزم على البذل والكفاح دون توقف .

شاركت وانغ هاو وى كاتبا شابا فى تغطية الاخبار فى عشرات الوحدات بمختلف انحاء البلاد ، واجريا مقابلات مع قرابة مائة شخص من مختلف الميادين . وعلى هذا الاساس تم تعديل السيناريو ، وتم تصوير الفيلم الروائى « انظروا ، هؤلاء من نفس العائلة » وهذا الفيلم اول فيلم اخرجته وانغ هاو وى مستقلة . وقد نال جائزة الفيلم الممتاز التى منحتها وزارة الثقافة ، وقوبل باهتمام واسع وتقدير كبير خلال اسبوع الافلام الصينية فى فرنسا واليابان وفى مهرجان الافلام الدولى الذى أقيم فى هونغ كونغ .

ومن حيث الاخراج السينمائى ارى فى قيام وانغ هاو وى مستقلة باخراج هذا الفيلم بداية حسنة ، اذ لم يكن من السهل عليها ابدا ان تنجز هذه المهمة مستقلة كما كانت تتمنى منذ سنوات طويلة وخاصة بعد معاناتها أشد المحن والتعرجات . وربما يرجع السبب فى نجاحها الى ان هذه الامنية قد دفنت فى اعماقها منذ سنوات طويلة ، ثم انفجرت مولدة قوة لا تقاوم .

وفى عام ١٩٨١ اخرجت وانغ هاو وى فيلما آخر اسمه « شبكات خفية » ، وهذا الفيلم يصور قصة حب فاشل . والمغزى العميق منه هو كشف الافكار الاقطاعية القديمة بخصوص الزواج والتى كانت ما تزال قائمة فى المجتمع الجديد وتحول دون زواج الاحباء . واذا قلنا ان فيلم « انظروا ، هؤلاء من نفس العائلة » يصف السرور الذى عم القلوب بالحياة الجديدة ، فان فيلم « شبكات خفية » يصف التفكير الجاد فى المفاهيم القديمة الباقية فى حياة مجتمعنا الجديد . وقد تميز هذا الفيلم بسلامة الاسلوب وسلاسته ، وتحلى بوصف المشاعر

العاطفية الحزينة ، ولقى اقبالا عظيما من النظارة الشباب ، كما استرعى اهتماما بالغا من الرأى العام ، ونال جائزة لجنة التحكيم فى مهرجان الأفلام الدولى العاشر الذى اقيم فى البرتغال . وقد تلقت وانغ هاو وى رسائل كثيرة من النظارة الشباب والكهول ، تحدثوا فيها عن محنهم فى مجال الحب والزواج . وحين قرأت وانغ هاو وى هذه الرسائل الناضحة بدموع كاتبيها ، اغرورقت عيناها بالدموع .

ولخصت وانغ هاو وى ممارساتها الفنية لتلك الفترة قائلة فى مشاعر عميقة : ' ان اجمل شىء هو الحياة ، حياة عامة الشغيلة . وان اهدافى المنشودة فى الدراسة والعمل فيما بعد هى التعبير عن حياة عامة الشعب تعبيرا صادقا دقيقا شيقا ، والتخلص من الاساليب المسرحية الجامدة والتصنع البعيد عن الواقع ، وسلوك طريق الصدق الفنى . ' ومنذ ذلك الوقت بذلت وانغ هاو وى اقصى جهودها فى اخراج الافلام الواحد تلو الآخر سعيا للتعويض عما فقدته فى سنوات ' الثورة الثقافية ' العشر . ومن انجازها الرائع فى هذا الصدد فيلم « شارع شيتشاو » الذى عرض فى الدورة الثالثة عشرة لاسبوع موسكو للافلام السينمائية ، وقوبل بالترحيب العام . "

العيش بسرور

" اذا سألت وانغ هاو وى عما تحب ، ستجيبك بصراحة : ' انى احب الاخراج السينمائى ومشاهدة الافلام وقراءة الكتب والاستماع الى الموسيقى . '

انها لا تضيع كل فرصة سانحة لمشاهدة الافلام مهما بذلت من جهد . اما قراءة الكتب فقد اصبحت عادة من عاداتها منذ سنوات طويلة . وفى ' الثورة الثقافية ' واظبنا على قراءة الكتب مما ارسى لنا اساسا متينا فى التصوير السينمائى . وتحب وانغ هاو وى الاستماع الى الموسيقى وخاصة السمفونيات الكلاسيكية الشهيرة . وهى تحب « السمفونية الرعوية » للموسيقار العملاق بيتهوفن حبا اكثر من غيرها ، وهذا بسبب تعلقها بالطبيعة .

وعن حبها الجم للطبيعة احكى لك انه فى عام ١٩٨٣ كانت وانغ هاو وى تقوم باخراج فيلم « ثمرة الحب فى الشمال » بين جبال شينغآن الكبرى فى شمال شرقى الصين . فافتتنت بتلك الغابات العذراء الجميلة والضباب الشفاف المتطاير والجداول الساحرة المنسابة وسط الغابة . ونسيت امام هذه الطبيعة الساحرة الخلابة البرد القارس شتاء ولسعات البعوض والذباب والحشرات صيفا ، وغير ذلك من مشاق العيش ومتاعبه هناك . لقد عانت حقا من صعوبة الحياة هناك خلال تصوير هذا الفيلم . وقد قالت لى بنفسها : ' خلال فترة تصوير الفيلم فى جبال شينغآن الكبرى كان علينا ان نلبس الاقنعة ونطلى اجسامنا ووجوهنا بسائل يقى من لسعات البعوض فى ايام الصيف ، ولكن البعوض لسعنى فى يدى ١٦ لسعة برغم حمايتهما بالقفاز . اما فى الشتاء فلم تكن تكفينا الملابس المبطنة المحشوة ، بل كان علينا ان نتزود بالدفاية اليدوية ايضا ، وحتى الماكينات يجب تزويدها بهذه الدفاية ، والا ، تجمدت وفقدت قدرتها على الحركة . . . '

ان وانغ هاو وى تكافح فى سبيل الفن والمثل الاعلى ، وليست

تسعى وراء الشهرة والمال والمتعة المادية . ونود انا وهى وقف جهودنا على الابداع الفنى راجيين ابداع بعض الاعمال الجادة الموقرة .

وهناك من يرون ان حياتنا نحن الاثنين جافة خالية من الرومانسية . اجل ، يكثر فى حياتنا ما هو جاد وقور ، ويقل فيها ما هو رومانسى ، ولكننا لا نشعر بملالة ولا سآمة ، فهناك كتب كثيرة تنتظرنا للقراءة وامور غير متناهية تنتظرنا للاداء ، واننا نقضى ثلثى اوقاتنا فى السنة نعمل بتصوير الافلام السينمائية فى الخلاء ، وفى الثلث الباقى علينا ان نتعلم بجد واجتهاد ونرفع مستوانا المهنى والثقافى باستمرار عبر قراءة الكتب ومشاهدة الافلام .

وفى عام ١٩٨٧ قمنا بعمل فيلمين ، هى مخرجة وانا مصور . وكان العمل كثيرا ، ولكنه ارضانا لما تضمنه من خدمة للآخرين . وفى ناحية المعيشة ليس لدينا مطالب كثيرة ، والذى يهمنا فقط هو ان يكون طعامنا مغذيا . فاليوم مثلا طبخت وانغ هاو وى — كما رأيت — قدرا من لحم البقر ، فهذا يكفينا اسبوعا . ومن اجل توفير الوقت لا نذهب الى صالون الحلاقة ، وانما يعتمد احدنا على الآخر فى هذا المجال . كما اننا نتعاون فى اعمال المطبخ ، فانا مثلا انظف الخضار واقطعها ، وهى تنجز الطبخ بسرعة . واصدقاؤنا كثيرون جدا والزيارات بيننا كثيرة كذلك ، فنحن نحرص على عدم الاساءة لغيرنا فى اى حال من الاحوال متخذين ذلك قاعدة لسلوكنا . "

المساعى الفنية

" انا وزوجتى زميلانى ، فى الفن ، متعاونان فى مجال السينما . هى

مخرجة وانا مصور ، وانا احترم المخرجة ، وهى تحترم المصور ، وتحب ان تكون معى فى نفس فرقة التصوير . وحياتنا المشتركة تمكننا من ان نتشاور ونتناقش فنيا بكل حرية وفى كل وقت من اوقات النهار والليل . وكلما خطر ببالها امر ، اصغيت اليها باهتمام . واحيانا توقظنى من النوم فى منتصف الليل لتحدثنى عن فكرة فنية لديها . انها من اجل تصوير الفيلم تتخلى عما يمكن التخلى عنه من فرص الظهور على الملأ كحضور المآدب والاجتماعات والسفر الى خارج البلاد . وتقول وانغ هاو وى : " من اراد انجاز عمل ما ، فعليه ان يتخلى عن عمل آخر . " وهذه هى فكرتها المرشدة التى تنطلق منها فى التفرغ لاخراج الافلام .

ان وانغ هاو وى تسعى لابراز المميزات القومية الصينية فى فنها ، ولكنها تستقى ما هو ايجابى من مزايا الثقافات والفنون الاجنبية . والفكرة المشتركة عندنا نحن الاثنين هى العمل على ان يكون للفيلم جاذبية عاطفية فنية . ومن اجل تحقيق ذلك لا بد ان نقوم بالتجارب والممارسات من مختلف الجوانب وبمختلف الاشكال والمواضيع ، سواء أكان العمل كوميديا ام مأساويا ام يجمع بين هذا وذاك . ونظرا لقلة الافلام الخاصة بالريف وقلة القائمين على تصويرها قمنا باخراج عدد كبير من الافلام ذات المواضيع الريفية كما نقوم باخراج بعض الافلام الخاصة بالمثقفين . ونعتقد انه من اجل معرفة نفسية الشعب الصينى وافكاره ومعنوياته ومشاعره فى الافراح والاتراح وفى حالات الرضى والغضب يجب التغلغل فى الريف ، فمذاق الحياة الحقيقى يكمن فى الريف ، والظرافة الحقيقية تكمن فى الريف كذلك ،

وينبوع النجاح الحقيقى فى خلق المميزات الصينية هو فى الريف ايضا . ومن اجل تحقيق التطلعات الفنية تعمد وانغ هاو وى الى اخراج الفيلم بصدق وامانة ، وتطلب منى كذلك ان اصور بصدق وامانة . اما الامور الاخرى فلا نفكر فيها . "

واخيرا قال لى تشن شنغ فى ختام حديثه عن زوجته المخرجة وانغ هاو وى : " ان قصتها الماضية تعنى كفاحها فى عملها ، وهذه القصة ستتطور باستمرار . "

لقد زاد حديث لى تشن شنغ من معرفتى بالمخرجة وانغ هاو وى التى قالت لى ذات مرة : " اننى مازلت احب عملى مخرجة سينمائية على الرغم من تزايد الصعوبات فى هذا المجال . " حين تذكرت هذا الكلام تراءت لى المخرجة وانغ هاو وى النحيفة الجسم القوية العزيمة تنشط تحت السماء الزرقاء والسحب البيضاء ، وتصيح بصوت عال : " استعدادا — لنبدأ " ، وهى تتذوق طعما آخر من حياة الانسان عبر اخراجها فيلما جديدا .

ليانغ يان

ـ اللاعبة الوحيدة الفائزة بالبطولة العالمية خمس مرات متتالية فى مجال الكرة الطائرة

ان ليانغ يان لاعبة من لاعبات الفريق الصينى النسائى للكرة الطائرة الذى فاز بالبطولة العالمية خمس مرات متتالية فى المسابقات العالمية للكرة الطائرة التى جرت فى الفترة ما بين عامى ١٩٨١ و١٩٨٦ . ومن حسن الحظ ان ليانغ يان دون غيرها من اللاعبات قد اشتركت فى هذه المسابقات العالمية الكبيرة كلها ، لذلك حملت لقب الفائزة بالبطولة خمس مرات متتالية ، وحظيت بتقدير بالغ من هواة العاب الكرات فى عموم انحاء الصين . وحتى الآن لم يظهر فى مجال الكرة الطائرة على نطاق العالم لاعب آخر احرز هذا الشرف . ان شهرة ليانغ يان لم تأت اصلا من مجرد لعبها الكرة الطائرة ، وانما اتت من فوزها بالبطولة العالمية خمس مرات متتالية . وجدير بالذكر انها لم تبدأ لعبها الكرة اختيارا منها وانما اجبارا . ومما يسترعى الانتباه ويدعو الى الاعجاب انها تطورت من لاعبة غير راغبة فى لعب الكرة الى شغوف به ، ومن جاهلة لعب الكرة الى ماهرة فيه ، ومن لاعبة عادية الى لاعبة فى المنتخب الوطنى ، ومن لاعبة عادية فى المنتخب

الوطنى الى لاعبة رئيسية فيه ، اضافة الى كونها لاعبة فى المنتخب الوطنى الفائز بالبطولة العالمية خمس مرات متتالية . وجملة القول انها تطورت من العموم الى الخصوص .

وغرضنا من اجراء مقابلة صحفية معها هو الكشف عما فى تطورها هذا من اسرار .

فى اكتوبر ١٩٨٦ اتمت ليانغ يان عامها الخامس والعشرين ، وفى ريعان شبابها ودعت المنتخب الصينى النسائى الذى كافحت فيه مدة ٧ سنوات ، كما ودعت حياتها الرياضية التى امتدت ١٢ سنة ، وعادت الى موطنها مدينة تشنغدو وبعد ذلك التحقت بكلية الاعلام بجامعة الشعب الصينية فى بكين لدراسة التصوير الفتوغرافى .

وقد اجرينا معها مقابلة صحفية ، قدمت لنا فيها بعض المعلومات عنها . وقد اوردت هنا هذه الفقرات العميقة المعنى : " ان طريقى قد مهده اولئك الذين دربونى ببالغ الجهد والعناية من مدربين ومدربات . ولولاهم ، لما كنت على ما انا عليه اليوم . " " ان اعمق انطباعاتى خلال السنوات الاخيرة هو ان تحقيق النجاح فى اى تخصص من التخصصات يتوقف على وضوح الهدف والكفاح الثابت من اجل بلوغ هذا الهدف فى كل الاوقات . وقد كان لعب الكرة الطائرة تخصصى ، والتفوق فيه هدف كفاحى . "

كانت ليانغ يان فى حداثة سنها تساورها احلام جميلة فى ان تصبح جندية باسلة او منقبة جيولوجية او عالمة او معمارية ، غير انها تحولت الى عاشقة للكرة الطائرة .

عشق الكرة الطائرة

قبل عدة سنوات قالت ليانغ يان للصحفيين : " فى التحليل النهائى اقول ان تخصصى فى لعب الكرة الطائرة كان محض مصادفة ، وليس اختياريا . " عندما بلغت ليانغ يان الثالثة عشرة من عمرها وصلت قامتها الى ١٫٦٨ متر ، وامتازت بطولها عن زميلاتها اللاتى فى نفس عمرها . واكتشف هذه الميزة معلم الرياضة فى مدرستها ، فاعتبرها نبتة صغيرة فى حقل الرياضة ذات مستقبل وضاء . وبفضل الاقناع المشترك من معلم الرياضة هذا والمعلم المسؤول عن صفها والمدرب فى مدرسة الرياضة البدنية للهواة ارسلها والداها الى مدرسة الرياضة للهواة فى مدينة تشنغدو للتدرب على الكرة الطائرة . ودخلت منتخب مدينة تشنغدو ثم منتخب مقاطعة سيتشوان بصورة موفقة ، واصبحت لاعبة فى هذا المنتخب الاخير الفائز بالبطولة الوطنية للكرة الطائرة . وفى عام ١٩٧٩ اختارها يوان وى مين مدرب المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة فى ذلك الوقت ونائب رئيس لجنة الرياضة البدنية الوطنية حاليا الى منتخب الصين النسائى للكرة الطائرة .

ان ارتفاع مهارة ليانغ يان فى لعب الكرة الطائرة لم يأت بسهولة . فقد احرز فريق مقاطعة سيتشوان الذى تميز عن فرق المقاطعات الاخرى بقصر قامات لاعباته نسبيا عدة انتصارات بالاعتماد على تدريب لاعباته الشاق والتزامهن الصادق . اكتسبت ليانغ يان الاساليب الحميدة التى يتحلى بها هذا الفريق ، وتلقت فيه تدريبات صارمة

مجهدة ، ولكنها واظبت على هذه التدريبات متحملة كل ما فيها من متاعب وآلام . وهكذا جعلت تدريباتها فى فريق المقاطعة اساسا متينا لانتقالها الى المنتخب الوطنى .

لم تكن ليانغ يان شديدة التحمس الى الانتقال الى المنتخب الوطنى لخوفها من عدم بلوغ الهدف المنشود ، فتفقد بذلك اعتبارها . لكن مدربتها شجعتها قائلة : " انك تتميزين بقوة تحملك المشقة والعناء ، وتستطيعين التغلب على مشقات التدريب مهما كان طويلا . " فانضمت ليانغ يان الى صفوف لاعبات المنتخب الوطنى النسائى للكرة الطائرة وهى مصممة كل التصميم على قهر كل ما ستواجهه من مشقة وعناء .

وعند وصولها الى بكين كان المنتخب الوطنى النسائى للكرة الطائرة يقوم بالتدريبات الشاقة المريرة من اجل اللحاق بالمستوى العالمى وتجاوزه ، وجميع لاعباته يراظبن على هذه التدريبات فى عزيمة ثابتة ، ففعلت ليانغ يان مثلهن تماما . وكانت دائمة التبسم مهما بلغ بها التعب والعناء ، ولكنها فى بعض الاحيان كانت تشعر بالمرارة لشدة المدرب وقسوته عليها حين لا يقتنع بأدائها ، فتترقرق الدموع فى عينيها خفية .

كان سد الهجوم فى لعب الكرة الطائرة نقطة ضعف لدى ليانغ يان . فخصها المدرب بالتدريب على ذلك من اجل التغلب على هذا الضعف . وراحت تقفز امام الشبكة عشرات المرات . ومع تكرار هذه الحركة ما يقرب من مائة مرة ثقلت قدماها ، وانتابها خدر وألم فى الساقين واليدين نتيجة للاهتزازات المتكررة . فرغبت فى تخفيف

الحدة بعض الشيء ، لكن المدرب صاح بها ، فواظبت على التدريب حتى النهاية دون ادنى تراخ . وبعد سنة من هذا الجهد الشاق حققت ليانغ يان تقدما كبيرا فى مهارتها فى سد الهجوم . ولكن المدرب لم يقنع بذلك ، وطلب منها ان تنوع الحركات والمواقف . فانقادت لطلبه ، وواصلت التدريب لبلوغ الكمال المنشود .

كانت ليانغ يان تستهل ارسال الكرة بقبضتها . وهذا النوع من الضرب قوى ، لكن الاخطاء فيه كثيرة . ومن اجل تعليمها الارسال بمؤخر راحة اليد ساعدها المدرب على تحسين اسلوب الارسال ، وقامت بتدريبات شاقة على ذلك حتى تخدر ذراعها الايمن وارتعشت ساقاها . وظلت ليانغ يان تتصبب عرقا اكثر من غيرها من لاعبات المنتخب الوطنى ، غير ان هذا العرق رواها حتى اصبحت زهرة متفتحة ونجمة جديدة صاعدة فى حقل الكرة الطائرة .

النجمة الجديدة والبطولات الخمس المتتالية

فى المهرجان الرياضى العالمى للطلبة الجامعيين الذى اقيم فى رومانيا فى يوليو ١٩٨١ تم لقاء بين المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة والمنتخب الكوبى احد المنتخبات القوية فى العالم . وكان مدرب المنتخب الكوبى شديد الاعجاب بأداء ليانغ يان فى سد الهجوم حتى صاح قائلا : " لقد اظهر يوان وى مين (المدرب الصينى) الورقة الرابحة " . ومنذ ذلك الحين بدأت ليانغ يان تظهر مهارتها فى لعب الكرة الطائرة . وفى نوفمبر عام ١٩٨١ فاز المنتخب

الصينى النسائى للكرة الطائرة بالبطولة العالمية لأول مرة فى الدورة الثالثة لمباراة بطولة كأس العالم النسائية للكرة الطائرة . واشتركت ليانغ يان فى مباراة التصفية النهائية بين المنتخبين الصينى والكوبى ابتداء من منتصف الشوط الثانى ، وكانت النتيجة اذ ذاك ٨ مقابل ٨ ، والمنتخبان متساويان فى قدرتهما الكامنة . فلعبت ليانغ يان دورا كبيرا فى انجاح سد الهجوم القوى من المنتخب الكوبى ، فاعتبرت منذ ذلك الوقت "السد المنيع فى وجه المنتخب الكوبى" . وفى سبتمبر ١٩٨٢ اقيمت الدورة التاسعة لمباراة البطولة العالمية النسائية للكرة الطائرة . واشتركت ليانغ يان لاعبة رئيسية فى المباراة التمهيدية بين المنتخبين الصينى والكوبى . وقد قال مدرب المنتخب الكوبى فى اعجاب بالغ : "انى معجب جدا باللاعبة الصينية الصامدة رقم ٢ (ليانغ يان) ، فقد بلغت المستوى العالمى الاول فى الهجوم السريع وسد الهجوم ، وستصبح نجمة متألقة فى مجال الكرة الطائرة على نطاق العالم ." لقد واصلت ليانغ يان هذه المباراة التمهيدية حتى النهاية على الرغم مما اصابها من جروح . وفى التنافس الاخير مع المنتخب السوفياتى اشتركت ليانغ يان فى جميع اشواط المباراة . وبعد خوضها هى وزميلاتها معارك حامية فاز المنتخب الصينى بكأس البطولة العالمية للمرة الثانية . ومدحت الصحافة البيروية اللاعبة ليانغ يان ، ووصفتها بأنها "سور آخر لميدان تيان آن من" . وهذا تأكيد تام على مهارة ليانغ يان فى سد الهجوم . وفى اغسطس ١٩٨٤ جرى التنافس على الميدالية الذهبية للكرة الطائرة النسائية بين المنتخب الصينى والامريكى فى مهرجان المباريات الاولمبية الـ ٢٣ ، ففاز المنتخب الصينى بالبطولة العالمية

للمرة الثالثة على التوالى ، وقد لعبت ليانغ يان الدور الفذ فى هذا الفوز .

وفى ذلك الحين ادركت ليانغ يان بكل هدوء ما كان يطمح اليه مدربها من تشديد تدريبه وصرامة طلباته ، كما ادركت ادراكا عميقا ان ندها وند المنتخب الصينى ليس كوبا ولا اليابان بل العالم كله .

وبعد ذلك اشتركت ليانغ يان فى المباراة العالمية الحاسمة مرتين اخريين ، وفاز المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة بالبطولة العالمية مرتين متتاليتين اخريين . وبذلك تشرفت ليانغ يان بلقب " الفائزة بالبطولة العالمية خمس مرات متتالية " فى الدورة العاشرة لمباريات البطولة العالمية النسائية للكرة الطائرة . كانت ليانغ يان قد اصبحت لاعبة محنكة ، خاضت مباريات حامية الوطيس على مدى اكثر من ٧ سنوات ، واشتركت فى ١٩٠ مباراة دوليا او يزيد . وبعد تقاعد لانغ بينغ رئيسة المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة صارت ليانغ يان نائبة لرئيسة المنتخب ودعامة له .

كانت ليانغ يان تقاسم منتخبها الافراح والهموم والاحزان . ففى يوليو ١٩٨٣ هزم المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة امام المنتخب اليابانى النسائى فى مباراة بطولة آسيا ، فبكت ليانغ يان فى اسف شديد . وعندما استعرضت هذا الامر بدا عليها القلق مرة اخرى ، وقالت : " لقد لعبت لعبا رديئا للغاية فى تلك المباراة ، فالمدرب طلب منى ان اكون صافية الذهن ، لكننى لم اتمكن من تهدئة خواطرى. وحينما سمعت التعليقات على عيوبى شعرت بألم وخيبة . ان قامتى

١٧٧ سم فقط ، بينما قامة اللاعبات المتخصصات بسد الهجوم فى المنتخبات الاخرى فى العالم تزيد عن ١٨٠ سم . وهكذا خفت ان اعوق تقدم المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة ، وآثرت ان تحل محلى لاعبة اخرى تتوفر فيها الشروط اللازمة . فكتبت رسالة الى مدربتى السابقة فى منتخب مقاطعة سيتشوان ، طلبت فيها العودة اليه ، وذلك لأنى قد اتفقت معها عند مغادرتى هذا المنتخب على العودة اليه ان لم اكن ملائمة للبقاء فى المنتخب الوطنى . وعندما لاحظ المدرب يوان وى مين انى مهمومة الهيئة مشغولة الذهن ، كلف رئيسة المنتخب تشانغ رونغ فانغ بمساعدتى على تصحيح تفكيرى الخاطئ . وساعدنى المدرب دنغ روه تسنغ كذلك حيث قال بصورة جدية : "لايصح ان تيأسى لمجرد عدم نجاحك فى مباراة واحدة ، ولا يصح ان يخيب املك من جراء هزيمة واحدة . ان مهامك جد شاقة ، فتدربى خير تدرب وبمعنويات مرتفعة ." وهدأنى حقا كلام هذا المدرب .

بعد عدة ايام تلقيت رسالة رد من مدربة منتخب مقاطعة سيتشوان ، نصحتنى فيها بالثبات ومواصلة السير حتى النهاية . اما المدرب يوان وى مين فهو الذى بدد آخر غيوم التخوف التى كانت متلبدة فى قلبى حين قال : "لم يبق الا نصف سنة فقط على اقامة مهرجان المباريات الاولمبية ، وتصميمنا على انتزاع الميدالية الذهبية لا يمكن زعزعته . ان الهزيمة المؤقتة ليست مخيفة ، لكن المخيف حقا هو فقدان الثقة بالنصر" . ان الكرة الطائرة تخصصى ، وهى مرتبطة بقلبى ، وقلبى متعلق بشرف الوطن . وما دام الوطن فى حاجة الى ذلك ،

فسأواظب عليه بغض النظر عن مصلحتي الشخصية . وان مغزى حياة الانسان يكمن فى بذل المساعى وخوض غمار الكفاح . . . .
ومنذ ذلك الوقت اخذ المنتخب الصينى النسائى للكرة الطائرة يحرز النتائج المطلوبة . كانت المباريات قد زادت من مهارتنا فى اللعب ، وشحذت عزيمتنا ، وقوت ارادتنا . وقد اصاب المدرب يوان وى مين كبد الحقيقة حين قال : ' هناك تفاوت جوهرى بين انسان له هدف وآخر لا هدف له ، بين انسان يسعى وراء تحقيق هدفه بهمة عادية وآخر بعزيمة مستميتة . ' والطريق الذى اسلكه يدل على ما اسعى من اجله ، ويعنى ان قلبى مرتبط بالكرة الطائرة وبشرف الوطن .

الامور التى تسير على عكس ارادة الانسان كثيرة جدا . فهناك من كافح طول حياته من اجل تحقيق امنيته ، ولكنه لم يحقق شيئا من ذلك . وهناك من صعد قمة النجاح غير المتوقع عندما سنحت الفرصة مصادفة لحسن حظه . وانا من هذا النوع الاخير . ان الدروس التى خبرتها فى حياتى الرياضية خلال ١٢ عاما يستحيل نسيانها . كنت شخصية عادية ، ثم اصبحت مشهورة فى ملعب الكرة . وقد خرجت الآن من ملعب الكرة وعدت شخصية عادية . ان الفوز بالبطولة خمس مرات متتالية قد مضى وصار تاريخا . وطريق الحياة فيما بعد جد طويل وجد بعيد . "

حلمها لم ينته بعد

كانت حياة ليانغ يان فى الرياضة البدنية مثل حلم جميل .

وقد اعتزلت الآن ميدان الرياضة ، ومازالت تساورها حول المستقبل طموحات كثيرة . انها تتأمل ، بعد ان عادت شخصية عادية ، كيف ستستمر حياتها ، ثم كتبت ما يلى :

" قضيت اثمن سنوات عمرى بمصاحبة الكرة الطائرة . وذلك العهد ذهبى ، امتزجت فيه الافراح بالاتراح ، ونضجت فيه نضوجا تدريجيا . والمشقات التى عانيتها من اجل انتزاع للبطولة العالمية قد جعلتنى ادرك تمام الادراك قيمة حياة الانسان . فآمل ان يكون يوم توديعى الكرة الطائرة هو البداية المفعمة بالطموح لحياتى الجديدة . وما الاقوياء فى هذه الحياة الا اولئك الذين يسيرون قدما بلا توقف .

اود الدراسة فى الجامعة بعد مغادرتى ميدان الكرة الطائرة ، وهذا ما كان يساورنى منذ طفولتى المبكرة . خلال استعدادى لمباراة البطولة العالمية التى اقيمت فى براغ استفدت من اوقات الفراغ فى تعلم اللغة الانجليزية ومراجعة بعض المواد الدراسية استعدادا للاشتراك فى الامتحان الاضافى للالتحاق بالجامعة . ونظرا لكون اللاعبات الجديدات فى المنتخب حينذاك على غير ما يرام من المستوى ، فقد طلب منى المسؤولون ان اركز جهودى فى التدريب استقبالا لمباريات البطولة العالمية . وانقدت دون اى كلام لمراعاة للوضع العام ، فأوقفت استعداداتى للامتحان مكرهة ، الا ان فكرة الالتحاق بالجامعة ظلت ملازمة لى على الدوام . وانى لأرى فى مواصلة الدراسة فى الجامعة نوعا جديدا من مساعى التقدم . "

خلعت ليانغ يان " درع القتال " ، وودعت الكرة الطائرة التى عشقتها اشد العشق ، والتحقت بالجامعة وكلها امل ان تصبح صحفية

رياضية بعد تخرجها فى الجامعة ، الامر الذى يعكس حنينها الى اوساط الرياضة .

اضواء جانبية على حياتها

لم تكن ليانغ يان لاعبة رياضية ذائعة الصيت فحسب ، بل كانت فتاة لطيفة جذابة تفيض حيوية ونشاطا . وكانت متعددة الهوايات كمشاهدة السينما وجمع الطوابع وسماع الموسيقى ، والتصوير الفتوغرافى والرماية ورمى الاطباق الطائرة . واحب شيء لديها هو قراءة الروايات الصينية والاجنبية والشعر والمسرحيات التراجيدية . وترى ليانغ يان ان المأساة تستطيع تحريك قلوب الناس واثارة عواطفهم وجعلهم يتأملون فى معانى حياة الانسان ، وتأمل ان يكون لكل شخص نهاية سعيدة كما هو الحال فى الكوميديا (الملهاة) .

تدرس ليانغ يان الآن فى جامعة الشعب الصينية بضاحية بكين الغربية ، تسكن فى المدينة الجامعية ، وتأكل فى مطعم الطلبة ، وتمارس الرياضية الصباحية ، وتقوم ببعض الالعاب الرياضية بما فى ذلك الكرة الطائرة ، كما تهتم بدروسها كى تجتاز الامتحانات بنجاح ، مثلها مثل بقية الطلبة الجامعيين دون اى امتياز . ويبدو انها تعودت حياة الطلبة فى الجامعة .

واخبرتنا ليانغ يان بأنها التحقت بالجامعة بعد تجاوزها امتحان القبول . وستعود بعد التخرج الى تشنغدو لتعمل هناك . ودائما ما تزور زميلاتها اللاعبات فى المنتخب الوطنى النسائى للكرة الطائرة ، فعواطفها

ما تزال مشدودة الى المنتخب بأعصابه ومدربيه . وبخصوص حياتها العاطفية لم تصرح لنا بفتى احلامها ، فقد قالت بلهجة مزجت بين الجد والدعابة : " على ان اكتم بعض اسراري الشخصية ." وردها هذا يعكس ملامح شخصيتها وميزتها . وفي ربيع عام ١٩٨٨ حين اوشكنا على انجاز تأليف هذا الكتاب ، سمعنا بأنها خطبت الى عازف آلة موسيقية .

وتحب ليانغ يان كتابة المقالات . وعند مغادرتنا اعطتنا مقالا لها وقالت : " اوردت في هذا المقال كل ما يجدر ذكره ." وفي ختام تعريفنا بها نود ان نكرر من جديد قولها كما يلي : "كنت اعاني من الآلام والاعياء من اجل الكرة الطائرة واليوم غادرت ملعب الكرة ، وعدت شخصية عادية . لكن طريق الحياة امامي فيما بعد جد طويل وجد بعيد ."

نتمنى لها ان تحقق كل ما تطمح اليه .

هبة السماء

ــ لو تيان جياو اول مصممة لطوابع البريد فى الصين

ما اكثر الطوابع البريدية والرسائل المتبادلة بين الاحبة والاصدقاء ! فبفضلها ، اصبحت الاتصالات بين الناس سريعة وقريبة برغم ان المسافة بعيدة جدا . وغدا نشر الاخبار امرا سهلا . وطوابع البريد تمثل اجرة البريد من جهة ، وتعتبر عملا فنيا خاصا من جهة اخرى . لكم يشعر هواة جمع الطوابع بالغبطة ، وهم يرتبون طوابعهم الجميلة الرائعة طابعا بعد آخر فى البوماتهم بكل دقة وعناية !

ويعتبر جمع الطوابع فى الصين هواية رفيعة وشعبية فى آن واحد . فهواة جمع الطوابع فى الصين ينتمون الى مختلف الاوساط ومختلف الاعمار . وهم يتهادون ألبومات الطوابع الراقية فيما بينهم فى اعياد ميلادهم . وامام مقر المؤسسة العامة الصينية لنشر وتوزيع طوابع البريد دائما ما يجد المرء جماعات من هواة جمع الطوابع يتبادلون الطوابع فيما بينهم ، او ينتظرون شراء الطوابع الصادرة حديثا . واغلبية هؤلاء من الشباب . ويقال ان عدد الشغوفين بجمع طوابع البريد فى الصين يصل الى عدة ملايين .



لو تيان جياو

هبة السماء فى مجال تصميم طوابع البريد

بين المتخصصين بتصميم طوابع البريد فى الصين مصممة شهيرة تدعى لو تيان جياو ، وتتولى الآن منصب نائبة مدير قسم التصميم فى مصلحة نشر طوابع البريد بوزارة البريد والبرق . انها تعمل فى هذا الحقل الفنى الخاص بكل جد واجتهاد منذ اكثر من ٣٠ عاما . ومن بين الطوابع التى صممتها طوابع لمشاهير الصينيين والاجانب فى العهد القديم والعهد الحديث ، مثل صون يات صن قائد الثورة الديمقراطية الجديدة فى الصين وعقيلته سونغ تشينغ لينغ ، وشو ان لاى رئيس مجلس الدولة الصينى ، والطبيب الكندى نورمان بثيون ، والشاعر الصينى دو فو من اسرة تانغ ، ومنها طوابع تذكارية مثل " الذكرى الـ ١٥ للعيد الوطنى " و" الذكرى الـ ٣٠ للعيد الوطنى " ، ومنها كذلك

طوابع مختلفة الموضوعات مثل " الفخار المطلى الثلاثى الالوان من عهد اسرة تانغ" و" الالعاب الشعبية " و" المسكوكات الصينية القديمة " و" الجسور المعقودة على الطرق العامة " و" ألعاب الووشو" و" الرياضة البدنية للصغار" و" الرياضة البدنية للاطفال " و" النجاح الجديد فى صعود جبل جولمولانغما " و" المهرجان الرياضى الوطنى الرابع" و" الذكرى الاولى لعودة الصين الى اللجنة الاولمبية الدولية " و" مهرجان المباريات الاولمبية الـ ٢٣ " . وقد بلغ مجمل عدد مجموعات الطوابع البريدية التى صممتها لو تيان جياو خلال ٣٠ عاما اكثر من ٦٠ مجموعة ؛ تحتلُ تقريبا تسع عدد مجموعات والطوابع التى تم اصدارها بعد قيام الصين الجديدة .

عام ١٩٧٩ جرى بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيس جمهورية الصين الشعبية اختيار احسن الطوابع البريدية ، فوقع الاختيار على ٣٠ مجموعة من الطوابع ، وجدير بالذكر ان سدسها من تصميم لو تيان جياو . وهذه المجموعات الخمس هى " الفخار المطلى الثلاثى الالوان من عهد اسرة تانغ" و" الذكرى الاولى لوفاة رئيس مجلس الدولة شو ان لاى" و" الذكرى الـ ٣٠ لتأسيس جمهورية الصين الشعبية " و" زهرة عود الصليب" و" الدورة الـ ٢٦ لمباريات البطولة العالمية لكرة الطاولة " . وبهذا اصبحت لو تيان جياو من اشهر مصممى الطوابع البريدية فى الصين . ان ما صممته من طوابع " الذكرى الاولى لوفاة الرفيقة سونغ تشينغ لينغ" و" مختارات اعمال الرسام وو تشانغ شوه " قد نال جائزة احسن تصميم فى عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤ على التوالى . وطوابعها " المسكوكات الصينية القديمة "

نالت " الجائزة السنوية الوطنية لعام ١٩٨٢ " التى منحتها اياها جمعية الهواة الامريكيين لجمع طوابع البريد والمسكوكات .

لقد اجرينا اول مقابلة مع لو تيان جياو فى مكتبها . وفى مستهل حديثنا عرفتنى باسمها فقالت : " قبل ولادتى كان والداى قد انجبا ولدين ، لذلك تمنيا ان يرزقا بنتا . وحين ولدت كنت مبعث سرور وبهجة لهما . وقد رأيا بى هبة من السماء ، فسمياني " تيان جياو" بمعنى " الفخر الممنوح من السماء" .

ولم تخيب لو تيان جياو امل والديها ، فقد اصبحت شخصية بارزة فى مجال تصميم طوابع البريد فى الصين بعد ان بذلت جهودا دؤوبة ، وحققت منجزات بارزة .

٣٠ عاما من الحياة الفنية

ولدت لو تيان جياو فى شانغهاى عام ١٩٣٤ ، وموطنها الاصلى مقاطعة قوانغدونغ . وفى عام ١٩٥٠ التحقت بالمعهد الفنى فى هانغتشو ، ثم انتقلت بعد ذلك الى كلية الفنون التطبيقية بالمعهد المركزى للفنون الجميلة فى بكين حيث تعلمت على يد العمالقة المشاهير فى اوساط الفنون الجميلة فى الصين .

تخرجت لو تيان جياو فى المعهد عام ١٩٥٤ ، وكان من الممكن ان تحصل على احسن وظيفة فى دار النشر او دار الآثار او غيرهما من الدوائر الكبيرة فى اوساط الادب والفن مثل زملائها وزميلاتها . لكنها لم تهتم بنوعية العمل ولا بشهرة الدوائر ، بل كان املها الوحيد فى ذلك

الحين هو ان تضع معلوماتها فى خدمة المجتمع واسعاد الشعب . لذلك لم تستخف بأعمال تصميم طوابع البريد بحجة ان الطوابع لا تعتبر اعمالا فنية كبيرة فى انظار الكثيرين ، ولم يساورها القلق والارتباك لكون هذا العمل لا يلفت الانتباه . وانما ركزت اهتمامها على التعلم من المصممين القدامى والاستفادة من الخبرات الاجنبية فى تصميم الطوابع ، فتمكنت من عملها بسرعة . وفى الفترة ما بين عامى ١٩٥٤ و١٩٥٦ صممت ٦ مجموعات من طوابع البريد .

وفى عام ١٩٥٧ اجبرها مرضها — التدرن الرئوى — على ترك العمل مؤقتا من اجل العلاج . واشتد بها القلق اذ ذاك ، فقد ماتت والدتها بهذا المرض ، وهى فى السادسة من عمرها . لكن لو تيان جياو حظيت بتشجيع بالغ ومؤاساة رقيقة من جميع مسؤوليها وزملائها ، فتحسنت صحتها تحسنا كبيرا بعد ٨ اشهر من العلاج . وطلبت اجراء عملية جراحية لاستئصال المرض نهائيا حتى تعود اليها كامل صحتها وعافيتها ، فتتمكن بعدها من الاضطلاع بمهمة العمل من جديد .

وشفيت من مرضها تماما عام ١٩٥٩ ، وعادت الى موقع عملها مسرورة بشفائها بالغ السرور . وبرغم ان الطبيب نصحها بالعمل نصف يوم فقط وبالاستراحة جيدا ، غير انها تغاضت عن هذه النصيحة ، وانكبت على العمل . ومن اجل انجاز المهام المستعجلة فى حينها دائما ما كانت تتخلى عن الراحة ، وتعمل ساعات اضافية ، وتبيت فى مكتبها على الاريكة . وفى تلك الفترة صارت لو تيان جياو مصممة طوابع عالية الانتاج . وعندما سئلت فيما بعد عن سبب

هذا الانتاج العالى ، ردت قائلة : " انى عازمة على العمل بجد واجتهاد مقابل ما قدمه لى الشعب . "

كسبت لو تيان جياو شرفا عظيما وتقديرا بالغا لنتائجها البارزة . ففى عام ١٩٦٠ منحت لقب " العاملة النموذجية على نطاق البلاد " . وفى عامى ١٩٦٠ و ١٩٦٤ اختيرت عضوة ممتازة فى عصبة الشعبية الشيرعية . وفى عام ١٩٦٥ اختيرت عاملة مثالية فى مصلحة نشر الطوابع البريدية .

ولكن كل هذه النجاحات تحولت فى " الثورة الثقافية " التى قلبت الحقائق رأسا على عقب الى حجج لتعريضها للنقد والدحض . ولم تستطع لو تيان جياو ان تفهم سببا لذلك . واستبد بها التذمر والحيرة ، ولكنها ظلت تثق ثقة راسخة بأن الاجتهاد فى العمل ليس خطأ ، فكتبت فى يوميتها : " ان الاعمال الخاصة بتصميم طوابع البريد هى التى تحتفظ بأوثق علاقة بى ، وهى التى تجلب لى اعظم السرور . "

وفى عام ١٩٦٩ ارسلت لو تيان جياو مثل اغلبية المثقفين الى " مدرسة الكوادر " فى الريف لمزاولة العمل الجسمانى ، فقامت هناك بأعمال الزراعة وجنى القطن وتربية الخنازير واعداد الطعام .. الخ . ولكنها فى تلك الظروف حيث الطبيعة الواسعة ، وجدت فى الحياة بهجة جديدة . وفى يناير عام ١٩٧٣ رافقتها ، وهى تغادر الريف حاملة الامتعة على كتفها ، عدة كلاب بدا أنها اكثر عطفا ورقة من بنى الانسان ، فراحت تجرى عند قدميها محركة ذيولها كأنها غير راغبة فى مفارقتها .

وعندما سنحت لها الفرصة من جديد للقيام بتصميم طوابع البريد كانت لو تيان جياو قد بلغت الثامنة والثلاثين من عمرها ، وقد افقدتها " الثورة الثقافية " ٧ سنوات من وقتها الثمين . فعقدت العزم على تعويض تلك الفترة ، وتغيير اسلوب الطوابع البريدية الذى كان مفرطا فى التلوين والتكبير ، والعمل على تصميم طوابع ذات ميزات صينية . وفى تلك الفترة صممت عدة مجموعات من الطوابع لقيت تقديرا حسنا ، منها " الرياضة البدنية للاطفال " و " ألعاب الووشو " و "الجسور المعقودة على الطرق العامـة " و " النجاح الثانـى فى صعود جبل جولموِلانغما " . وفى اواخر السبعينات اضطلعت طوعا بمهمة تصميم طوابع " الذكرى الـ ٣٠ للعيد الوطنى " و " الذكرى الاولى لوفاة سونغ تشينغ لينغ الرئيسة الفخرية لجمهورية الصين الشعبية . "

كان يوم ١٦ اغسطس ١٩٨٤ هو يوم الذكرى السنوية الـ ٣٠ لبداية عمل لو تيان جياو فى مجال تصميم طوابع البريد ، فكيف قضت ذلك اليوم ، وماذا عملت فيه ، لنر ما كتبته هى بنفسها :

" فى الصباح ذهبت الى دار مجلة الرياضة البدنية الصينية — الطبعة الانجليزية — لأخذ بعض الصور الملونة . وبعد الظهر قمت بتصميم بطاقة بريدية عن آخر ميدالية ذهبية (فى الدورة الـ ٢٣ لمهرجان المباريات الاولمبية) . ثم ذهبت الى مصنع الطوابع بالرسوم التصميمية لدراسة ما يتعلق بصنع القالب والطباعة ، وعدت من المصنع الى المكتب فى الساعة الثامنة مساء . وانجزت فى بحر ساعتين رسم صورة ملونة عن الميدالية الذهبية لصنع القالب ، ثم تناولت بقايا غدائى على عجل . وفى الساعة العاشرة مساء عدت الى مصنع الطوابع مرة

اخرى بسيارته ، حيث شاركت عمال المصنع على الفور فى صنع القالب مع اجراء بعض تهذيبات على الصورة ، ولم ننته من عملية صنع القالب الا بعد الساعة الثالثة من فجر اليوم التالى . ثم نمت ثلاث ساعات على للطاولة فى ورشة المصنع ، وعدت الى المكتب ظهرا ، وتناولت الفطور والغذاء فى آن واحد ، وذهبت الى المصنع مرة اخرى فى الساعة الرابعة بعد الظهر . . . واخيرا انتهينا من جميع الاعمال اللازمة . ولم يخطر ببالى الا بعد فراغى من مشاغلى المذكورة ان يوم ١٦ اغسطس قد مضى خلسة بين مشاغلى المتزاحمة . ولكن عندما أستعرض هذا اليوم اشعر بارتياح البال لا وخز الضمير . "

لقد قضت لو تيان جياو حتى اليوم ٣٤ ربيعا فى مجال تصميم طوابع البريد . وتحولت تدريجيا من عاملة جديدة فى ميدان تصميم طوابع البريد الى اختصاصية فى هذا الميدان ذائعة الصيت داخل الصين وخارجها .

وعند استعراض المسيرة التى قطعتها خلال هذه السنوات الاربع والثلاثين قالت لو تيان جياو ببالغ الانفعال :

" تلمست طريقى وسعيت فى مجال تصميم طوابع البريد الضيق والواسع فى آن واحد ، وقد مضى على ذلك اكثر من ٣٠ سنة مرت كلمح البصر ، وكانت حياتى فيها مزيجا من الكسب والخسارة ، من الافراح والاتراح ، لكن هذه الفترة الطويلة غير كافية ولا بد ان تمتد . "

النشدان الفني لا حد له

يقال بأن المقال يمثل كاتبه . وفى الواقع ان الابداع الفنى مثله مثل الابداع الادبى . ان طوابع البريد التى صممتها لو تيان جياو تتميز بالحداثة والاناقة والدقة والرزانة ، وكل هذه الصفات تمثل طبيعة لو تيان جياو واخلاقها .

هناك اكثر من ٦٠ مجموعة من طوابع البريد تم تصميمها على يد لو تيان جياو . وهذه المجموعات واسعة المواضيع ومتنوعة المضامين . ويمكن القول بأن كل مجموعة من هذه المجموعات تمثل الاندماج الوثيق والتوحد الكامل بين المضمون والشكل .

لقد استخدمت لو تيان جياو عند تصميم مجموعة طوابع " الفخار المطلى الثلاثى الالوان من عهد اسرة تانغ " ، اسلوب التباين التدريجى لإظهار الرونق والبهاء من الاناقة الكامنة فى البساطة ، فهناك بين الوان التشكيل والوان الخلفية تقارب وتباين لونيان فى آن واحد ، وهكذا ظهر رونق الفخار الثلاثى الالوان ظهورا ساحرا . وعند تصميم مجموعة طوابع " الألعاب الشعبية " استخدمت لو تيان جياو اسلوب التناوب بين الخلفية الملونة بالالوان الفاتحة من الرمادى الصحيح والخضرة الزرقاء والخضرة الصفراء والخلفية غير الملونة ، وهكذا ظهرت من جديد تلك الاعمال الفنية الشعبية الصغيرة الانيقة والنابضة بالحياة عن طريق فن تصميم طوابع البريد . وفى عام ١٩٨٠ صممت لو تيان جياو طابعين بريديين تذكاريين للمعرض الاقتصادي التجارى الصينى

المقام فى الولايات المتحدة ، اولهما عبارة عن غادة سماوية تنثر تويجات الازهار على عالم الانسان ، والآخر عبارة عن شريط من السحاب المبارك يربط بين الصين التى رمز اليها بالسور العظيم والولايات المتحدة التى تمثلها مدينة سان فرنسيسكو وشيكاغو ونيويورك ، وذلك عبر عن التمنيات الطيبة التى يكنها الشعب الصينى للشعب الامريكى .
وفى عام ١٩٨٤ صممت بمناسبة عودة الصين الى مهرجان المباريات الاولمبية ٦ طوابع حول " الدورة الـ ٢٣ لمهرجان المباريات الاولمبية " ، حيث حرفت رمز المهرجان المتكون من ٥ حلقات الى المضمار ذى الالوان الخمسة الازرق والاسود والاحمر والاصفر والاخضر فى مقابل الوان الحلقات ، وعلى المضمار رسومات ظلال مقلوبة للانسان ترمز الى الرياضة البدنية فى العصور القديمة ، فتتميز الصورة بوجود السكون فى الحركة ووجود الحركة فى السكون ، وتعطى لناظريها احساسا بالرياضة والزمن ، وهذا تصميم رائع وبارع .

كيف ابدعت لو تيان جياو كل هذه الاعمال الفنية الرائعة ؟ ان الفضل فى ذلك يرجع الى شعورها برسالة الفنانين ومسؤوليتهم والى نشدانها الفنى ، هذا بالاضافة الى تهذيبها الفنى العميق واساسها الفنى المتين .

فمن اجل نقل المسكوكات الصينية القديمة التى يرجع زمنها الى ما قبل آلاف السنين الى الطوابع البريدية قرأت لو تيان جياو عددا كبيرا من الوثائق المعنية ، واستشارت الخبراء فى علم المسكوكات القديمة ، وذهبت مرات كثيرة الى معهد البحوث للآثار ومتحف التاريخ لمشاهدة ما يعرض هناك من المسكوكات القديمة ، وذلك

للبحث عن حقيقة الجمال بين تلك المسكوكات القديمة المتآكلة قطعة فقطعة . وقد صممت عن هذه المسكوكات القديمة ١٦ طابعا . وبرغم انها متشابهة فى مظهرها ، الا ان المرء سيجد حين يمعن النظر فيها ان الوان الصدأ مختلفة عن بعضها بعضا . وعند تصميم هذه الطوابع استخدمت لو تيان جياو اطارات مختلفة الالوان للتنسيق مع الوان المسكوكات القديمة ، مما اضفى على الصور حيوية ورزانة . وعند حديثها عن تصميم هذه المجموعة من الطوابع قالت بانفعال : "كان من الممكن ان اتخذ الصور الفوتوغرافية لبعض المسكوكات القديمة مناظر رئيسية لهذه الطوابع ، لكنى لم افعل ذلك ، وانما قمت بتجميلها تجميلا فنيا بريشة الرسم ، اذ كنت ارى انه من واجبى تجاه الوطن والشعب ان اجعل ذكاء اسلافنا القدامى يشع بهاء ورونقا مرة اخرى على طوابع البريد ."

ان الابداع الفنى عمل شاق . فمن اجل تصميم مجموعة من الطوابع على الفنان ان يستغرق وقتا طويلا فى التفكير والتدبير . ففى عام ١٩٨٠ شاهدت لو تيان جياو على شاشة التلفزيون منظر استقبال السيدة سونغ تشينغ لينغ للضيوف الاجانب ، فخطرت ببالها فكرة تصميم مجموعة من طوابع البريد لهذه المرأة العظيمة . ولم يمض على ذلك الحين وقت طويل حتى تواردت الاخبار عن مرضها ثم وفاتها . فقرأت لو تيان جياو بامعان ودقة المقالات التذكارية المنشورة والاخبار التلفزيونية المعنية ، وتأثرت كثيرا بشخصيتها العظيمة . واشتدت رغبتها فى الابداع الفنى المذكور الى حد لا يمكن كبحها معه . وتحققت امنيتها اخيرا بمناسبة الذكرى الاولى لوفاة السيدة

سونغ تشينغ لينغ . وكان الوقت ضيقا عليها ، اذ ان يوم اصدار الطوابع سيأتى بعد شهر من قبولها مهمة تصميمها . كانت فى البداية تود ان تتخذ صورة نصفية بخلفية من الازهار لتكون منظرا عاما للطابع ، ولكنها رأت فى الوقت نفسه ان هذا التصميم جد عادى ، ولا يمكنه ابدا ان يمثل هذه السيدة الصينية البارزة فى القرن العشرين . وانكرت تصوراتها مرة بعد اخرى . وفى آخر المطاف الهمها مشهد تلفزيونى لقيام السيد لياو تشنغ تشى بوضع ازهار القرنفل الصينى على ضريح السيدة سونغ ، فحددت احسن مشروع تصميم : يكون المنظر العام للطابع على شكل نصب تذكارى ،رصع عند اطرافه بأسلاك ذهبية ، وتكون خلفية الصورة النصفية من ازهار القرنفل الصينى الصفراء . وكانت السيدة سونغ تشينغ لينغ تحب زهرة القرنفل الصينى اكثر من بقية الازهار لأنها ترمز للام عند الصينيين .

ومن اجل ان تقوم لو تيان جياو باظهار المنجزات الفنية للسيد وو تشانغ شوه ، الرسام الصينى العملاق البارز فى العصر الحديث ، مرة اخرى على طوابع البريد ، فقد تجولت فى بكين وشانغهاى وهانغتشو وآنجى وغيرها متحدية الرياح والامطار لزيارة خلفاء السيد وو فى فن الرسم وابنائه واحفاده ، وجمعت اكثر من ٦٠ لوحة للرسم والكتابة ، واختارت منها ٨ لوحات من خيرة اعمالها الفنية ، ونقلتها الى الطوابع بعد تصميمها على نحو بارع تجسيدا للموقف الفنى للسيد وو القائل بأن الرسم والكتابة من منبع واحد . وبهذا قامت لو تيان جياو بتجربة جريئة قيمة لنقل فن الرسم التقليدى الصينى الى طوابع البريد .

ان لو تيان جياو لا تكتفي بما حققته من انمنجزات الفنية ،

وقد قالت بصدق : " ان طوابع البريد مثل السينما فن مؤسف ، جيدها او رديئها سيبقى الى الابد فى تاريخ الطوابع . وتقليد ما عمله الآخرون امر ليس صعبا ، وتكرار ما عملته بنفسى امر اسهل . واعمال الفنان ستموت اذا خلت من ابداعات جديدة . ان حجم الطوابع صغير ، ومجال تصميمها واسع ، وبحر الفن غير متناه . سأواصل مجهوداتى فى سبيل تحقيق تطلعاتى الفنية وتقديم اسهاماتى المتواضعة فى تنمية اعمال طوابع البريد بغض النظر عما اعانيه فى طريق تقدمى ."

العائلة الفنية

لو تيان جياو منحدرة من عائلة مثقفة ، فأبوها كان طبيبا شغوفا بالفنون الجميلة ، ثم ترك مهنة الطب اخيرا وبدأ يمارس مهنة التصوير الفوتوغرافى . وبدءا من الثلاثينات اخذت اعماله الفنية تظهر من حين لآخر فى معارض فنية داخل الصين وخارجها . ونال الجائزة عدة مرات ، ونشرت له مجموعات من الاعمال الفوتوغرافية المختارة . وامها كانت مثقفة كذلك . وقد ماتت ولو تيان جياو ما تزال فى السادسة من عمرها. لذلك قضت طفولتها تحت رعاية والدها وتأثرت بمهارات ابيها الفنية الواسعة تأثرا كبيرا . وبدأت تحب الفنون الجميلة والموسيقى والتصوير الفوتوغرافى منذ ايام دراستها الاولى . وزوجها ليو شوه رن ذو مواهب متعددة الجوانب ومصمم طوابع شهير ايضا . والطوابع التى صممها متعددة المواضيع ، واضحة المعنى ، محكمة التشكيل ، عميقة المدلول ، بارزة التزيين ، ذات مميزات قومية فياضة . وقد لقيت

طوابع " الباغودة العتيقة " و" الجسر العتيق " و" الفراشة " و" الدجاج الذهبى" و" الماكياج الرجهى فى اوبرا بكين " و" الدلفين الابيض " و" التماثيل الملونة من اسرة لياو" وغيرها من الطوابع التى صممها تقديرا جيدا داخل البلاد وخارجها . وهى وزوجها مصممان لطوابع البريد شهيران داخل الصين وخارجها ، وهذه حالة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ تصميم الطوابع البريدية .

لقد كانا فى الخمسينات يخرجان فى وقت الفراغ لشراء الطوابع البريدية الاجنبية ، اليابانية منها والالمانية الغربية والسويسرية ، وكلما وجدا ما يحبانه ، اشترياه دون تردد مهما بلغ ثمنه . ومما يؤسف له ان تلك الطوابع القيمة التى اشترياها اعتبرت فى " الثورة الثقافية " مزيجا من المساوئ الاقطاعية والرأسمالية والتحريفية ، فاضطر هذان الزوجان الى اتلافها وهما يقاسيان آلاما ممضة . وحين ذكرت لو تيان جياو اليوم هذا الامر عاودها الانفعال الشديد وقالت : "كنا كلما نظرنا الى تلك الطوابع الاجنبية الزاهية الرائعة ، نشعر بالالم الشديد لتأخر الصين فى مجال تصميم الطوابع ، لذلك عقدنا العزم على تصميم مزيد من الطوابع الرائعة لرفع سمعة الصين الجديدة وتمجيد الامة الصينية . "

وقد فعل هذان الزوجان ذلك حقا . ففى الفترة الممتدة من الخمسينات الى اواسط الستينات صمما عددا كبيرا من الطوابع الراقية . وقد بلغ عدد مجموعات الطوابع التى صمماها حتى اليوم اكثر من ١٣٠ مجموعة ، ويحتل هذا العدد حوالى ربع عدد الطوابع الصادرة بعد قيام الصين الجديدة .

كان كل منهما طالبا فى كلية الفنون التطبيقية بالمعهد المركزى للفنون الجميلة ، وقد تخرجا فيها على التوالى ، ثم بدأا يشتغلان فى نفس وحدة العمل وفى نفس المكتب ونفس العمل كانت لو تيان جياو عند بداية عملها فى مجال تصميم الطوابع فتية ظريفة تلفت الانتباه . فتودد اليها كثير من الشبان . اما هى فتمسكت بفكرة ثابتة : البحث عن شاب عادى على ان يكون مجتهدا طموحا . وكان ليو شوه رن صاحب المواهب المتعددة الجوانب هو الشريك المنشود . فتزوجا عام ١٩٦٠ ، وليو شوه رن يومها فى الثلاثين من عمره ، ولو تيان جياو فى السادسة والعشرين من عمرها . وفى العام التالى انجبا ولدا ، سمياه "كمال" ، تعبيرا عن انهما لا يريدان مولودا آخر وفقا لخطتهما المسبقة وحرصا على توفير الوقت للقيام بالمزيد من العمل .

وفى هذا العام بلغ ابنهما السادسة والعشرين . وبتأثير الوالدين شغف بالفنون الجميلة منذ صغره . وواظب على الدراسة الذاتية بعد انهاء دراسته الثانوية ، اذ انه لم يتمكن من الالتحاق بالمعهد العالى للفنون الجميلة لقلة عدد الطلبة المقبولين ، وهذا سبب للوالدين ضيقا ، ولكن ابنهما راح يواسى امه قائلا : "يا ماما ، لا تقلقى على مستقبلى" . وقد قام منذ عام ١٩٧٩ بتصميم الغلافات لبعض المجلات الصينية ورسم الصور البيانية ، وابدع بعض رسوم القصص المسلسلة . وقد عرضت اعماله الفنية فى معرض الرسومات لشباب بكين .

ويشتغل ابنهما الآن مراسلا لـ «صحيفة تشنغنان بوست» فى بكين وعضوا لهيئة تحريرها ومحررا متخصصا بالفنون الجميلة لها ، ولا يزال يمارس الرسم فى اوقات فراغه ..

طعم الحياة

تسكن عائلة لو تيان جياو فى شقة متكونة من حجرتين فى حى تشونغون ببكين . وقد رأينا فى ردهة المدخل ثلاجة ورفا صغيرا للكتب تسد نصف المدخل الى دورة المياه . والابن يقيم فى الحجرة الكبيرة المجهزة بأثاث حديث الطراز استعدادا لزواجه . والوالدان يقيمان فى الحجرة الصغيرة . وقد رتبتها لو تيان جياو ترتيبا محكما على الرغم من صغرها . والى جانب السرير طاولة للكتابة وبعض الكراسى . ان البيت ليس فاخرا من حيث محتوياته ، ولكن كل ما فيه مرتب متناسق فى الشكل واللون . ان غطاء السرير وغطاء التلفزيون وستارة رف الكتب قد تمت خياطتها على يد لو تيان جياو ، ووسائد الاريكة المربعة والمستديرة والمسدسة صممتها كذلك فى فترة نقاهتها مستغلة الملابس القديمة لابنها حين كان صغيرا . وعلى الرفوف كثير من الدمى التى صنعتها من زجاجات الادوية والماكياج وخرق الاقمشة .

لقد ارتنا لو تيان جياو حين دخلنا بيتها ما صنعته من الدمى الجديدة ، وقالت : " انظروا الى هذه الدمى ، ما رأيكم فى عملى هذا ؟ ان الجمال متوفر فى مختلف مجالات الحياة . فلماذا لا يزيد المرء حياته جمالا حتى تكون ممتعة متعددة الالوان ؟ "

اعجبنا كثيرا بموقفها من الحياة ومزاجها السامى المتمثل فى ايجابيتها وتفاؤلها وتطلعاتها الى العلاء ، وكان بدهيا ان تحدثنا عن المعيشة والصداقة والتطلعات وحياة الانسان . وقد طال بنا الحديث

الى ان ارخى الليل سدوله فاضطررنا عند ذلك الى اختتامه .

وعند مغادرتنا اهدت الينا لو تيان جياو مقالة كتبتها قبل سنتين من اجل تبادل التشجيع .

وقد جاء فيها : " ان العشبة الصغيرة ليست فى الحقيقة محببة الى الانسان كالزهرة ، ولكنها على كل حال تزود الحياة بالخضرة ، وتجلب الحيوية الى الطبيعة ، وعندما تكتسى الارض كلها باعشاب صغيرة ، يحس الانسان بحيوية الربيع ومتعة الصيف ورونق للخريف . وهذا ما يحتاج اليه الانسان .

ان الحجر يبدو عديم النفع ، ولكنه ذو قيمة ، وقيمته تكمن فى رقوده الساكن على الارض لتعبيد الطريق للانسان . وهناك الآلاف المؤلفة من امثاله ترقد على الارض هادئة ساكنة . وعندما تعبد الطرق ، ويمر عليها الانسان والعربات ، تتحمل هذه الاحجار الضغوط الثقيلة فوقها طوعا واختيارا دون ان تطمع بشىء مقابل ذلك . وهذه قيمة للحجر لا تقدر . وانى لشغوفة بهذه الاخلاقية التى تتحلى بها حجارة الطريق .

فى مسيرة حياة الانسان اود ان اكون عشبة او حجرا ، اكافح واتحمل فى صمت كما اسلم بدورى تاما . "

ما اروع هذه الاقوال التى وضحت لنا ميزات شخصية لو تيان جياو !

اسطورة سا بن ماو التى
ربطت قلبها بالبحار والسفن

أستهل قصة سا بن ماو بعدة اسطر عن سا تشن بينغ شقيق جدها . لقد درس سا تشن بينغ علم الملاحة البحرية وعلوما اخرى فى معهد البحرية الملكى فى غرينتش فى بريطانيا فى اول دفعة من الطلبة الصينيين يوفدهم سلاح البحرية الصينية الى خارج البلاد . ثم اشتغل بعد تخرجه مدربا فى معهد البحرية فى تيانجين . وفى الحرب البحرية الصينية اليابانية (١٨٩٤ — ١٨٩٥ م) انهارت القوات البحرية لامراء الحرب الشماليين التى بذل بالغ جهوده فى بنائها انهيارا تاما ، وعندما رأى هذه المصيبة فكر فى الانتحار . ولكنه عاد يأمل فى ان تبنى القوات البحرية الصينية من جديد . وقد ورثت سا بن ماو حفيدة اخيه هذا الامل الذى لم يتحقق قبل وفاته ، ووقفت كل جهودها على بناء بحرية قوية فى الصين الجديدة .

لسا بن ماو كثير من الالقاب المشرفة مثل " عاملة متقدمة فى مجال العلوم والتكنولوجيا على نطاق البلاد " و" شيوعية نموذجية مخلصة لقضية البحرية " و" شخصية متقدمة فى اوساط النساء على نطاق الجيش " و" نموذجية فى العمل على نطاق البلاد والجيش "

و"حاملة راية النساء على نطاق البلاد" . ولكن الذى لفت نظرى هو ليس هذه الالقاب المشرفة ، وانما سيرتها الاسطورية ، فيقال ان حياتها مثل سفينة تمخر عباب الامواج بلا توقف فى بحر القضية المنشودة تجسيدا لمغزى الحياة .

حياة التشرد فى ايام الطفولة

ولدت سا بن ماو عام ١٩٢٤ فى مدينة جينان بمقاطعة شاندونغ ، وابوها موظف عادى فى السكك الحديدية . وبسبب كثرة تنقل ابيها فضلا عن اضطرابات الحرب اصبحت عائلتها دائمة التنقل من مكان الى آخر ، واضطرت الام مع اولادها الكثر الى التشرد هنا وهناك بحثا عن ملاذ . فلجأوا الى تشينغداو وجيولونغ وشانغهاى على التوالى ، واستوطنوا اخيرا فى فوتشو موطنهم الاصلى . وهكذا كانت العائلة مثل سفينة تتقاذفها الامواج فى خضم البحر . عاشت سا بن ماو فى طفولتها عيشة تشرد . وقد تلقت التعليم الابتدائى فى تشينغداو والتعليم الاعدادى والثانوى فى شانغهاى . ومع بلوغها سن الرشد انتهت حياة التشرد . ما المخرج امامها وقد بلغت الثامنة عشرة من العمر ؟ ذات يوم اتاها والدها بشاب محاولا تزويجها منه ، فرفضت ذلك رفضا قاطعا لأنها لا تريد ان تسلك الطريق القديم الذى سلكته الفتيات الاخريات ، وانما تريد مواصلة الدراسة وتعلم التكنولوجيا معتقدة انها بذلك فقط تستطيع الاعتماد على النفس والاسهام فى انقاذ الوطن . وفى عام ١٩٤٦ التحقت عبر الامتحان بكلية الكيمياء فى معهد هوانان

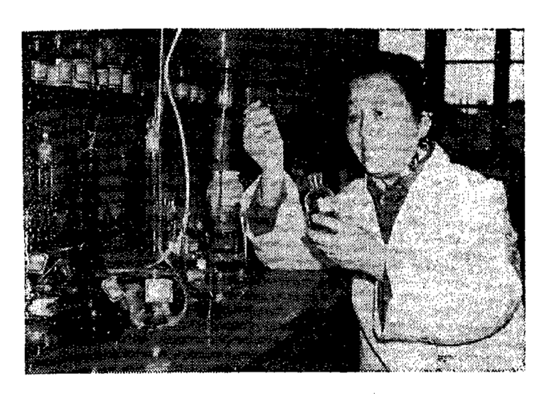
للآداب والعلوم الخاص بالطالبات بمقاطعة فوجيان ، وكانت هذه خطوة هامة فى مسيرة حياتها . لقد قال الكاتب المسرحى النرويجى ابسن : " ان المجتمع مثل سفينة ، وعلى كل امرئ ان يكون مستعدا لادارة دفتها . " وهكذا فعلت سا بن ماو التى رفضت الخضوع وتحكمت بجرأة بسفينة حياتها .

امام " عاصفة هاتراس "

فى عام ١٩٥٢ جاءت سا بن ماو الى شانغهاى متدفقة الحماسة ، واشتغلت فنية فى مصنع تيانيوان للكيمياء . وحينذاك اشتعلت نيران الحرب فى كوريا ، واستعدت بواخر الوطن الضخمة للاقلاع . ولكن مصابيح الاشارة الطافية على الخط الملاحى كانت تتعرض لخطر الانقطاع ، فالمصابيح فى المياه الساحلية ومياه الانهار توقد يومها بغاز الاسيتيلين ، ومصنع تيانيوان للكيمياء مهدد بانقطاع التموين بالمواد المستوردة من الخارج مما سيؤدى الى وقف انتاج الاسيتيلين فى المصنع .

وفى هذه الظروف العصيبة توجه بو شى ون نائب مدير دائرة مسح الخطوط البحرية التابعة لقيادة البحرية من بكين الى شانغهاى لبحث انتاج المستحضر الكيماوى اللازم لتنقية غاز الاسيتيلين .

كانت سا بن ماو التى مضى عليها حينذاك سنتان فى الاختبارات الكيماوية تعرف جيدا مدى صعوبة انتاج هذا السائل المنقى . لكنها بادرت بحزم الى الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة . فبدأت على الفور



سا بن ماو

تبحث وتجرب فى صمت متخذة معمل الاختبار بيتا ، تعمل فيه وتبيت فيه كذلك .

ان انتاج غاز الاسيتيلين يحتاج اولا الى كربيد الكلسيوم . ونظرا لعدم نقاء كربيد الكلسيوم المنتج محليا فان غاز الاسيتيلين الناتج عنه لم يكن بالنقاء المطلوب ، فاشعاله مدة قصيرة يؤدى الى انسداد فوهات المصابيح . ومن اجل حل هذه المشكلة يجب استخراج مستحضر كيماوى لتنقية الاسيتيلين ، وبعبارة اخرى ايجاد حفاز لتحليل المواد الغريبة فى الاسيتيلين عن طريق التفاعل الكيماوى . لذلك قرأت سا بن ماو عددا كبيرا من المراجع ، وقامت باختبارات لا تحصى ، وواظبت على البحث ليل نهار باذلة كل وقتها فى اجراء الاختبارات على حساب راحتها .

وذات مرة تذكرت العاصفة البحرية الكبرى المشهورة فى تاريخ الحوادث البحرية فى العالم . ففى هذه العاصفة تحطمت منارة هاتراس ، مما جعل السفن تضل اتجاهها ليلا فى البحر الشاسع ، وتصطدم ببعضها بعضا وتغرق . والآن يبدو لها ان حدود للوطن البحرية ستواجه عاصفة مثل " عاصفة هاتراس " تهب على مصابيح الاشارة الطافية . ولم تجرؤ على مواصلة هذا التصور ، فهى لا تسمح ابدا بوقوع حوادث مؤلمة على غرار حادثة هاتراس مرة اخرى فى مياه الوطن . ولذلك واصلت جهودها الدؤوبة . وفى آخر الامر توصلت من ابحاثها العلمية الى وضع اكثر من ٥٠ وصفة لتركيب المستحضر الكيماوى المذكور ، وقامت باختبارها واحدة تلو الاخرى .

ان الاسيتيلين مركب كيماوى غير ثابت وسهل الانفجار . وفيما كانت تقوم بالاختبار ذات يوم انفجر فجأة انبوب الاختبار فى يدها ، واصيبت بجرح لم يكن لحسن حظها بليغا . ونصحها الزملاء بوقف الاختبار قائلين : " انت فتاة غير متزوجة ، ولو اصابك تشويه ، فان ذلك سيحول دون زواجك ! " فردت سا بن ماو على هذه النصيحة بابتسامة ، واستمرت فى اختباراتها . واخيرا اختارت من الخمسين وصفة ثلاث وصفات لتجرى عليها المزيد من الاختبارات .

ولاجراء مقارنة بين نتائج هذه الوصفات الثلاث نقلت سا بن ماو ثلاثة من المصابيح المعنية الى معمل الاختبار ، ولازمتها ليل نهار . وكلما وجدت هذه المصابيح تشع بنورها ، غمرها سرور عظيم . انها تدرك جيدا ان استمرار اشتعال الاسيتيلين فى هذه المصابيح يعنى نقاوة هذا الغاز ، ويدل بالتالى على اقتراب النجاح فى استخراج المستحضر

الكيماوى اللازم لتنقية الاسيتيلين . وقد استمر النور فى احد هذه المصابيح الثلاثة مدة ثلاثة اشهر حتى اشتعل الاسيتيلين عن آخره ، وظلت فوهة المصباح سليمة ، ولم يتلوث داخل المصباح . لقد حققت سا بن ماو النجاح النهائى فى بحوثها العلمية لصنع المستحضر اللازم لتنقية الاسيتيلين . وتم اخضاع " عاصفة هاتراس " بفضل النجاح فى ادامة مصابيح الاشارة الطافية فى مياه الصين الاقليمية . فتوجه بو شى ون من بكين الى شانغهاى مرة اخرى لتهنئة سا بن ماو خصيصا ومكافأتها ، وقال : " ان المستحضر الكيماوى لتنقية الاسيتيلين يتلألأ بأنوار النشاط والحيوية لشابة تعمل فى مجال العلوم والتكنولوجيا . "

مشكلة جديدة بعد حادثة الانفجار

فى اغسطس ١٩٥٩ انفجرت احدى اسطوانات الاسيتيلين فى مدينة تشينغداو ، مما ادى الى مصرع من كانوا هناك . فقامت سا بن ماو وخبراء آخرون بتحقيقات دقيقة فى موقع الحادثة بناء على دعوة وجهت اليهم من الدائرة المعنية . فتوصلوا الى رأى موحد يقول بأن السبب الاساسى فى الانفجار يرجع الى ان مواد تجزئة العناصر الاسيتيلينية فى داخل هذه الاسطوانة المصنوعة فى فرنسا فى العشرينات قد فقدت فعاليتها بمرور الزمن على استخدامها . ولم يمض وقت طويل على هذه الحادثة حتى وقعت حادثة اخرى ، اذ انفجرت اسطوانة الاسيتيلين فى المصنع الذى تعمل فيه سا بن ماو . وجرت تحقيقات جادة كذلك ، والنتيجة واحدة . فسبب الانفجار ان الاسطوانة

تم انتاجها فى بريطانيا عام ١٩٣٦ ، وان مواد تجزئة العناصر الاسيتيلينية قد فقدت فعاليتها مع مرور الزمن . وهذا الانفجار ذكر سا بن ماو بأن هناك على امتداد الحدود البحرية الطويلة ما يقرب من الف اسطوانة قديمة ايضا ، وهذا يعنى انها مثل القنابل الموقوتة المزروعة هناك ، ستنفجر فى وقت من الاوقات . وعندما فكرت فى هذا الامر تصبب جبينها عرقا ، وكتبت على الفور تقريرا لادارة المصنع اقترحت فيه وقف استخدام جميع اسطوانات الاسيتيلين القديمة الطراز على الفور واتخاذ الاجراءات اللازمة لحل المشكلة .

كانت سا بن ماو تعرف بوضوح انه مع تطور البناء الاقتصادى وتطور صناعة الدفاع الوطنى سيزداد احتياج البلاد الى غاز الاسيتيلين الذى يدعى ام الصناعة مع مر الايام ، لذا اصبح العمل على انتاج اسطوانات الاسيتيلين مهمة عاجلة . كما تعرف بوضوح ان انتاج اسطوانات الاسيتيلين مع عدم المعلومات والخبرات امر صعب جدا ، والاشد صعوبة هو ايجاد مواد تجزئة العناصر الاسيتيلينية الملائمة .

ومن اجل ايجاد هذه المواد الملائمة بدأت سا بن ماو بحثا علميا جديدا . وعندما لم تجد الجواب من مختلف المراجع والخبراء داخل البلاد وخارجها ، فكت احدى اسطوانات الاسيتيلين المستوردة حديثا لتحليلها ، ولكنها لم تجد الجواب ايضا لأنها وجدت الاسطوانة جوفاء خالية من مواد تجزئة العناصر الاسيتيلينية فواصلت بحثها بين الاسطوانات القديمة المهملة المكدسة كالتلال ، الفرنسية منها او البريطانية او الالمانية او السوفياتية . وفكتها واحدة واحدة واخرجت منها مواد تجزئة العناصر الاسيتيلينية وقامت بتحليلها . فاكتشفت ان

تلك المواد تنتمى جميعا الى المواد المسامية ، وتعزل ثقيباتها جزيئات الاسيتيلين عن بعضها بعضا . وهكذا توصلت الى الحقيقة . وكانت الخطوة التالية هى اختيار المادة البديلة المناسبة انطلاقا من ظروف البلاد . فالحرير الصخرى (الاسبست) غير مناسب لأنه غالى الثمن والقابوق هو الآخر غير مناسب لأن مكان انتاجه بعيد ، اما الكربون المنشط فهو المادة الوحيدة المناسبة لاستخدامها فى الاسطوانات المطلوبة . فقامت سا بن ماو هى والعمال بتجارب متكررة متحدين خطر الانفجار ، ونجحوا فى صنع اول اسطوانة اسيتيلين فى الصين . وكانت سا بن ماو حينذاك فى الثالثة والثلاثين من عمرها . وقد اثمرت اعمالها ، ولكن شبابها مضى دون حب .

نقلت اسطوانات الاسيتيلين الصينية الصنع الى مختلف نواحى البلاد . وعزمت الدولة على اتخاذ المعيار التكنولوجى لصنع هذه الاسطوانات مقياسا ثابتا ، لذا فكرت سا بن ماو فى الموضوع من جديد ، ولاحظت ان من الضرورى اجراء اختبار أمنى قبل تحديد المقياس الثابت . ووفقا للمنطق العلمى المحكم يحتم ان تجتاز المنتجات الخطرة مثل اسطوانات الاسيتيلين مختلف الفحوص والتقييمات والاختبارات الامنية قبل انتاجها ، ولكن انطلاقا من الحاجة الملحة جرى الامر بالعكس . ان هذه المواد الجديدة لم يسبق لها مثيل فى الصين ، ولذا لم تكن هناك وسيلة لاختبارها امنيا . فما العمل اذن ؟ رأت سا بن ماو ان عدم اجراء الاختبار الامنى قبل انتاجها امر يدعو الى القلق ، ناهيك عن اتخاذ معيارها التكنولوجى مقياسا ثابتا دون اختبار امنى ايضا . فشرعت هى وزملاؤها فى القيام بتصميمات ودراسات

متكررة بكل جهد جهيد ، ونجحوا اخيرا فى ايجاد وسيلة للاختبار .

انتهت التجارب المختلفة ، واجتازت الاسطوانات جميع الاختبارات وخاصة الاختبارات المتعلقة بالاخطار القصوى الخيالية التى لا تكاد تحدث فى الواقع . وبعد هذا اطمأنت سا بن ماو على امن هذاه الاسطوانات .

فى سبيل اقلاع السفينة

حلت الكوارث الطبيعية والمحن بأرض الصين فى احد فصول الشتاء بأوائل الستينات — اصعب شتاء مر على الصين . ففى ذلك الوقت سحب الاتحاد السوفياتى جميع خبرائه من الصين ، وألغى جميع عقود التموين بالمواد الهامة بما فيها المحور الذيلى للسفن الحربية ، وهو فولاذى غير قابل للصدأ . يعتبر المحور الذيلى جزءا هاما بين معدات السفينة ، يربط بين محركها الرئيسى وروحتها ، ويقوم بنقل القوة الدافعة ، لكنه يتعرض للتأكل وسط المياه البحرية . وكانت الصين فى ذلك الحين لا تقدر على انتاج الفولاذ غير القابل للصدأ ، واستيراده من الخارج امر مرفوض . فحز ذلك فى فؤاد سا بن ماو ، لأن السفينة الحربية بغير المحور الذيلى ليس لها قيمة . ومن اجل ذلك اضطلعت سا بن ماو بمهمة جديدة ، فأخذت تجرى بحثا علميا تهدف منه الى ايجاد بديل للفولاذ غير القابل للصدأ . وصعدت هى وزملاؤها السفينة لدراسة المحور الذيلى من مختلف نواحيه ، ثم قرروا بجرأة استخدام البلاستيك المقوى المصنوع من

الالياف الزجاجية لصنع المحور الذيلى بدلا من الفولاذ غير القابل للصدأ . ولكنهم بحاجة الى لزاق قوى . ومن اجل تركيب هذا اللزاق وضعت سا بن ماو كثيرا من طرق التركيب ، وقامت بتجارب متكررة برغم ان بعض مواد التركيب سامة ، تلحق اضرارا بصحة الانسان .

كانت امها قلقة على زواجها وقد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها . لذلك راحت تحثها مرارا وتكرارا على الاهتمام بأمر زواجها ، ولكنها قالت لوالدتها ببالغ الصدق : " ان الذى يقلق بالى فى الوقت الحاضر ليس البحث عن خطيب ، وانما البحث عن لزاق قوى ممتاز . "

وبعد ثلاثة اشهر من العمل المضنى حلت مشكلة اللزاق القوى ، واعقبت ذلك مشكلة اخرى هى تلبيس المحور الذيلى بطبقة من البلاستيك المقوى المصنوع من الالياف الزجاجية . فقامت سا بن ماو مع زملائها بعشرات التجارب الصغيرة والكبيرة ، ونجحوا اخيرا فى صنع اول محور ذيلى ملبس بطبقة من البلاستيك المقوى . وهذا المحور الذيلى من الفولاذ الكربونى العادى الملبس بطبقة من البلاستيك المقوى يمكن استخدامه اكثر من ١٠ سنوات دون اى تلف ، اما المحور الذيلى المصنوع من الفولاذ غير القابل للصدأ والمستورد والغالى الثمن فيصل عمق تقعره الناتج عن التأكل الى ٦ ملميترات بعد سنة ونصف السنة من استخدامه ، ويصبح غير صالح للاستخدام . واثار هذا النجاح فى تلبيس المحور الذيلى للسفن بطبقة من البلاستيك المقوى ضجة كبيرة فى اوساط صناعة السفن ، واعتبر اختراعا صينيا ، مما سجل صفحة خالدة فى تاريخ بناء السفن فى الصين وفى العالم ايضا . ولم يقتصر هذا الاختراع على تمكين السفن الصينية من الاقلاع ،

بل اجتاز حدود الصين ، وصدر حتى الى الدول التى سبق ان رفضت تصدير منتجاتها مثل المحور الذيلى الى الصين .

وفى مارس ١٩٧٨ فازت سا بن ماو فى المؤتمر الوطنى للعلوم بثلاث جوائز لمكتسبات العلوم والتكنولوجيا الكبرى على نطاق البلاد . الجائزة الاولى للمستحضر الكيماوى الخاص بتنقية غاز الاسيتيلين ، والثانية لمواد الكربون المنشط المستخدمة داخل اسطوانة الاسيتيلين ، والثالثة لتلبيس المحور الذيلى للسفن بطبقة من البلاستيك المقوى . وحين تسلمت سا بن ماو شهادات الاستحقاق من ايدى قادة الدولة على المنصة ، نظر اليها بو شى ون من بين الحاضرين وتمتم لنفسه : " فى تلك السنوات السابقة كانت فتاة نشيطة فى ريعان شبابها . واليوم صارت شائبة الصدغين . . . ان ثمار اختراعاتها يانعة ساطعة ، فجميع مراوح السفن فى الصين مدينة لمكتسباتها العلمية . لقد وهبت شبابها لقضية العلوم والتكنولوجيا . "

السير قدما فى وجه الريح المعاكسة

سا بن ماو ظريفة ولطيفة ، لكنها فى الوقت نفسه جريئة قوية الارادة رابطة الجأش . لقد ظلت سفينة حياتها تسير الى الامام فى الرياح المؤاتية والمعاكسة ، ولم تتراجع ابدا امام العواصف على اختلاف انواعها . لقد انتصرت فى كل اعمالها وبحوثها العلمية ، وتغلبت على جميع العقابات ، فكيف كانت امام العاصفة السياسية ؟

فى تلك السنوات العشر للاضطرابات السياسية تحولت سا بن ماو

فى ليلة واحدة من عاملة متقدمة خلال عدة سنوات متتالية الى " خبيرة رجعية نموذجية " . ومنذ ذلك الوقت نزعت منها الشهرة والاعتبار والحقوق ، واجريت لها حملات دحض وتنديد ، وطولبت بكتابة نقد ذاتى واعتراف باشتراكها فى فصول التوعية . عندها تبدل لطفها وظرافتها الى عزيمة حديدية ، ففندت بكل ثقة بالنفس مزاعم هؤلاء الذين طلبوا منها الاعتراف وقالت : " ان عملى فى سبيل الوطن وبناء القوات البحرية ليس من الخطأ ابدا . "

وفى تلك السنوات التسع من اصلاح العقل عن طريق العمل الجسمانى ، اشتغلت سا بن ماو عاملة دهانة وعاملة فى صنع البلاستيك المقوى وعاملة تنظيف وعاملة فى مجال الطلاء بالكهرباء ، وقد احسنت فى جميع هذه الاعمال . اما الذى لم تستطع تحمله فهو حرمانها من حق ممارسة البحوث العلمية حيث اجبرت على وقف ابحاثها العلمية فى مختلف المواضيع . وهذا شبيه تماما بتجريد الجندى من سلاحه وسحبه من جبهة القتال ، فانها لم تحتمل ذلك حقا .

وكان العمال يعرفونها ويحسون بما فى قلبها ، فخصصوا لها فى الخفاء مخبأ مساحته متر مربع ، واعدوا لها فيه طاولة مبنية بالطوب والاسمنت لتقوم عليها باختباراتها الكيماوية . واشترت سا بن ماو بنقودها انابيب اختبار واكوابا زجاجية وكواشف كيماوية وغيرها من لوازم الاختبار ، وبدأت تقوم بتجاربها العلمية الجديدة المبسطة خفية فى مثل تلك الظروف .

وذات مرة سمعت سا بن ماو وهى تسير فى منطقة المصنع ، حوارا بين عدة بحارة يشكون فيه من ان مياه الشرب فى سفينتهم رديئة المذاق ،

لها طعم صدأ الحديد . فارتجف قلبها ، وشعرت بالخجل لعجزها
عن تخليص البحارة من مثل هذه المضايقات وهى متخصصة بالكيمياء
التطبيقية . ولذلك انهمكت فى تجربة لصنع طلاء لصهريج للماء
فى السفينة معرضة نفسها لمتاعب نوبات الدوار . وبسبب ما يصدر
عن الطلاء من غاز سام فى اثناء تجربة صنعه تورم وجهها بعد عدة ايام
من انهماكها فى التجربة ، واغمى عليها فى موقع التجربة بعنبر السفينة .
وبتحليل الدم تبين ان الدم فى جسمها لم يعد فى وضعه الطبيعى ،
ومع ذلك لم يسمح لها باجازة مرضية بحجة انها " خبيرة رجعية
نموذجية " . ومن اجل ان تريح البحارة من شرب مياه ممزوجة بصدأ
الحديد ، تغاضت عن مصلحتها الشخصية ، وواظبت على تجربتها
حتى احرزت النجاح .

ومرة ثانية توجه ضابطان فى القوات البحرية الى شانغهاى قادمين
من مقاطعة شاندونغ ، وقابلا سا بن ماو فى معمل اختبارها الخفى ،
وطلبا منها المساعدة فى ايجاد حل لمشكلة الطلاء المقاوم للتأكل
لجهاز المراسلة تحت المياه ، فقبلت هذا الطلب بلا تردد .

ونجحت سا بن ماو كذلك فى بحثها العلمى لصنع هذا الطلاء ،
وقامت دائرة معنية فى اكاديمية العلوم الصينية بتقييم هذا الجهاز
المطلى بهذا الطلاء ، واعتبرته افضل من نظيره فى خارج البلاد من
حيث الحساسية ومقاومة التأكل ووظيفة العزل . وقد دلت تجربة استخدامه
بعد تركيبه فى السفن على ان مسافة تفاعل الموجات الكهربائية الصوتية
لهذا الجهاز للمراسلة تحت المياه اطول بأربعة اضعاف مما لنظيره
فى الدول المتقدمة .

وهكذا انجزت سا بن ماو بحوثها العلمية بنجاح فى اكثر من ٢٠ موضوعا خلال تلك السنوات التسع ، تحت حماية العمال ومساعدتهم .

يبدو ان سا بن ماو قادرة على ترويض للرياح المعاكسة ، فعندما توقفت الدروس المدرسية من اجل القيام بـ " الثورة الثقافية " ، نظمت سا بن ماو للعمال فصلا دراسيا للكيمياء . ففى الفترة ما بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٦ بذرت كثيرا من بذور معارف الكيمياء بين العمال متحدية الاخطار . ودرس العمال فى هذا الفصل المواد الدراسية التى ألفتها سا بن ماو ، واستمعوا الى محاضراتها واجتازوا الامتحانات النظامية التى اشرفت عليها . وشكلوا بعد ذلك العمود الفقرى فى الانتاج ، واصبح بعضهم مساعدا لسا بن ماو . وهذا يعتبر ضربا من الاسطورة فى ذلك الحين .

لقد بذلت سا بن ماو كل مساعيها فى سبيل العلم وبناء للبحرية ، ويمكن القول بأن كل جزء من اجزاء السفينة الحربية يرتبط بثمار عملها المضنى .

مصدر الثروات الثابت

قال بعض الناس بأن سا بن ماو مصدر ثروات ثابت ، وانها قد نذرت نفسها لبناء الدفاع الوطنى . ففى عام ١٩٧٩ كان بوسعها ان تتقاعد وفقا لقانون التقاعد ، اذ انها حققت نجاحا فى بحوثها العلمية فى ٥٢ موضوعا خلال ٣٠ سنة . ولكن سفينة حياتها لم تدخل الخليج الهادئ ، ولم ترس على بر الشيخوخة . فلا تزال تعمل وتقوم

ببحوثها العلمية . وقد نالت معارفها وخبراتها ومهاراتها حظوة عند الناس ، فقال بعضهم : " انها بكلمة واحدة انقذت مصنعا من افلاسه . " وهناك من اقاموا لها الولائم التكريمية ، او كتبوا اليها رسائل ، او نزلوا فى بيتها مرارا طالبين منها العمل لديهم ولكنها رفضت تلك الدعوات واحدة بعد واحدة . وما زالت سا بن ماو التى قد تجاوزت الستين من عمرها الآن تبذل جهودها يوميا فى سبيل تحقيق عصرنة الدفاع الوطنى . لقد عملت ٩ سنوات اخرى بعد بلوغها سن التقاعد عام ١٩٧٩ ، وحققت فيها النجاح فى ١٣ موضوعا على رأس فرق من الباحثين ، وحققوا للدولة ثروات تبلغ قيمتها الاقتصادية ملايين اليوانات .

الحب المتأخر

لعلكم تتساءلون : " هل حظيت سا بن ماو بالحب العاطفى ؟ هل وصلت سفينة حياتها شاطئ السعادة العائلية ؟ " لقد وصلت سفينتها شاطئ السعادة العائلية حقا ، ولكن فى وقت متأخر جدا بالنسبة للآخرين .

اننا مطمئنون تماما لنجاح سا بن ماو فى عملها وتحقيقها المنجزات الباهرة ، ولكننا قلقون على حياتها الشخصية . ستكون حياتها مفعمة بالسعادة اذا هى كانت مقترنة بزوج طيب ولديهما ولد محبوب . وفى احد امسيات الربيع نزلنا بيتها حاملين هذه الفكرة .

وما ان دلفنا الى الداخل حتى وجدنا على مائدة الاكل اربعة اطقم من ادوات الاكل ، وسمعنا صوت موسيقا خفيفة عذبة تنبعث فى

اركان البيت . وكانت سا بن ماو مشغولة باعداد العشاء . فرحب بنا رجل كهل ترحيبا حارا . فقدرنا انه زوجها ، ولكن اين ارلادهما ؟ فادوات الاكل على المائدة تشير الى ان هناك اثنين من الاولاد . تريثت ، فلم اسألها عن ذلك . وكان اول ما قالته لنا : " ادعوكما لتناول طعام موطنى الذى طبخته بنفسى . " ثم عرفتنا بزوجها قائلة : " انه زوجى ، واسمه لين بينغ روى . " عندها تذكرت ان سا بن ماو سبق ان دعتنا فى المكالمة التلفونية الى تناول العشاء معها . ولكنا تناولنا العشاء قبل ذهابنا الى بيتها حرصا على عدم اتعابها ، فما العمل ؟ امام حماستها البالغة فى استضافتنا لم نجد مفرا من تناول العشاء معها مرة اخرى . ومن هنا ادركت ان تلك الاطقم الاربعة من ادوات الاكل قد اعدت لنا نحن الاثنين اضافة اليهما . وفكرت فى نفسى : اليوم نهاية الاسبوع ، لماذا لن يعد الاولاد الى البيت ؟ هل تعمدوا تجنب مقابلتنا الصحفية ؟ ولم اطرح بالطبع هذا السؤال على الزوجين .

سا بن ماو ظريفة لطيفة حقا ورزينة فى تصرفاتها ومتحفظة فى ابداء الرأى كذلك من وجهة نظرها شخصيا . اما زوجها فهو صريح مدقق ، جسور ، غير متكلف ، وقد تحدث معنا بكل حماسة وثقة بالنفس . لم تحدثنا سا بن ماو عن حبها المتأخر شيئا يذكر ، وانما تحدث معنا زوجها فقال :

– حين تزوجنا كانت سا بن ماو فى الواحدة والاربعين من عمرها ، وكنت اصغرها بعشر سنوات تقريبا . كيف احببتها ؟ بعد مجيئى الى المصنع لاحظت انها قد وهبت شبابها للوطن وانصرفت للبحوث العلمية ، فاحترمت فيها هذه الهمة ، واعجبت بها كل الاعجاب ،

وبدأ هذا الشعور يتحول الى حب مع مر الايام . وعندما ابديت لها عواطفى نحوها ، طلبت منى برصانة وهدوء ان افكر فى الموضوع بترو وقالت : " انا اكبر منك سنا ، وسأبلغ سن الشيخوخة قبلك وأشيب قبلك " . وكنت ادرك جيدا انى لست متهورا ، فأبديت لها رغبتى فى ان اكون صديقا غير عادى لها ، ولم يكن ذلك وليد تعجل ، وانما فكرة قائمة على التروى . واعتقد ان جمال شكل الانسان لا يدوم بينما جمال نفسه جمال فعلى دائم لا يذبل . ان التى وقع اختيارى عليها تتحلى بهذا الجمال الداخلى ، وسيدوم شبابها الفكرى والنفسى والحيوى . وبعد عامين آخرين من التفاهم والتفكير اقتنعت سا بن ماو بأن مشاعرى نحوها ليست قائمة على الشفقة ، وانما هى حب عفيف صادق ، فوافقت على الاقتران بى . وتزوجنا عام ١٩٦٥ ، وذاع الخبر بسرعة داخل المصنع . وصار موضوعا رئيسيا لاحاديث الناس وتعليقاتهم . فقال بعضهم : " ان هدفى الحقيقى هو الحصول على اموالها ومسكنها الفاخر ." وعندما زاروا مسكننا الضيق الذى تقل مساحته عن ٧ امتار مربعة ، ورأوا بداخله سريرا ثنائيا وخزانتين صغيرتين تابعتين للسرير ومكتبا ، وليس هناك اشياء اخرى تلفت الانظار ، ادركوا امام هذا الواقع ان زواجى لم يكن بدافع الطمع ، وانما بدافع حبى لسا بن ماو الطيبة .

واعتقد بعضهم ان زواجنا لا يتفق مع نمط الزواج التقليدى فى الصين ، ولكنهم غيروا هذا الرأى مع تعاقب السنين ، واعترفوا بأننا زوجان سعيدان حقا ، نعيش عيشة سعيدة يسودها الانسجام والوفاق فى جميع امورنا . ولذلك اختيرت عائلتنا عدة مرات لتكون عائلة نموذجية .

اننا حين تزوجنا لم نشتر ادوات واجهزة كهربائية منزلية ولا اثاثا فاخرا ، كما لم نفصل ملابس جديدة بمناسبة الزواج ولم نأخذ اجازة زواج . وكان زواجنا فى غاية البساطة ، اذ تم بمجرد تسجيله فى الدائرة الحكومية المعنية واعلان الخبر على الملأ . ففى نظرنا ان المثل الاعلى اهم من كل شيء . اننا من اصحاب التفاؤل ، وحتى فى تلك السنوات التسع من اصلاح العقل عن طريق العمل الجسمانى لم نكن يائسين ، بل كنا نرى ان العمل فى موقع الانتاج يتيح للمشتغلين فى مجال العلوم الفرص لاكتشاف المشكلات وايجاد الوسائل لتسويتها ، وهذا هو واجبهم المقدس . ولقد قالت لى سا بن ماو قبل ذلك : "يجب الا نسعى وراء مصلحتنا الشخصية ، بل علينا ان نسعى جاهدين وراء مصلحة الشعب ."

بيتنا منخفض ضيق المساحة اضافة الى انه فى اعلى المبنى ، لذلك يشبه ثلاجة فى الشتاء وفرنا فى الصيف . لكننا نعيش فى هذا البيت منذ سنين طويلة . وفيه كتبت سا بن ماو ما يقرب من ستين بحثا علميا او وثيقة تقنية . صحيح ان ظروفنا السكنية قاسية مرة ، لكن عواطفنا المتبادلة حلوة كالعسل .

ذات يوم من عام ١٩٦٥ جاء لزيارتنا فى هذا البيت البسيط خال سا بن ماو ، وكان يقيم خارج الصين . وعندما وجد حياتنا بهذه البساطة نصحنا بمرافقته الى خارج البلاد قائلا : "هنالك مساكن مريحة ومعامل اختبارات مرضية واموال كثيرة ومعيشة رغيدة . ." فرفضت سا بن ماو دعوته هذه رفضا مهذبا ، وهى تعرف كل المعرفة ان امثالها فى الخارج يكسبون اموالا كثيرة . وعندما نجحت فى تلبيس

المحور الذيلى للسفينة بطبقة من البلاستيك المقوى قال لها بعضهم : " لو كنت خارج البلاد لعشت طول حياتك على براءة هذا الاختراع وحده ." ولكن سا بن ماو لا تفكر فى ذلك ، ولقد قالت لخالها : " ان فى الدينا ما هو اثمن من المال ، الا وهو المثل الاعلى والعقيدة " .

لم تتأثر حياتنا العائلية بما حدث بعد زواجنا من نكسات واضطرابات اجتماعية ، بل على العكس تصدينا معا لهجمات العواصف . فخلال " الثورة الثقافية " كانت سا بن ماو تدرس العمال معارف الكيمياء فى صف دراسى نظمته بنفسها ، وكانت تجرب التدريس بتعليمى قبل القاء المحاضرات الرسمية . وهنا دخلت سا بن ماو ، وقاطعت حديثنا قائلة : " ان نجاحى فى انجاز الابحاث العلمية خلال اضطرابات ' الثورة الثقافية ' التى استمرت عشر سنوات مرتبط كل الارتباط بتأييد زوجى لين بينغ روى . وعند تدريس العمال معارف الكيمياء كان زوجى مساعدا لى فى تأليف لوازم الدروس واول مستمع لدروسى . ونتيجة لتعمق التفاهم فيما بيننا اشتدت عواطف كل منا تجاه الآخر واصبحت قوية عميقة كما هى عليه اليوم ."

الصدر الواسع سعة البحر

هناك لدى سا بن ماو ٦٣٦ ايصالا نقديا ، فما امر هذه الايصالات؟

قال لين بينغ روى فى اعجاب : " قبل زواجنا كان على سا بن ماو ان تعول اسرتها المكونة من والدتها واربعة اخوة صغار . وكانت جميع مصروفاتهم الخاصة بالطعام والسكن والعلاج الطبى والرسوم المدرسية

تدفع من راتبها وحدها . لذلك كانت معيشتهم معيشة كفاف عسيرة ، تديرها الوالدة بتدبير محكم . وذات يوم من عام ١٩٥٥ تسلمت سا بن ماو رسالة من ارملة عجوز كانت جارة لهم فى مسقط رأسها . وفى رسالتها تشكو من حياتها البائسة ، وقد ظلت وحيدة ، فتألمت سا بن ماو لوضع هذه العجوز ، وكتبت اليها مواسية . ولكنها ظلت منقبضة الصدر ، تشعر ان العجوز تنتظر منها يد العون . وبعد تشاور مع والدتها قررت مدها بالمساعدة . فكتبت اليها رسالة اخرى تقول فيها : " اعتبارا من هذا الشهر سيصلك بعد منتصف كل شهر مبلغ من النقود بحوالة بريدية ، فاطمئنى ، سنعولك طوال حياتك . " ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة هذه العجوز عام ١٩٨٣ استمر تحويل النقود اليها شهريا دون انقطاع . كما اضطلعت سا بن ماو الى جانب ذلك باعالة عجوز اخرى منقطعة منذ عام ١٩٥٨ .

توفيت العجوز الاولى فى يناير والثانية فى اغسطس من عام ١٩٨٣ على التوالى عن ٨٩ عاما و٨٦ عاما . وعندما تسلمنا برقية عن وفاة العجوز الاولى ارسلنا على الفور آخر مبلغ لنفقة جنازتها . وبناء على وصية هذه العجوز وصلتنا حقيبة جلدية محفوظة جيدا . وتقول الوصية : " ارسلوا هذه الحقيبة الى عزيزتى الوحيدة . " فأهدتها سا بن ماو الى روضة الاطفال لحفظ ملابس الصغار . اما العجوز الثانية فقد اوصلناها بأنفسنا الى المستشفى فى اثناء نزعها الاخير محاولين انقاذها من الموت .

قالت لى زوجتى سا بن ماو : "كان السيد لو شيون ، الاديب الصينى البارز فى القرن العشرين ، يدعو الى اسعاد الآخرين ، اويرى

ان عدم السعادة الشخصية ليس مهما ، وان سعادة الآخرين تحقق البديل عن السعادة الشخصية .' وفى الواقع احسسنا ان فى اسعاد الآخرين تحقيقا لسعادتنا الشخصية .

انى شديد الاعجاب باخلاق سا بن ماو ، ولقد بذلنا جهدا مشتركا من اجل اسعاد الآخرين ، و كنا خلال ذلك نشجع بعضنا بعضا على المضى فى هذا الطريق . لقد جاء حبنا متأخرا ، وكذلك زواجنا ، وحتى الآن لم تنجب ، لكننا ركزنا جهودنا على الابحاث العلمية ، واننا لنرى فى كل ثمرة من ثمارها وليدا لنا ، لذلك لا نشعر بعزلة ولا وحشة . فى الايام العادية ننشغل بالعمل ، وفى نهاية الاسبوع نستمتع بالموسيقى ، وفى يوم الاحد نذهب الى دار الكتب او الى الحدائق العامة او الى السوق لشراء بعض الحاجات اليومية . . ان قصتنا لم تنته بعد ، لأن حياتنا ما زالت مستمرة فى مجراها . "

لقد مضى على مقابلتنا الصحفية هذه زمن طويل ، لكن تلك الاحداث فى حياة سا بن ماو تتراءى امام عينى بين حين وآخر . وبوسعى الآن ان ألخص انطباعاتى عنها بالعبارات التالية :

انها لا تسعى وراء الشهرة ولا المال ، وهذا يتمثل فى بساطة ملابسها وبساطة مسكنها . وكلما سألتها عن ماضيها ، لوحت بيدها وقالت لك بغير اهتمام : "كلها امور جد عادية ، وقد فات وقتها ! "

انها تتحلى بالعزم والثبات ، وهذا يتمثل فى دخولها الحازم فى ميادين العلوم التى تعتبر ميادين خاصة يتوارثها الرجال وفقا للتقاليد القديمة ، كما يتمثل فى منجزاتها فى هذه الميادين . وهى واثقة بأن جميع الامور تتوقف على جهود الانسان .

انها كريمة طيبة القلب ، وهذا يتمثل فى انها انفقت ما يقرب من عشرة آلاف يوان خلال ٢٨ سنة فى سبيل اعالة ارملتين عجوزين لا معيل لهما ، وما تزال محتفظة بايصالات التحويل البالغ عددها ٦٣٦ ايصالا كما يتمثل ايضا فى انها نذرت كل حياتها لاسعاد الآخرين وخدمة الوطن .

انها بصفتها امرأة قد ضحت اكثر مما يضحى الرجل ، ولم تسع وراء المتعة المادية المفرطة ، وهذا يتمثل فيما خلفت من ثمار يانعة فى الحقول التى زرعتها بكل كد ودأب خلال ٣٨ عاما .

انها ربطت قلبها بالبحار والسفن عشرات السنين ، باحثة عن اسرار البحار والسفن ، وما تزال تبحث الى اليوم على الرغم من بلوغها الثانية والستين .

انها مشهورة ذائعة الصيت ، واسمها مدرج فى داخل " قاموس المشاهير الصينيين " الاول من نوعه فى الصين والذى سينشر قريبا .

ليو ده تشين

ـ الطبيبة الممتازة لدى الفلاحين

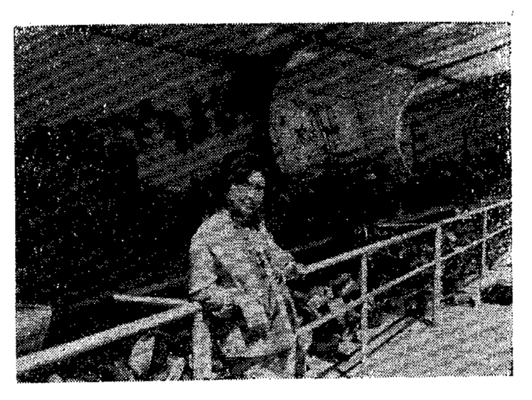
قبل قيام الصين الجديدة كانت ليو ده تشين فتاة مدللة في عائلة غنية في شانغهاي . ولم يخطر ببالها ابدا الالتحاق بالجامعة ، ولكن تأسيس الصين الجديدة غير مصيرها ، وقادها في طريق دراسة الطب وممارسته .

لقد قالت ليو ده تشين : " ولدت في عائلة رأسمالي متوسط في شانغهاي . وقد انحدر والدي من عائلة فقيرة . وعندما بلغ السابعة من عمره توفي جدي ، فبدأ العمل وهو في الثانية عشرة من عمره . وكان متفتح الذهن على الرغم من انخفاض مستواه الثقافي فأصبح في النهاية رأسماليا .

وعندما بلغت بضعة عشر عاما من عمري تم بناء مسكن فاخر على الطراز الغربي لعائلتنا التي تعيش عيشة رغيدة . واولى والدي تعليمنا بالغ الاهتمام ، ولذلك تلقى جميع اشقائي وشقيقاتي تعليمهم الجامعي ما عدا اختي الكبرى التي خصص لها ابي مدرسا ليدرسها فن الاوبرا والعزف على الآلات الموسيقية . وبتأثير هذا التعليم العائلي الخاص

نشأت مولعة بالادب والفن منذ صغرى ، استطيع اداء الغناء الخاص بأوبرا بكين واوبرا شاوشينغ واوبرا هوانغمى ، كما اجيد الرقص . لذلك رأى بعضهم ان من الخطأ ان اكون طبيبة . لكننى احب هذه المهنة لأنها رسالة سامية تهدف الى انقاذ حياة الناس .

فى عام ١٩٥٥ تخرجت فى معهد الطب الثانى فى شانغهاى ، وتم اختيارى الى معهد الطب فى داليان لدراسة الماجستير . ولكننى لم اكمل هذه الدراسة لتوقف معهد طلاب الدراسات العليا عن نشاطه. وفى عام ١٩٥٧ عدت الى شانغهاى لأعمل فى مستشفى رنجى التابع لمعهد الطب الثانى . ومنذ ذلك الوقت بدأت حياتى فى مهنة الطب . "



ليو ده تشين

قبل ٢٢ عاما غادرت شانغهاى لاول مرة حيث الحياة المريحة ،

واتجهت الى الريف الفقير المتأخر ، وتعرضت هنالك لصعوبات كثيرة لا تطاق . وفى ظروف الريف الذى يعانى نقصا شديدا فى الاطباء والادوية احست احساسا عميقا بالقيمة الحقيقية للاطباء .

" فى عام ١٩٦٥ جئت مع فرقة طبية متجولة الى محافظة جينشان فى ضواحى شانغهاى البعيدة ، وكانت الحياة فى هذه المحافظة شاقة مريرة ، وكنا نسكن فى بيوت الفلاحين ، ونتناول الطعام مثلهم ، ونسلك الدروب الموحلة بين الحقول الزراعية ، ونعانى فى عملنا هناك اشد الصعوبات . وكانت المعدات الطبية فى العيادات الريفية فى غاية البساطة ، لا تمكن احيانا من انجاز الاعمال الطبية .

استقبل الفلاحون فرقتنا الطبية بالترحيب الحار ، واخذ يرتاد مقرنا الكثير الكثير من المرضى . ردعينا الى هنا رهناك لمعالجة المرضى ، وشغلنا بذلك من الصباح الى المساء . ولكننا وجدنا متعة فى العمل المضنى وسرورا فى الانشغال الدائم .

وعند مغادرتنا ريف محافظة جينشان بعد انتهاء هذه الجولة الطبية التى استغرقت ٤ اشهر توافد الى مقرنا الكثير من الفلاحين لتوديعنا . ولقد تأثرت بمشاهدة التوديع حتى انهمرت الدموع من عينى . وازددت شعورا بقيمتى الحقيقية ."

لقد هز موت الحاملات قلبها الطيب ، فراحت تفكر من جديد فى طريق حياتها . كان امامها طريقان ، اولهما البقاء فى المستشفى الكبير فى المدينة ، والآخر هو الذهاب الى الريف لخدمة الفلاحين ، فاختارت الطريق الثانى .

وتابعت ليو ده تشين تقول :

" لم يمض وقت طويل على عودتى من للجولة الطبية فى الريف الى مستشفى رنجى فى شانغهاى حتى بدأت القيادة العليا فى قطاع الطب والصحة تدعو العاملين فى مجال الطب والصحة الى التوجه الى الارياف والاقامة فيها . وامام الخيارين المحتملين : الذهاب الى الريف أو للبقاء فى المدينة وقعت فى حيرة . زوجى يشتغل فى مدينة تشونغتشينغ آنذاك ، وابنتنا فى الثالثة من عمرها ، ووالدا زوجى يحتاجان الى الرعاية . فمصلحتنا الشخصية تقضى بأن ابقى فى المدينة ، لكن ما شاهدته من معاناة اهالى الريف خلال جولتى الطبية فى محافظة جينشان جعلنى اصمم على الذهاب الى الريف لخدمة الفلاحين . فخلال جولتنا هناك راجعتنا حبلى مصابة بمرض الضغط الدموى العالى الناتج عن الحمل . ولعدم تناولها العلاج فى حينه تطور مرضها ، وتعذر علاجه فى المستوصف الطبى المحلى . فاضطررنا الى نقلها الى مستشفى المحافظة . ونظرا لصعوبة المواصلات استغرق توصيلها الى المستشفى ساعة ونصف الساعة ، فعند وصولنا المستشفى كانت قد فارقت الحياة .

وكان هناك حبلى اخرى وجدت ان مخاضها طويل وشديد ، فطلبت التعجيل فى توليدها . وكانت القابلة ينقصها الكثير من المعلومات الطبية فاعطت الحبلى الحقنة الخاصة باستعجال الولادة ، الامر الذى ادى الى تمزيف رحم الحبلى لأن حقنة استعجال الولادة لايمكن اطلاقا اعطاؤها قبيل الوضع . ففقدت المرأة حياتها فى الطريق الى مستشفى المحافظة .

ان هاتين الحادثتين قد اديتا الى موت اربع انفس ، مما جعلنى اتألم اشد الألم ، وادرك ان الفلاحين بحاجة الى الاطباء فى للريف . وفى ذلك الوقت كان ٨٥٪ من الاطباء يعملون فى المدن ، فى حين ان الـ ١٥٪ — معظمهم اطباء حفاة — يعملون فى الارياف للتى يحتل سكانها ٨٥٪ من سكان الصين .

وهكذا اخبرت والدى بعزمى على استيطان الريف . ولم يكونا راضيين بمفارقتى لهما ، ولكنهما لم يمنعانى من ذلك . وقالت لى والدتى المريضة التى كانت ملازمة الفراش : " اذا ذهبت سأحس بفارغ كبير " فقال لها ابى : " اتركى البنت تذهب ! تفكيرها غير تفكيرنا ، فلا تمنعيها ." وبعد استيطانى الريف بعدة سنوات توفى والداى على التوالى ، ولكنهما لم يلومانى ابدا حتى وفاتهما . غير انى اشعر بالاسف لعدم قيامى — انا ابنتهما — بتمريضهما ورد شيء من فضلهما للكبير على فى تربيتى .

لقد خدمت ليو ده تشين المرضى بكل ما فى وسعها ، وخلال ٢١ عاما من اداء خدمتها الطبية فى للريف وهبت الفلاحين قلبا ملؤه للحب .

ومضت تقول :

" فى مارس عام ١٩٦٦ استوطنت قرية نانشيانغ فى محافظة جيادينغ . وكانت العيادة هناك فى وضع يرثى له . فقسم للولادة ليس فيه طبيب نظامى ، بل مجرد بضع قابلات لا يقدرن الا على توليد للحبلي العادية . وليس فيه الا عشرة أسرة ، وكانت مهام عملنا فيه كثيرة .

ان سوء الاحوال الطبية فى الريف قد جعل كثيرا من الفلاحين لا يستطيعون معالجة امراضهم فى اماكنهم ، مما اضطرهم الى تأجيل العلاج سنوات طويلة . كانت هناك شابة تجاوزت الثلاثين من عمرها ، قد اصيبت بمرض جلدى غريب ، حيث تبثر وجهها الى حد خطير ، واستعصى شفاؤها على الرغم من العلاج الطويل . واصبحت تخشى الخروج من البيت والظهور امام الناس خجلا من منظر وجهها المنفر . ولم يرض احد بالطبع الاقتران بها ، وهذا مازاد فى معاناتها وألمها النفسى ، فحاولت الانتحار اكثر من مرة . فاستشرت بشأنها اطباء الامراض الجلدية فى مستشفى رنجى فى شانغهاى . وطفت بمختلف الصيدليات الكبرى فى شانغهاى بحثا عن العقاقير اللازمة لاستحضار دواء خاص بمعالجتها . ورحت اساعدها كل يوم على طلى وجهها المتبثر بهذا الدواء . وبعد شهر من المعالجة او يزيد شفيت هذه الفتاة من مرضها على نحو غير متوقع . وسرت سرورا عظيما شعرت معه انها خلقت من جديد . ومنذ ذلك الوقت عكف المصابون بالامراض الجلدية على زيارتى من حين لحين .

وهناك نسوة عانين من قلق شديد بعد اجرائهن العملية الجراحية الخاصة بمنع الحمل ، فأصبن بالعصاب الشديد ، واصبح لهن سلوك شاذ ، وفقدن القدرة على العمل ، حتى ان بعضهن فكرت فى الانتحار .

فى قرية فانغتاى مرأة تدعى فانغ مينغ هوان ، لزمت الفراش ثلاث سنوات . وقد ذهب بها زوجها الى مختلف المستشفيات الكبرى فى شانغهاى ، ورجع بها يائسا . وامام هذه الحالة المستعصية كيف اعمل ؟ اقترح احد اطباء الامراض العصبية علي ان اعالجها باستخدام

الانسولين ، ولكن هذا للطريق فيه خطر لأن اعطاء حقنة الانسولين يسبب للمريض الاغماء الفورى . واذا لم تنجح اعادته الى وعيه ، فسيشكل ذلك خطرا على حياته . فنصحني بعضهم قائلا : " يستحسن الا تفعلى ذلك ، لأن فشلك قد يصبح ذريعة لاتهامك ونعتك بأنك تنحدرين من اصل برجوازى وانك تؤمنين بالانتقام الطبقى فتتعمدين قتل الفلاحين بهذه الطريقة . " وقد حدث ذلك عام ١٩٧٣ خلال اضطرابات " الثورة الثقافية " فأصبت بالتردد . ولكن كلما فكرت بمعاناة المرضى ، وتراءت لى : عيون اهاليهم المستنجدين ، شعرت بثقل المسؤولية الملقاة على عاتق الطبيب وبواجبه تجاه رسالته الانسانية ، والا فأين ضميره ؟

وعقدت العزم على تجربة استخدام الانسولين .

بدأت العلاج التجريبى لثلاث مريضات اولا بالتعاون مع رئيسة الممرضات . ففى الساعة السادسة صباحا كل يوم نعطيهن حقنة الانسولين ثم نلازمهن ٣ ساعات . وبعد عودة الوعى اليهن نطعمهن ، ونساعدهن على تنظيف اجسامهن وتغيير ملابسهن . وبعد شهرين من هذا العلاج تحققت المعجزة ، فقد شفيت المريضات الثلاث جميعهن شفاء تماما ، وعادت اليهن القدرة على العمل . وعقب ذلك نجحنا فى علاج حوالى ٢٠ مريضة مماثلة فى محافظة جيادينغ .

وفى عام ١٩٧٧ دخل مستشفانا مريضتان تناهزان الاربعين من العمر . وكانتا وفقا لتشخيصات المستشفيات الكبيرة فى شانغهاى مصابتين بفقر دم شديد . وعيار الدم غرام ونصف الغرام لاحداهما وغرامان للأخرى . وقد حافظت هاتان المريضتان على حياتهما بالاعتماد

على نقل الدم . وكان دم الحيض عندهما متجاوزا بكميته الحد الطبيعي . وكان من المفروض ان تجرى لها عملية استئصال الرحم ، لكن تلك المستشفيات الكبيرة في شانغهاي لم ترغب في المخاطرة فلم يبق امام المريضتين الا انتظار الموت . لكنني اعتقد انه ما دام هناك بصيص من الامل في انقاذ المريض من الموت فعلى الطبيب الا يتأخر عن المطلوب .

حولت هاتين المريضتين من قسم الامراض الباطنية الى قسم الولادة . وقررت اجراء عملية استئصال الرحم لاحداهما . وقبل العملية نقل لها ٢٠٠٠ سم مكعب من الدم ، لكن درجة عيار دمها ظل منخفضا . وخاب امل اهلها . ونصحني المسؤولون بعدم اجراء هذه العملية ، ولكنني اقنعتهم بنقل ٢٠٠٠ سم مكعب من الدم مرة اخرى ، فارتفعت درجة عيار دم المريضة الى ٩ غرامات ، الا ان خفقات قلبها اضطربت فجأة بسبب نقل هذه الكمية الكبيرة اليها من الدم . فاستعنت فورا باطباء الامراض الباطنية والتخدير . وبعد اجراء العملية الجراحية تماثلت المريضة للشفاء التام . ودلت نتائج الفحص على ان فقر الدم عند المريضة ناجم من افراط النزيف عند الحيض وليس من نوع فقر الدم الشديد . وما تزال هاتان المرأتان اللتان قيل في البداية انهما مصابتان بمرض عضال تعيشيان الى الآن بصحة تامة . "

خلال " الثورة الثقافية " تعرضت ليو ده تشين لكثير من الظلم . ولكنها من اجل تحقيق امنيتها في استيطان الريف لخدمة الفلاحين صبرت على الظلم وكفكفت دموعها وكبحت الالم في داخلها . . .

" بعد استيطان الريف بثلاثة اشهر هبت عواصف ' الثورة الثقافية ' على مستشفى قرية نانشيانغ الصغير . كنت حينذاك مشغولة جدا بالعمل فى عنبر المرضى ، فلم اتمكن من متابعة تطورات الوضع فى حينها ، فأرقعتنى هذه الحملة السياسية فى شباكها منذ البداية . وذلك لأنى كنت عاملة نموذجية لعام ١٩٦٥ على نطاق شانغهاى ، ففى اجتماع الثناء صافحنى تساو دى تشيو عمدة شانغهاى اذذاك . ووقع العمدة تساو فى بداية ' الثورة الثقافية ' فريسة للصراع السياسى باعتباره ' قابضا على السلطة سالكا الطريق الرأسمالى ' ، فأصبحت انا الطبيبة العادية ما بين ليلة وضحاها ' مخلبا شريرا للمنهاج البرجوازى فى مجال الطب والصحة ' و" يدا شريرة ممتدة الى مستشفى نانشيانغ ' . فكثرت الملصقات ذات الحروف الكبيرة ، وتتابعت الاجتماعات العامة الخاصة بنقدى وتوبيخى ، وتعرضت لمختلف الاساءات كتفتيش بيتى وتعليق اللافتات على عنقى ومعاقبتى بمسح الارض وتنظيف المرحاض . وامكننى احتمال كل هذا ، ولكننى لم افهم ، كيف اصبحت ' ثقة رجعية برجوازية فى علم الطب ' وانا خريجة جامعية نشأت فى الصين الجديدة . كما لم افهم لماذا اعتبروا حرصى على استيطان الريف لخدمة الفلاحين يهدف الى ' ابراز نفسها فى المجال السياسى ؟ '

اما الامر الذى لم استطع تحمله على الاطلاق فهو تجريدى من حق العمل فى مهنتى وانا طبيبة .

ذات ليلة جاءت الى المستشفى امرأة فى حالة اسعاف ، وتبين فيما بعد انها تشكو من حمل خارج الرحم ولكن حصل خطأ فى

التشخيص ، وقيل بأنها سوف تجهض ، فبقيت المريضة دون علاج حتى صباح اليوم التالى . ولقد مررت بحجرة المريضة ، فلاحظت الشحوب الشديد على وجهها . ففحصتها على الفور ، فوجدت ان ضغط دم المريضة قد انخفض الى الصفر وانها فى حالة اغماء حاد ، واكتشفت انها حامل خارج الرحم وبحاجة الى عملية جراحية فورية . وطلبت نقلها الى غرفة العمليات ، واسرعت الى تحضير العملية كالعادة . وحينذاك ظهر امامى فجأة احد اقرباء المريضة وسد على الطريق الى غرفة العمليات طالبا احالة المريضة الى مستشفى آخر . لقد تحملت كافة الاقاويل القذرة والاتهامات الباطلة التى وجهت الى فى اجتماعات النقد والدحض ، ولكن مما طعننى فى صميم قلبى ان يفقد ذوو المرضى ثقتهم بى الى هذا الحد .

ونبهنى زملائى الطيبين الى وضعى الحرج ، ولم يجرؤ المسؤولون الذين جردوا من السلطة على تأييد رأيى . وعرفت جيدا ان احالة المريضة الى مستشفى آخر يعنى موتها ، وان ابقائها لاجراء العملية الجراحية فورا قد ينقذها من الموت . وانطلاقا من واجبى المقدس لم اقبل ابدا السكوت على خطر تعرضها للموت باحالتها الى مستشفى آخر ، واوضحت لذوى المريضة خطورة الامر بصبر واناة ، واستطعت اقناعهم فى النهاية واجريت العملية الجراحية للمريضة وانقذتها من الخطر .

ما اكثر ما ذرفت الدموع وانا اتعرض للظلم والاضطهاد ! وما اكثر ما وقعت فى بلبلة ، واضطراب وفكرت فى العودة الى شانغهاى ! . "

تتولى ليو ده تشين الآن منصب مديرة المستشفى ، وتحمل على كتفيها عبئا ثقيلا ومسؤولية كبيرة .

” وفى عام ١٩٧٥ صار مستشفى نانشيانغ هذا مستشفى على درجة المحافظة يضطلع بمهام العلاج الطبى فى منطقة ادارية فيها ١٦٠ الف نسمة . ويعمل فيه الآن ٢٨٠ عاملا وعاملة فى مجال الطب والصحة ، وفيه ٢٠٠ سرير ، وتستقبل عيادته حوالى ١٠٠٠ مريض فى اليوم .

ليس من السهل ان يكون المرء طبيبا ممتازا ،واصعب من ذلك ان يكون المرء مديرا للمستشفى . ولو خيرت بين هذين الامرين ، لآثرت الاول على الثانى لكى استخدم مهارتى الطبية الذاتية فى ازالة آلام المرضى . ولكن على الآن ان اتحمل مسؤولية ادارة المستشفى ، واشعر احيانا بأن قدرتى ليست بقدر طموحى .

منذ ان توليت منصب الادارة عام ١٩٨٦ عملت على تقوية الانظمة واللوائح وتقويم اساليب العمل الطبى ، وركزت على تنظيم سجلات تاريخ الاصابات المرضية . ونظرا لأن تسجيل تاريخ الاصابات المرضية فى قسم الجراحة لم يكن متقنا اصلا ، فبدأ تحسين هذا العمل فى قسم الجراحة اولا . وفى سبيل تقوية الانظمة واللوائح ضايقت بعض الناس . ولكن مادام عملى صحيحا ، فانى اثابر عليه حتى النهاية دون ادنى تراجع . واطلب من جميع العاملين فى المستشفى ان يعملوا بكل امانة واخلاص من اجل خدمة المرضى وانطلاقا مما تمليه عليهم ضمائرهم ومسؤولياتهم الطبية .

اعمل الآن فى عيادة قسم الولادة نصف يوم فى الاسبوع ، واجرى العملية الجراحية مرة او مرتين فى الشهر . وفى بعض الاحيان ارشد الطبيبات الشابات فى اجراء العملية الجراحية . لقد تجاوزت

الخمسين من عمرى ، فكلما اجريت عملية جراحية ، احسست بألم الخصر والرجلين ، واحيانا يبلغ منى الوجع أشده فلا اعود الى حالتى الطبيعية الا بعد ٣ او ٤ ايام على الاقل .

يقول المثل الصينى : ' مادمت على قيد الحياة عليك ان تعمل وتتعلم . ' فالتعلم مايزال من مهامى الرئيسية . ان مستوى الطب والصحة فى الريف منخفض دون شك ، كما ان المواد الطبية وفرص الدراسة فيه قليلة . ولذلك يرسل بعض الاطباء على الدوام الى المستشفيات الكبيرة فى شانغهاى لكسب المعلومات والمهارات والخبرات الجديدة وتطبيقها فى مستشفانا . واحرص دائما ان اكون فى مقدمة من يعملون فى ذلك .

اشتغلت طبيبة سنوات طويلة ، ولم اتسبب فى وقوع اية حادثة ، ولم يمت على يدى احد . ولكنه فى السنة الماضية فقدت حبلى حياتها فى مستشفانا بعد مجيئتها اليه بساعة واحدة ، وكنت فى اجتماع خارج المستشفى فى ذلك الوقت ، فلم اتمكن من العودة للاشتراك فى عملية الانقاذ . وما زال هذا الامر يؤلمنى حتى اليوم .

ان عملى مديرة للمستشفى تتخلله صعوبات كثيرة ، وقد اصبت بالارق الشديد لهذا السبب ، وبكيت مرات كثيرة .

وفى ابريل من هذا العام بدأ تطبيق نظام المكافأة لمن يحسنون الخدمة على نطاق المستشفى كله . وتحديد الجوائز يتم على اساس تقييم مقدار العمل والحماسة فيه ونوعية الخدمة والفوائد الاقتصادية المحرزة . ويهدف هذا النظام إلى مكافأة المجتهد ومعاقبة الكسول . من لا يخطئ فى عمله ، ينال المكافأة الاساسية . ومن يحقق نتائج بارزة ، ينال

المكافأة من صندوق مديرة المستشفى . "

ان ليو ده تشين سعيدة بزوجها ومزهوة بابنتها وابنها ، ولكن كثيرا ما يؤنبها ضميرها لتقصيرها فى واجباتها أما وزوجة .

" زوجى يدعى تشانغ رن بى ، وكان زميلا لى فى معهد الطب الثانى فى شانغهاى . وفى عام ١٩٥٧ نال شهادة الماجستير من أكاديمية علوم الطب التابعة لجيش التحرير فى مدينة شانغهاى ، بينما نلت بدورى شهادة الماجستير من معهد الطب فى مدينة داليان . وتزوجنا عام ١٩٥٩ . وبعد زواجنا بسنتين ارسل زوجى الى مقاطعة سيتشوان من اجل التحضير لتأسيس معهد الطب فى مدينة تشونغتشينغ . كنت اعتقد ان هذا الفراق مؤقت . ولم اتصور ابدا ان الفراق سيدوم ٢١ عاما . وخلال هذه السنين الطويلة كانت فرص اللقاء بيننا قليلة واوقات الفراق طويلة طويلة ! واذكر اننى كنت كلما سافرت الى المدينة فى مهمة رسمية ، امشى خافضة الرأس فى الاماكن العامة غير راغبة فى رؤية الازواج السعداء يتنزهون جنبا الى جنب مع اطفالهم فى جو من السعادة والبهجة .

وهناك امر ما زلت اتذكره جيدا حتى الآن . فى ذلك العام كنت فى جولة طبية فى الريف ، وتسلمت رسالة من زوجى فى مقاطعة سيتشوان ، قال فيها انه سيرجع الى بيتنا فى شانغهاى لزيارة افراد العائلة . فكتبت اليه رسالة جوابية على الفور انصحه فيها بتأجيل هذه الزيارة الى ان اعود الى شانغهاى من الجولة الطبية . ولكن بعد ذلك بمدة

قصيرة ، ظهر زوجى امامى فجأة وتعجبت من ذلك . بعد عام كامل من الفراق تم اللقاء الذى قد طال انتظاره ، غير انى لم اتمكن من لقائه لأنى كنت اجرى عملية جراحية لدى وصوله . وطلبت منه فورا ان يكون مساعدا لى فى اجراء العملية حتى لا يكون وجرده معيقا للعمل . وهكذا قضى اجازته بكاملها يرافقنى فى اداء اعمالى الكثيرة المتدافعة ، الامر الذى جعلنى اشعر بالخجل فقلت له : ' ان اجازتك لزيارة العائلة لا تحدث الا مرة واحدة فى السنة ، فكان من المفروض ان اصاحبك فى قضائها . ولكنى لم اتمكن من ذلك فأنت الذى صاحبتنى فى اداء اعمالى . ' فرد على بابتسامته العذبة لأنه يفهمنى كل الفهم .

والآن يعمل زوجى فى مستشفانا رئيسا لقسم الامراض الباطنية ، ويثابر على عمله من الصباح الى المساء يوميا بكل جد واجتهاد .

اننا لانسعى فى معيشتنا وراء المتعة الرفاهية ولا نهتم بفن الطهى فى للبيت ، ولا ندقق فى معالجة الشؤون المنزلية . وصحة زوجى احسن من صحتى ، لذلك يؤدى من الاعمال المنزلية اكثر مما اؤدى بكثير .

عندنا ابنة وابن . وقد بلغت البنت الآن الرابعة والعشرين . وعندما كانت فى للثالثة من عمرها استرطنت قرية نانشيانغ تاركة اياها فى بيت جدتها فى شانغهاى . وعندما بلغت الخامسة استطاعت عبور الشوارع دون رعاية خاصة للذهاب الى روضة الاطفال والعودة منها يوميا . وعندما بلغت السابعة او الثامنة اصبحت تهتم بجدتها المريضة وتؤدى لها الخدمات . ان قدرتها على المعيشة بالاعتماد على النفس جد قوية لأنها تمرنت على ذلك منذ صغرها ، فنضجت مبكرا خلقا وتفكيرا . وفى عام ١٩٨٠ اجتازت امتحان دخول الجامعة ، فالتحقت

بجامعة تزنغجي فى شانغهاى . وجدير بالذكر ان نسبة القبول فى شانغهاى لذلك العام هى ٤٪ تقريبا . وفى عام ١٩٨٥ نجحت فى امتحان القبول ، فالتحقت بجامعة واشنطن الامريكية لدراسة الماجستير .
اما ابننا فطويل القامة - ١٨٠ سم - وقد عانى معى كثيرا من الآلام فى صغره . ولد ابنى فى قرية نانشيانغ عام ١٩٦٨ . وكنا نسكن فى بيت عائلة فلاحية هناك ، وكنت مشغولة جدا بالعمل فى المستشفى وكنت ادعى حتى فى الليل احيانا لاجراء عملية جراحية طارئة فى المستشفى ، وابنى مازال فى فترة الرضاعة . فكان يبكى طيلة غيابى . ودائما ما كان يبح نتيجة البكاء الطويل فى اثناء غيابى . وكنت اذا لازمته فى البيت ، اظل قلقة على المرضى فى المستشفى . وحينما اذهب الى المستشفى من اجل علاج طارئ اظل قلقة على ابنى الذى تركته فى البيت يبكى . فما العمل ؟ وخطر على بالى الدواء المنوم . فوجدت ان اعطاء الولد الدواء المنوم هو الحل الوحيد . واصبحت بعد ذلك كلما دعيت فى الليل لانقاذ مريض فى المستشفى ، اعطيت ولدى ربع قرص من اللبريوم .

كبر ابنى تحت رعايتى انا . واوليت دراسته اهتماما بالغا ، وعلمته اللغة الانجليزية منذ طفولته . وكانت نتائجه المدرسية ممتازة . وفى المرحلة الابتدائية درس مواد السنة الدراسية الخامسة بعد الثالثة مباشرة ، ومع ذلك تخرج فى المدرسة الابتدائية بنتائج ممتازة ، فالتحق باحدى المدارس المتوسطة المشهورة فى شانغهاى . ومنذ ذلك الوقت بدأ يعيش فى المدرسة عيشة مستقلة . وفى عام ١٩٨٦ التحق بجامعة جياوتونغ فى شانغهاى ليدرس فى كلية الفيزياء التطبيقى . وقد احتل

المركز الثانى فى امتحان القبول بين جميع المشتركين فى امتحان قسم العلوم على نطاق مدينة شانغهاى . ويوم دخول الجامعة رافقته طوال سفره ، وودعته عند مدخل الجامعة قائلة : ' الى اللقاء يا بنى ! راع نفسك ' فرد على قائلا : 'كونى مطمئنة على ، لقد تعودت العيش المستقل . ' نعم ، لقد حرم من رعاية والديه مبكرا اكثر مما ينبغى ، فتعلم الرعاية الذاتية مبكرا ، ولا داعى لقلقى عليه . وابتعد عنى رويدا رويدا حتى تلاشى ظله العالى ، وانا واقفة انظر اليه مطمئنة كل الاطمئنان .

والآن كبر ولدانا ، وشبا على نحو سليم . ولم اعد اشعر ازاءهما بتأنيب الضمير لتقصيرى فى منحهما الرعاية الكافية فى طفولتهما . "

ان ليو ده تشين تتباهى وتفتخر بأنها من نساء الصين الجديدة

فى رأيى ان المرأة فى الصين تعانى المشقات اكثر من الرجل ، فهى تعمل على تحقيق مطامحها من جهة ، وتقوم بأعمالها المنزلية من جهة اخرى . ودور الزوجة فى البيت اكبر من دور الزوج ، ودورها فى تربية الاولاد اهم من دور الاب . واذا تغاضت الام عن تربية اولادها او دللتهم ، فان اولادها لاينشأون عادة نشأة سليمة . لقد احسنت تربية ابنتى وابنى ، مما ارضى حماتى كثيرا ، فدائما تقول للناس : ' ان النجاح الملحوظ فى تربية حفيدتى وحفيدى يرجع فضله الى كنتى . '

وفيما يتعلق بالطموح فان المرأة تحقق نجاحاتها مادامت متحلية بالثقة بالنفس والاعتماد على النفس والارادة القوية . ان المناصب

القيادية فى مستشفانا بيد الجنس اللطيف ، فأنا اشغل منصب المديرة ، ولى نائبتان . وفضلا عن ذلك فان الذين يعملون فى مجال الطب والصحة معظمهم من الجنس اللطيف . ويمكننا بعد هذا ان نقول بكل فخر : ان المرأة الصينية عظيمة ، ومستقبلها وضاء ! "

لى قوى ليان

ـ السخية بمعلوماتها الزراعية

لى قوى ليان هى الفنية الزراعية فى الاكاديمية الزراعية فى مقاطعة قويتشو ونائبة مدير هذه الاكاديمية والفائزة بلقب العاملة النموذجية من الدرجة الخاصة فى مقاطعة قويتشو . لقد قضت ٥ سنوات فى محافظة لوديان التى تتجمع فيها قومية بويى وقومية مياو وغيرهما من الاقليات القومية الاخرى ، قامت خلالها بنشر فن زراعة الخضار التى تنضج مبكرا واعداد الفنيين المحليين فى زراعة الخضار ، مما حول هذه المحافظة الفقيرة المتأخرة اقتصاديا الى قاعدة لانتاج الخضار وتسويقها . ولقد بذلت اقصى جهدها لاسعاد ابناء الشعب فى محافظة لوديان على حساب سعادة عائلتها ، واصبح الاهالى هناك يدعوتها " إلهة الثروات فى وادى نهر هونغشوى" و" المعلمة الممتازة لتحقيق اليسر" .

بحوثها العلمية متركزة على الوحدات القاعدية

ولدت لى قوى ليان فى عائلة مثقفة . ولها ٧ من الاشقاء والشقيقات ،

معظمهم ممن حققوا منجزات ملحوظة فى مجال العلوم والثقافة . وقد عقدت لى قوى ليان العزم منذ صغرها على ان تصبح من العاملين فى مجال العلوم لخدمة الشعب . وفى عام ١٩٦٤ تخرجت فى معهد قويتشو للزراعة ، وعينت فى اكاديمية الزراعة فى مقاطعة قويتشو . ومنذ ذلك الوقت تفرغت للعمل فى الجبهة الاولى للبحوث العلمية الزراعية . ولم تنهمك فى متعة الحياة العائلية الشخصية . وقد تحدث عنها زوجها فان ان بو فى رسالته الى قائلا : " فى عام ١٩٧٢ توجهت مع زوجتى الى منطقة المناجم فى ليوتشى ، وعملنا هناك عدة سنوات لحل مشكلة الخضار لدى عمال المناجم ، وقدمنا فى هذا المجال كثيرا من الاسهامات . وفى تلك الفترة لم يكن لدينا اولاد ، فركزنا جهودنا على



لى قوى ليان

الابحاث العلمية ، نبادل بعضنا بعضا العطف والتأييد . وصارت القضية العلمية المشتركة رباط قويا لعواطفنا . وفى شتاء عام ١٩٧٨ طلبت عن طيب خاطرها الذهاب على رأس فرقة زراعية الى جزيرة هاينان لتربية السلالات الممتازة من الخضار . وبرغم صعوبة الظروف هنالك ، وخاصة على المرأة ، ذهبت فعلا تحت تأييدى وتشجيعى . وعند عودتها من جزيرة هاينان وجدتها نحيفة ، قد اسمر وجهها من كثرة التعرض للشمس . وآلمنى ذلك بعض الشيء لكننى مالبثت ان شاركتها الفرح بما حققته من نجاح هناك . وسرعان ما استخدمت سلالتها الممتازة فى اماكن مختلفة من مقاطعة قويتشو ، الامر الذى شجعها على الذهاب بهذه السلالات الممتازة الى محافظة لوديان فى شتاء عام ١٩٧٩ لتعميم زراعتها . لم تكن الظروف فى البداية ملائمة ، ولم تجد الاموال الكافية فى ذلك ، بل انها دفعت من جيبها اجرة سفرها الى لوديان . ودخلنا ليس كثيرا فلا يجوز استمرار هذا الوضع . وسعيت معها لحل مشكلة النفقات لأن خطة العمل لا يمكن تسييرها خطوة واحدة من دون نفقات . واخيرا تلقينا تأييدا قويا من مكتب التخطيط الزراعى فى المقاطعة ، فادرجت خطة استثمار الموارد الحرارية فى محافظة لوديان لتطوير زراعة الخضار ضمن المشاريع التنفيذية للتخطيط الزراعى فى المقاطعة ابتداء من شتاء عام ١٩٨١ . وتم تخصيص ٢٠٠٠ يوان لنفقات عام ١٩٨٢ . وفى السنوات التى تلت ذلك خصصت مبالغ اخرى لاجراء تجربة الزراعة ونشر الخبرات . وهذه المبالغ برغم عدم كثرتها سدت الحاجة الملحة لدى لى قوى ليان . والى جانب مشكلة النفقات كان هناك مشكلة اخرى هى مشكلة

التسويق . وكانت لى قوى ليان تقلق اشد القلق بشأن ذلك ، فلا تستطيع النوم ولا الطعام ، وأهدئها قائلا : "لا داعى للخوف ! ان مهمتك قبل كل شيء هى انتاج الخضار ، اما التسويق فلا تقلقين عليه الآن. " ثم اجرينا ، انا وهى ، اتصالات هنا وهناك بصدد التسويق. وعندما حل موسم الحصاد ، توافدت عربات المصانع والمناجم ومتاجر الخضار على سوق الخضار فى حاضرة محافظة لوديان ، وتوجه اليها صغار التجار . وهكذا صارت محافظة لوديان قاعدة حقيقية لانتاج وتسويق الخضار المبكرة . وفى السنوات الاخيرة بدأت الخضار المبكرة المنتجة فى محافظة لوديان تصدر الى خارج مقاطعة قويتشو . وبذلك تحولت مقاطعة قويتشو من مستوردة الى مصدرة للخضار .

ان صحة زوجتى ليست جيدة لأنها مصابة بمرض المعدة والتهاب المرارة . والجو الحار فى لوديان ليس مناسبا لصحتها . كما ان ضغط العمل فى غير صالح صحتها ، وهذا ما اقلقنى عليها ، لكن الفلاحين فى لوديان بحاجة ملحة الى العلوم والتكنولوجيا فى سبيل التخلص من الفقر وتحقيق اليسر . وانطلاقا من روح التفانى فى قضية العلم ، عقدت لى قوى ليان عزمها على الذهاب الى لوديان ، وايدتها فى ذلك . "

لعلكم ايها القراء قد اخذتم مما ورد فى هذه الرسالة فكرة عامة عن لى قوى ليان من حيث تصميمها على الذهاب الى لوديان وهدفها من ذلك والصعوبات التى اعترضتها فى العمل والنجاح الذى حققته . والآن لنستمع الى ما تقوله لى قوى ليان نفسها عن ذلك :

" انني متخصصة ببحوث الخضار . ومن اجل حل مشكلة السلالات الممتازة فى انتاج الخضار بمقاطعة قويتشو ذهبت الى جزيرة هاينان حيث الجو الحار على رأس فرقة من بعض الرفاق الذين يعملون فى مناطق انتاج الخضار فى مقاطعة قويتشو بهدف تربية السلالات الممتازة من الخضار . وبسبب بعد المسافة كانت تكاليف هذه السلالات مرتفعة . لذلك خطرت ببالى فكرة اختيار احدى المناطق المنخفضة الحارة داخل المقاطعة لتؤسس فيها قاعدة خاصة لتربية السلالات الممتازة بالاستفادة من ميزتها المتمثلة فى توفر الحرارة المناسبة . ووجدت لوديان التى تدعى من القديم ' مدفأة طبيعية كبرى ' هى المكان المثالى تقريبا ، فالحرارة هناك صالحة جدا لتحقيق نضوج مبكر فى الخضار والبطيخ وغير ذلك من المزروعات . ولكن هناك صعوبات غير قليلة . فمواصلاتها صعبة مثلا ، ونسبة ٦٤٪ من سكانها من الاقليات القومية ، والمستوى العلمى والثقافى متدن ، ومستوى انتاجها الزراعى منخفض ، بل كانت الاساليب الزراعية البدائية ما تزال تطبق فى بعض الامكان ، وجماهير الشعب تعيش فى فقر ، والفلاحون ليسوا معتادين زراعة الخضار ، ناهيك عن تربية السلالات الممتازة وتطبيق التقنية المتقدمة . ونظرا لقلة عدد الفلاحين المختصين بزراعة الخضار ظلت انواع الخضار هناك قليلة ورديئة ، فحجم انتاجها منخفض ، وموسمها متأخر ، وآفاتها كثيرة . ومعظم الفلاحين يشترون الخضار من حاضرة المحافظة . اما سكان حاضرة المحافظة فمن الصعب جدا ان يجدوا الخضار . وانتاج الخضار هناك ليس بهدف التجارة ، لذلك لم يظهر اى تفوق فى الزراعة فى محافظة

لوديان على الاطلاق .

فى خريف عام ١٩٧٩ ذهبت الى لوديان من اجل استقصاء الامكانات لتأسيس قاعدة خاصة لتربية السلالات الممتازة . وزرعت هناك اولا الطماطم الممتازة فى قطعة صغيرة من الارض مساحتها نصف مو . وفى عام ١٩٨٠ قمت مرة اخرى بتجربة زراعة الطماطم الممتازة ، فجاءت ثمارها كثيرة العدد كبيرة الحجم . وقد "سرق" كثير من الفلاحين من هذه الطماطم بغرض اتخاذها بذورا . وبالهام من "سرقة الفلاحين العلم والتقنية" تقدمت باقتراح حول تطوير انتاج الخضار المبكرة فى محافظة لوديان بغرض التجارة بالاستفادة من تفوقها فى الظروف الطبيعية . وبذلك يمكن تخفيف حدة التوتر فى تموين الخضار فى غير موسمها فى أحياء مدينة قوييانغ حاضرة المقاطعة وفى مناطق المصانع والمناجم فى المقاطعة ، كما يمكن فى الوقت نفسه تخليص ابناء الاقليات القومية فى محافظة لوديان من الفقر وتحسين وضعهم المادى بأسرع ما يمكن . ولقى اقتراحى هذا اهتماما لدى حكومة محافظة لوديان . ففى تلك السنة بالذات جرت اعمال التخطيط الزراعى على نطاق المحافظة ، ووضعت خطة تهدف الى انجاز بناء ٥٠٠٠ مو (٥ر٣٣٣ هكتارا) من حقول زراعة الخضار المبكرة لغاية عام ١٩٨٥ لانتاج ٥ ملايين كيلوغرام من مختلف انواع الخضار . وبالاضافة الى ذلك تم ادراج خطة لاستثمار الموارد الحرارية فى محافظة لوديان ضمن المشاريع التنفيذية للتخطيط الزراعى فى المقاطعة ، وذلك لتأسيس قاعدة لانتاج الخضار المبكرة بهدف التجارة . وفى خريف ذلك العام طلب منى ان اذهب الى محافظة

لوديان لمساعدة المحافظة على تأسيس هذه القاعدة .

وهنا وقعت فى حيرة شديدة . ان مهمة تأسيس قاعدة لانتاج الخضار المبكرة مهمة ثقيلة ، ومن الصعب ان اضطلع بها وحدى . ولئن فشلت فى ذلك ، فان المسؤولية كبيرة . والخسائر الاقتصادية الناجمة عن الفشل لا استطيع التعويض عنها ، ولو دفعت كافة ممتلكات عائلتى . وسيكون الامر فضيحة لى برغم جهودى الكبيرة التى سأبذلها من اجله . ومحافظة لوديان ينقصها الفنيون ، فسأكون المسؤولة الوحيدة فنيا ، ولا ادرى ما اذا كنت سأنجح فى ذلك .
امام هذا الوضع القائم فعلا رحت اتقلب فى فراشى ، وقد جفانى النوم . بالاضافة الى ذلك لدى طفلة فى اشد الحاجة الى ، فمن سيقوم بتربيتها اذا فارقتها ؟ وما زلت ايضا اقوم ببعض الابحاث داخل الاكاديمية ، ولم انجزها بعد . واذا ما جمعت بين الاعمال داخل الاكاديمية وخارجها فى آن واحد ، فهل تسمح لى صحتى بذلك ؟
فكرت كثيرا وكثيرا . وفى نهاية المطاف عقدت العزم على قبول المهمة .
انى عاملة فى مجال العلوم الزراعية ومتخصصة بأبحاث الخضار ، فاذا بقيت فى المعهد والاكاديمية والبيت دون النزول الى الوحدات القاعدية ، فلن اتمكن من الحصول على المعلومات الحقيقية . ان العلم ليس متعة فردية خاصة ، فعلى الذين اتيحت لهم فرص مزاولة الابحاث العلمية ان يحرصوا اولا على خدمة البشرية من خلال استخدام معارفهم . " وقد بدأت لى قوى ليان تطبق هذا المبدأ .

تسعى الى تكوين قوة فنية زراعية دائمة

بعد وصولها الى لوديان عملت اولا على تعميم فن الزراعة باستخدام الاغطية الارضية المصنوعة من الاغشية البلاستيكية ، وقد نقلت الصين هذا الفن الزراعى المتقدم عن اليابان فى اواخر السبعينات . ولكن الفلاحين فى لوديان لم يسبق لهم ان عرفوه ، لذلك لم يستطيعوا استيعابه برغم كثرة الشرح . انهم لا يفهمون كيف تنبت المزروعات من ارض مغطاة بالاغشية البلاستيكية ! وقطعت لى قوى ليان على نفسها عهدا للفلاحين قائلة : " اذا نجحت فان النجاح لكم ، واذا فشلت فأنا سأدفع لكم التعويضات . " وهكذا وافق احد الفلاحين على تخصيص قطعة من ارضه لاجراء تجربة الزراعة فيها . ومع ذلك انبرى شقيق هذا الفلاح يراهنه قائلا : " اذا حصدت من ارضك هذه ، فسأهديك محصول نصف مو من حقولى من الخيار . " وادركت لى قوى ليان ان الفشل فى تجربتها هذه المرة يعنى استحالة قيامها بتجربة اخرى لتعميم هذا الفن . فمن اجل ضمان نجاح هذه التجربة الاولى لازمت لى قوى ليان حقل تجربتها ملازمة دائمة بعد بذر البذور وخلال فترة ادارة الحقول . وحان وقت الحصاد لحقل التجربة قبل حصاد الحقول العادية بعشرة ايام ، وكانت ثمار الخيار فيه كبيرة وكثيرة . وانهزم " المراهن " ، وقدم طلبا للاشتراك فى دورة تدريبية لدراسة هذا الفن الجديد وهو شديد الخجل . ان هذا التحول من الارتياب فى هذا الفن الى طلب دراسته لهو تحول كبير .

وقد صار هذا الفلاح بعد ذلك " ملك الخيار" الذائع الصيت فى المحافظة كلها .

فى عام ١٩٨٦ بلغت مساحة الارض المزروعة باستخدام الاغطية الارضية من الاغشية البلاستيكية قرابة ٤ آلاف مو (٢٦٨ هكتارا) ، بينما كانت فى عام ١٩٨٢ الف مو ، وبلغ الدخل الصافى الناتج عن استخدام هذا الفن ٦٠٠ الف يوان تقريبا . ولقد استثيرت الحماسة الآن فى محافظة لوديان لدراسة العلم والتقنية ، واخذت سحب الجهل المخيمة على هذه المنطقة منذ القديم تنقشع شيئا فشيئا . وبدأت جماهير شعبها من مختلف القوميات تدرك فوائد استخدام العلم والتقنية . والآن كلما اقامت لى قوى ليان بالتعاون مع الفنيين فى مصلحة الزراعة وتربية المواشى فى المحافظة دورة تدريبية فنية ، اشترك فيها الفلاحون قادمين من كل مكان ، ودائما ما يتجاوز عدد المشتركين فى هذه الدورات الخطة الموضوعة مسبقا تجاوزا كبيرا ، مما سبب ازدحاما فى موقع التدريس ، فيضطر بعضهم الى الجلوس على الارض ، او يبقى بعضهم الآخر واقفا فى الممرات . ومن بين الحضور مسنون تجاوزوا السبعين وفتية دون العشرين ونساء مرضعات ، ونساء من قومية بويى كن فى الماضى لا يحضرن الاجتماعات العامة . وهناك من ذهبوا الى مصلحة الزراعة وتربية المواشى ليشتكوا من عدم تلقيهم دعوات للاستماع الى الدروس ، ومن قطعوا نحو ٣٠ كيلومترا سيرا على الاقدام من اجل الاستماع الى الدروس ، ومن تهافتوا على احراز المعلومات المطبوعة . وتدل هذه المظاهر على تحمس الفلاحين الشديد للتخلص من الفقر وتحقيق اليسر .

ولم تقنع لى قوى ليان بما تحقق ، ففكرت فى تكوين قوة فنية زراعية دائمة من بين الفلاحين المحليين لأن قدرتها الفردية محدودة . وطرحت فكرتها على الجهات المعنية ، فلقيت منها التأييد . وبفضل جهود لى قوى ليان وموظفى مصلحة الزراعة وتربية المواشى تم تكوين شبكات علمية زراعية ذات خمس درجات : الفنى والمساعد الفنى شبه المحترف من الفلاحين ، والفلاحون المشهورون بزراعة الخضار ، والفلاحون العاديون فى زراعة الخضار ، وعامة الفلاحين فى زراعة الخضار . وكانت لى قوى ليان تقوم بتعليم الفنون الزراعية بنفسها . وقد برزت تحت تدريبها امرأة من قومية بويى تدعى هو يوى ينغ ، وقد بلغ دخلها من زراعة الخضار المبكرة عام ١٩٨٦ ما يزيد عن ٣٣٠٠ يوان وقامت بارشاد ٢٤٨ فلاحا متخصصا بزراعة الخضار فى استخدام الوسائل العلمية ، ثم بواسطتهم وتأثيرهم قام ١١٠٠ فلاح آخر بزراعة الخضار زراعة علمية . وبلغ مجموع دخلهم من زراعة الخضار المبكرة فى تلك السنة ٨١٠ آلاف يوان . واختيرت هو يوى ينغ مساعدة فنية على مستوى المحافظة فى زراعة البقول ، وقد القت محاضرات فى اماكن كثيرة داخل المحافظة وخارجها . وانتخبت عاملة متقدمة على مستوى المقاطعة فى تعميم العلوم الزراعية وشخصية متقدمة على مستوى البلاد فى قضية الوحدة القومية .

وفى محافظة لوديان الآن ٤ مساعدين فنيين على غرار هو يوى ينغ واكثر من ٤٠ عنصرا من عناصر القوة الفنية الرئيسية ، وهذا يدل على ان القوة الفلاحية الفنية لزراعة الخضار المبكرة قد ظهرت الى حيز الوجود الآن بالشكل الذى تصورته لى قوى ليان

المثل الاعلى والايمان

قالت الكاتبة الصينية الشهيرة دينغ لينغ : " ان المرء قادر على تحمل اية مشقة من المشقات والتأقلم مع اى ظرف من الظروف ، ما دام متسلحا بالايمان والمثل الاعلى . "

لقد تعرضت لى قوى ليان لكثير من الصعوبات خلال عملها فى لوديان خمس سنوات متتالية ، ولكنها لم تتزعزع ابدا . وابتداء من عام ١٩٨٠ كانت لى قوى ليان تعمل فى لوديان من اكتوبر الى يونيو كل سنة ، وتشتغل فى اكاديمية العلوم الزراعية للمقاطعة من يوليو الى سبتمبر من كل عام ، وتظل هكذا دائمة الانشغال من بداية السنة الى نهايتها .

والمناخ فى محافظة لوديان ينتمى الى مناخ المنطقة شبه الحارة لأن ارض المحافظة منخفضة على ضفتى نهر هونغ ، فالجو هناك يصبح حارا رطبا بمجرد طلوع الشمس . ونظرا لعيش لى قوى ليان مدة طويلة فى مدينة قوييانغ حيث الجو اللطيف المعتدل فقد وجدت صعوبة بالغة فى تعود الجو الحار الرطب فى لوديان . فكانت فى العامين الاولين من اقامتها هناك لا تتمكن من النوم لشدة الحرارة والرطوبة ، ودائما ما تقوم من النوم فى منتصف الليل ، وكثيرا ما تصاب بالزكام ، ويعاودها بين حين وآخر التهاب المرارة ومرض المعدة لعدم قدرتها على تنظيم حياتها وقلة حصولها على الراحة . ومن اجل تلقين ونشر الفن الزراعى كان عليها ان تتسلق الجبال وتجتازها ، وتتنقل من قرية

الى اخرى سيرا على قدميها ، وتقطع احيانا ما يتراوح بين ٥ — ١٠ كيلومترات فى اليوم او ١٥ — ٢٠ كيلومترا فى احيان اخرى . وما اكثر ما تصببت عرقا وعانت فى مسيرتها الطويلة من اجل نشر الفن الزراعى!

وعندما يزورها الفلاحون للاستفسار عن بعض المعلومات الزراعية ، تجيبها عن جميع اسئلتهم مهما كانت متعبة ، وتشرح لهم بكل صبر واناة الى ان ينصرفوا راضين . ولشد ما كانت تحتاج الى النوم ! ولكنها لم تكن تستطيع تحقيق كفايتها لكثرة القرى الاخرى التى تنتظر مجيئها .

والسفر فى الريف امر شاق بالنسبة للمرأة لكثرة ما يسببه لها من متاعب ومضايقات معيشية فى الاكل او السكن . فالمبيت فى الفنادق الريفية التى قلما تنزل فيها النساء امر يقلقها ، وكثرة البعوض تعبق نومها ، وكثرة الكلاب مصدر خوف دائم بالنسبة لها ، فدائما ما تحمل معها الحصى لصد الكلاب .

وعند استعراضها لحياتها فى تلك الفترة من الزمن قالت : " ان تلك المصاعب قد تعودتها بمرور عدة سنوات ، والعيش بين جماهير الفلاحين هو نوع من السعادة ، وخدمة الفلاحين هو واجبى . ان هؤلاء الفلاحين لا ينسوننى . فكلما حل موسم الخضار المبكرة بين ابريل ومايو ، حملوا الى مقدارا منها لاذوقها علما انهم يضنون بأكلها . وكلما ذهبت الى قريتهم قدموا الى احسن مأكولات لديهم . وجميعهم ، رجالا ونساء وشيوخا واطفالا ، يدعوننى ' المعلمة لى ' تعبيرا عن محبتهم ".

لقد تطور انتاج الخضار المبكرة فى لوديان تطورا سريعا ، وحقق

فوائد كبيرة اقتصادية واجتماعية . ففى السنتين الاخيرتين ازدادت العائلات الفلاحية المتخصصة بزراعة الخضار الى ٥ آلاف عائلة او يزيد ، وبلغت مساحات حقول الخضار اكثر من ٥٦٠ هكتارا ، ووصل مجمل انتاجها السنوى ٩٣٨٠ الف كيلوغرام . وهذا الانتاج يتم تسويقه داخل المحافظة ، ويصدر منه الى اماكن اخرى فى المقاطعة وبعض المدن فى مقاطعة سيتشوان ومنطقة قوانغشى ذات الحكم الذاتى . وهناك عدد كبير من الفلاحين قد تخلصوا من الفقر بفضل مزاولة زراعة الخضار المبكرة ، ويسيرون الآن على الطريق المؤدى الى الرخاء .

لقد تفرقت عائلتى بعد ذهابى الى اوديان ، واصبح افرادها الثلاثة يقطنون فى ثلاثة اماكن . وزوجى يغادر البيت كثيرا فى مهمات رسمية . ودائما ما يحدث انه يغادر البيت وانا اعود اليه ، او انى اغادر البيت وهو يعود اليه . وبسبب تخصيص جهودى كلها للعمل لم اتمكن من الاعتناء به . وهو يقدر ظروفى ولا يلومنى ، بل على العكس يعتنى بى ، ويساعدنى فى ترتيب امور معيشتى ، فيبذل جهده فى شؤون طعامى وسكنى . وكان خلال اقامته فى البيت وحده يتناول الاكل فى المطعم ، ويصلح ثيابه بنفسه ، ولا يتذمر لعدم وجودى فى البيت ، بل يشتاق الى كل الاشتياق ويعتنى بى اعتناء مضاعفا . ولمعرفته بأنى اهتم بالنظافة وأحب تجميل البيت وتزيينه كبيت العرس ، فانه يقوم بتنظيف البيت وتنظيمه قبيل عودتى ليخلق جوا جميلا لاستقبالى ، وهذا ما اخبرنى به الجيران . ولقد فارقتنا ابنتى الى بيت جدتها فى مقاطعة خبى وقتا طويلا استمر ٥ سنوات . وعادت

الى بيتنا وهى طالبة فى المرحلة الاعدادية ، ولذلك اشعر بالاسف لعدم تأدية واجب الام كما ينبغى . وقد انخفضت نتائج دراستها لعدم توفر المساعدة الاضافية ، فخصصنا لها مدرسا يعطيها دروسا خصوصية فى البيت لتقويتها . ويؤسفنى انى من اجل ايمانى بمثلى الاعلى قصرت بحق زوجى وابنتى . "

تحس لى قوى ليان بوخز الضمير ، بينما زوجها وابنتها يخالفانها فى ذلك . وانهما واسعا الصدر متسامحان . وقد وصف زوجها فى رسالته الى ما كان يحسه فى قلبه قائلا : " بعد ارسال ابنتنا الى بيت والدتى بدأت اتناول الطعام فى المطعم . وبرغم ان هذا الطعام لم يعجبنى ، ولكننى آثرت ذلك توفيرا للوقت وتركيزا للجهد فى العمل . وكان كثير من زملائى يقولون لى عند تناولى الطعام فى المطعم بأنى عزب ، فأرد عليهم مبتسما : ' نعم انى عزب سعيد . ' اجل ، كنت اشعر بسعادة لأنى اعرف ان زوجتى تعمل فى الريف حيث تواجه من المشقات اكثر مما اواجه ، ولكنها تشجعنى على تحدى المصاعب فى الحياة " وعند ذكر ابنتهما قال : " ان ابنتنا تخاف البقاء فى البيت وحدها . وبعد ذهاب زوجتى الى الريف وقعت مهمة رعايتها على وحدى . ونهار الشتاء قصير ، ففى بعض الاحيان اعود الى البيت بعد انتهائى من العمل الرسمى وقد خيم الظلام . ورجع جميع الاطفال الى بيوتهم ليتناولوا العشاء مع آبائهم وامهاتهم فى بهجة وسرور . ولكن ابنتى هى الوحيدة التى تجلس وحدها على درجة السلم امام البيت منتظرة عودتى بتلهف . لذلك اضطررت الى ارسالها الى بيت والدتى فى مقاطعة خبى . " وهناك لقيت مراعاة جيدة من جديها ،

ولكنها برغم ذلك ظلت تشتاق الى والديها دائما ولا سيما لوالدتها . ولقد كتبت قصيدة تقول فيها :

القمر ارخى على الارض سترا فضيا شفافا
وينسج للبشرية احلاما جميلة
ولكن القمر قد لا يعرف ان
على الارض فتاة تنتظر فى حيرة
ايتها العمة القمر :
هل امى عندك ؟
اذا لم تكن عندك .
فأخبرينى من فضلك اين هى ؟
سأبحث عنها
ولو كانت فى اقاصى الدنيا !

وانتظرت المسكينة يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة حتى طال انتظارها خمس سنوات ، واخيرا رأت امها التى ظلت تشتاق اليها ليل نهار خلال تلك السنوات الخمس .. تلك السنوات التى تحولت فيها من طفلة الى فتاة فى المرحلة الاعدادية .

لقد تركت لى قوى ليان عائلتها جانبا خلال هذه السنوات الخمس ، ولكنها قدمت خلال ذلك اسهامات بارزة فى تنمية موطنها سعيا وراء تحقيق مثلها الاعلى . وفى عام ١٩٨٧ كانت الصحف ومحطات التلفزيون لا تزال تنشر مآثر لى قوى ليان فى مساعدة الفلاحين على التخلص من الفقر وتحقيق الرخاء ، وتشيد بروحها السامية المتمثلة فى تلقين الآخرين معلوماتها الزراعية بكل سخاء .

هوه جيان بينغ

– مديرة المصنع الشابة

شانغهاى هى اولى المدن الكبرى فى الصين ، وهى كثيفة السكان مزدهرة الاقتصاد ، ويمكن جس نبضات الاصلاح الاجتماعى الصينى فى هذه المدينة من مختلف نواحيها . وفى هذه المدينة تعرفت على شابة تدعى هوه جيان بينغ ، احدى مديرات المصانع الشابات الممتازات فى الصين . وهناك حكايات كثيرة عنها ، فاسترعت انتباهنا بطبيعة الحال وبعد محاولات كثيرة من الاتصالات الهاتفية وجدتها فى آخر المطاف ، وحددنا معها موعدا للقاء .

ولدى وصولنا الى مصنع المحبوكات الفنية فى شانغهاى وجدناها مشغولة بمعالجة امور الانتاج ، والى جانبها عدة اشخاص يجرون اتصالات حول مواضيع الانتاج . فقالت لنا سكرتيرتها تشو يوى تشنغ البالغة من العمر ٢١ عاما : " انتظروا قليلا من فضلكم . " فجلسنا هناك ، نلقى انظارنا على هوه جيان بينغ . لقد بدت صغيرة السن متدفقة الحيوية ، جريئة ، انيسة ، متواضعة ، تحمل كل صفات القياديين . وكانت تلبس سترة صوفية انيقة ، عليها زهور ملونة متلألئة كالنجوم فى السماء ومتفتحة كالورود فى الحديقة ، مما



هوه جيان بينغ

ترك فى نفوس النظار اثرا عميقا بعيد المدى . وخلال ذلك قدمت لنا السكرتيرة الشاى وقالت : " للاسف ان مديرة المصنع مشغولة بمعالجة امر مستعجل . "

١ ـ بطلة فى اصلاح البنية الاقتصادية

هوه جيان بينغ فى الواحدة والثلاثين من عمرها الآن ، تخرجت فى المدرسة الاعدادية وعمرها ١٧ عاما ، ثم دخلت مصنع المحبوكات الفنية فى شانغهاى ، واشتغلت تلميذة فى البداية . وبعد ذلك تولت منصب رئيسة فرقة العمال ، ورئيسة الورشة ، ونائبة مدير المصنع . ان مصنع المحبوكات الفنية فى شانغهاى مصنع جماعي الملكية ،

يقع فى بلدة لونغهوا بضاحية مدينة شانغهاى ، ومبانيه كانت فى الاصل معبدا قديما ، ومنه نحو ٣٦٠ عاملا ، ٨٠٪ منهم من الجنس اللطيف ، ومنتجاته الرئيسية هى الستر الصوفية والقبعات المحبوكة والمايوهات وغيرها من المحبوكات الفنية . كانت ظروف انتاج المصنع فى الماضى رديئة ، وادارته متأخرة ، ورواج منتجاته يعتمد كليا على دوائر التجارة الخارجية . لذلك لم تكن للمصنع قدرة تنافسية على مواجهة الاحوال الطارئة .

وفى عام ١٩٨٠ اختيرت هوه جيان بينغ نائبة لمدير المصنع ، مسؤولة عن الشؤون التكنيكية . وفى تلك السنوات كان المصنع بين بين ، تقدر ارباحه بثمانين الف يوان فى السنة . ولكن فى يناير ١٩٨٣ حدث كساد مفاجئ فى منتجات المصنع داخل الصين وخارجها ، فانخفضت ارباحه فجأة الى ما يقارب ١٠٠ يوان فى الشهر . وفى تلك اللحظة الحاسمة انبرت هوه جيان بينغ لتولى منصب مديرة المصنع ، الامر الذى رفع من حماسة عمال المصنع جميعا . ومنذ ذلك الوقت بدأت هوه جيان بينغ تجاهد فى غمرة الاصلاح .

قامت هوه جيان بينغ اولا بتحقيقات حول تطورات الاسواق ، ثم عقدت اجتماعا طارئا لمناقشة امور المصنع ، قالت فيه بوضوح : " ينبغى لمصنعنا ان ينتج وفقا لحاجة الاسواق ، وينبغى لمنتجاتنا ان تحظى باعجاب المستهلكين من حيث موضاتها وثمنها وجودة نوعيتها . وان مجرد الانهماك فى الانتاج دون استيعاب الوسائل الادارية الحديثة يؤدى الى الافلاس عاجلا ام آجلا . وان مصنعنا صغير ، لذلك يتميز بسهولة ' الدوران الى الوراء ' كمركب صغير فى الملاحة وبسهولة

' الانقلاب والغرق فى الماء ' . فاذا اردنا تغيير وضع مصنعنا الحالى ، علينا ان نبذل جهدنا فى اظهار التفوق والبحث عن طلبات السوق . وليس من الممكن ان نعتمد على الحكومة كليا فى ارقاتنا العصيبة . "
وفيما يتعلق بمبادئ الانتاج والادارة دعت هوه جيان بينغ الى الاهتمام بالتسويق داخل البلاد وخارجها فى آن واحدة ، والى الاهتمام بتحديث موضات المنتجات وتخفيض تكاليفها معا ، وبذل المساعى لترويج المنتجات فى الاسواق الداخلية والخارجية ، والاهتمام بنوعية المنتجات فى المقام الاول . وقد عملت هوه جيان ببيغ سويا مع جميع العمال والموظفين فى المصنع على انتاج المنتجات الجديدة وبحث وتصميم المنتجات ذات الالوان والموضات المتداولة مما جعل منتجات مصنعهم تتمتع بميزات خاصة . وسرعان ما لقيت منتجات هذا المصنع رواجا فى اسواق شانغهاى ، ثم اخذت تسوق تدريجيا فى ١٣ مدينة ساحلية فى الصين . وازداد عدد المصممين الفنيين فى المصنع من ٩ الى اكثر من ٢٠ مصمما . وحثتهم هوه جيان بينغ على بذل جهردهم لتصميم المنتجات المستجدة او الفريدة حتى يتمكن المصنع من تزويد الاسواق بمنتجاته المتجددة فى الوانها وموضاتها باستمرار . وانبعث المصنع نابضا بالحياة ، مفعما بالحيوية . وفى عام ١٩٨٤ صدر هذا المصنع اكثر من ٣٠٠ نوع من منتجاته الجديدة الى اكثر من ١٠ دول ومناطق خارج البلاد ، بما فيها الولايات المتحدة وكندا واليابان . ولكن هوه جيان بينغ لم تكن تقنع بما تحقق ، وانما تفكر دائما فى تجديد المنتجات (حينذاك كنت اعتقد ان تلك السترة الصوفية التى تلبسها قد تكون عينة من الموضة الجديدة ، لأنى لم اجد

فى شانغهاى مثيلها او ما يشابهها) . انها حادة الذهن فى اكتشاف الاقمشة الجديدة الملائمة لانتاج المنتجات الجديدة ، وتستطيع ان تصمم بنفسها المنتجات الحديثة الموضة التى تلقى الاعجاب والتقدير المشترك من الآخرين . وفى نظرها ان الاسواق ميدان الحرب الذى يقرر الحياة او الموت ، وترى ان المصنع يجب ان يقرر انتاجه وفقا لحاجات الاسواق من جهة ، وان يثير الاستهلاك بمنتجاته الجذابة من جهة اخرى ، وبذلك فقط يمكنه ان يحقق النجاح تلو النجاح .

جرى الانتاج فى هذا المصنع الصغير بصورة جياشة ، وتضاعفت طلبات الاسواق الداخلية لمنتجاته ، كما لقيت منتجاته مزيدا من الاقبال فى الاسواق الخارجية . وكان من بين منتجات هذا المصنع سترة صوفية رآها احد الاساتذة فى معهد الفنون والاشغال اليدوية المركزى ، فقدرها تقديرا عاليا ، قال انها تمتاز بتناسق الوان وجمال الشكل ، وتعتبر نادرة الوجود فى تاريخ انتاج الستر الصوفية . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى نالت هذه السترة الجائزة بين منتجات الاشغال اليدوية الفنية على نطاق البلاد . وفى معرض عينات الملابس الذى اقامته بالاشتراك كل من مؤسسة الملابس فى شانغهاى ومؤسسة هوارون فى هونغ كونغ وقع اختيار التجار الاجانب على ٨٠ عينة من ١٠٠ عينة جديدة مقدمة من مصنع المحبوكات الفنية الذى تديره هوه جيان بينغ . وبذلك دخلت منتجات هذا المصنع الاسواق الخارجية . وازدادت طلبات السوق للمنتجات بسرعة ، فكيف يضمن المصنع تقديم الكفاية من منتجاته ؟ وهل يستطيع المصنع من حيث المعدات والايدى العاملة ان يتحمل هذا الضغط الكبير ؟ فكرت هوه جيان بينغ فى ذلك .

واجرت هوه جيان بينغ مشاورات ومناقشات ودراسات مع مجموعة من الخبراء فى المصنع لاتخاذ الوسائل الفعالة . وكان قرارهم الاخير مواصلة الاصلاح . فأصلحت تلك الانظمة واللوائح القديمة ، ووضعت انظمة ولوائح جديدة . فمثلا حددت حصة العمل لكل عامل ، وبدأ تطبيق الاجور العائمة ، اى تطبيق مبدأ " من ادى كثيرا من العمل ، كسب كثيرا من الاجر" . وقد أيد بعض العمال قرار الاصلاح هذا بعد اعلانه ، وعارضه بعضهم الآخر . وكان هناك من قاموا بالاضراب عن العمل ومن تدفقوا الى مكتب مديرة المصنع جماعات ، يندون بها قائلين : " انتم اقسى من الرأسماليين . أليس هناك نظام اجور لمجتمعنا الاشتراكى ؟ "

لم تخضع هوه جيان بينغ امام هذه الصعوبات الكبيرة ، بل عقدت العزم على مواصلة الاصلاح واجراء الاختبارات . وفى الشهر الاول لم ينجز معظم العمال مهام اعمالهم المحددة ، فخصمت هوه جيان بينغ من اجورهم بلا رحمة . وفى الشهر الثانى تغير الوضع اذ ان معظم العمال انجزوا مهام اعمالهم المحددة ، ولكنهم لم يتجاوزوا حجم الانتاج المطلوب ، فلم تعطهم هوه جيان بينغ مكافآت تجاوز الانتاج . وكان هناك عاملة شابة لم تشتغل من الشهر الا يومين ، فلم تحصل من راتبها الا على ٨ يوانات ، اى نفقة المعيشة الاساسية . فاتجهت هذه العاملة مع زوجها وطفلها الى مكتب مديرة المصنع لتشتكى اليها ، ووضع زوجها الطفل فوق مكتب المديرة وصرخ بملء فمه : " اصبحنا عاجزين عن اعالة الطفل ، فتفضلى باعالته يا حضرة المديرة ! " اشتد غضب هوه جيان بينغ من هذه

المرأة المشاكسة ، ولكنها كتمت غيظها وقالت لزوج هذه العاملة : " اهدأ ولا تصرخ ودعنا نقول الحق . اذا كنت زوجا طيبا ، فعليك الا تقبل بأن تكون زوجتك كسولة . ان زوجتك لم تشتغل فى الشهر الماضى الا يومين ، فهل من معقول ان اعطيها ما جناه الكادحون الآخرون من الاموال بالعرق والدم ؟ من لا يعمل يجب الا يحاول الحصول على مقابل . وان لم تقتنع بذلك ، يمكنك تقديم شكوى الى اية هيئة من الهيئات العليا ، وانا مستعدة لمصاحبتك . " عندما سمع الزوج كلام مديرة المصنع قال متأسفا : " لم اسمع فى البداية الا كلام زوجتى ، فأسأت الفهم والآن عرفت حقيقة الامر ، فلا تآخذينى يا حضرة المديرة ... "

ولم يمض على ذلك الا وقت قصير حتى ظهر فى المصنع من ينشرون شائعات ويخلقون مفتريات حول سلوكها فى تعاملها مع الرجال سعيا منهم لاساءة سمعتها وتثبيط عزمها على الاصلاح واخضاعها فى نهاية الامر بهذه الوسيلة الدنيئة السافلة . وبلغ السخط بهوه جيان بينغ اشده ازاء تلك المفتريات القذرة لأنها ما زالت فتاة غير متزوجة ، ولكن ذلك لم يثبط عزمها على مواصلة الاصلاح من اجل تحقيق الرخاء لعمال مصنعها ، وهذا هو غرضها من تولى منصب مديرة المصنع . وبالرغم من ان معظم رؤساء المصانع ومدراء المؤسسات فى الصين حاليا هم من الرجال ، لكن هوه حيان بينغ عازمة على ان تكون مديرة للمؤسسات الصناعية . كان لهوه جيان بينغ خطيب ولكنه ، لم يكن يريد لها ان تكون مديرة ، وانما زوجة فاضلة وأما طيبة ، لذلك قال لها :

ـ اذا اصررت على البقاء مديرة مصنع ، فلا يسعنا الا ان نفارق بعضنا بعضا من الآن .

فقالت :

ـ الا يمكن ان نتشاور فى الامر ؟

ـ لا داعى لاى تشاور .

ـ فلنتفارق من الآن !

قالت هوه جيان بينغ هذه الكلمة الاخيرة ملوحة بيدها لخطيبها هذا كأنما تزيح سحابة دخان من امام عينيها . وقالت فى نفسها : ان مثل هذا الانسان الذى يزدرى طموحى الى هذا الحد لا يجدر بى ان احبه !

يصعب على المرأة حقا تحقق طموحها . وحذرها زملاؤها وزميلاتها بصدق واخلاص قائلين :

ـ عليك يا هوه جيان بينغ ان تحطمى حصار الشائعات والمفتريات ، وان تظلى صافية الذهن ازاءها . فاذا تمكن منك الغضب ، فان جهودك للاصلاح فى مصنعنا ستذهب ادراج الرياح ، وستفقدين بذلك مستقبلك ايضا . عليك ان تفكرى فى الموضوع مستعيدة فى ذهنك التاريخ الماضى . ان العمال قد قبلوا النزعة المساواتية المطلقة فى نظام الاجور وتعودوها عشرات السنين . والآن قد انكرت نزعة المساواة المطلقة ، وبدأ تطبيق مبدأ " من ادى كثيرا من العمل ، كسب كثيرا من الاجر " ، فكيف يمكنهم ان يقبلوا هذا الامر الجديد بسرعة . ان قبولهم يحتاج الى وقت ، وهذا هو مكمن الصعوبات فى وجهه الاصلاح . ويمكن القول بأن الاصلاح عملية مؤلمة لكل

شخص فى تركه ما هو قديم وقبوله ما هو جديد ، لكن بعد اجتياز هذه العملية سيحقق المرء قفزة فكرية وسيقبل المفاهيم الجديدة والحياة الجديدة بارتياح ، وعلينا ان نثق بذلك ثقة تامة .

قبلت هوه جيان بينغ هذه النصيحة الصادقة ممتنة اعظم الامتنان ، وصمدت فى وجه جميع انواع اللوم والتنديد وتلك المفتريات المحضة . وفى الشهر الثالث بعد بدء الاصلاح نالت عاملة تلميذة ٨٦ يوانا من المكافأة الشهرية مقابل عملها الكدود برغم انها دخلت المصنع قبل سنة ونصف السنة فقط ، فأثار هذا الامر صدى ايجابيا قويا فى المصنع . وكان هناك ٨ عمال قد طلبوا الانتقال فى بداية الاصلاح من الورشة الى مواقع العمل الاخرى ، اما الآن فقد طلب ٦ منهم العودة الى الورشة . وان اولئك الذين يحاولون اجبار هوه جيان بينغ على خفض كمية العمل المحددة بواسطة اثارة الاضطرابات والتباطؤ فى اداء العمل واختلاق الشائعات قد خاب املهم الآن . واما اولئك العمال المترددون المترقبون فقد وجدوا الآن قدوة لهم وزادوا من ثقتهم بالاصلاح . وفى الشهر الرابع بدأ تطبيق نظام المقاولة على وحدات او فرق صغيرة فى المصنع بصورة موفقة ، مما رفع انتاجية العمل فى هذا الشهر الى ٧٠٪ . وتجاوزت مكافآت كثير من العمال فى هذا الشهر الاجور التى يتقاضونها .

وهكذا بدأت العقول المقفلة تتفتح الآن رويدا رويدا . . .

وذات يوم ماطر من مايو عام ١٩٨٤ جاء عمدة مدينة شانغهاى ومرافقوه الى هذا المصنع الصغير حيث استمعوا الى تقارير عما جرى فيه من اصلاح البنية الاقتصادية . ومنذ ذلك الوقت اخذ يتوافد على

هذا المصنع الكثير ممن يزاولون نفس المهنة او غيرها لتعلم الخبرات . وصارت هوه جيان بينغ مديرة بارزة بين مديرى المؤسسات الصناعية على نطاق البلاد .

وقالت سكرتيرتها تشو يوى تشنغ : " فى عام ١٩٨٦ قدم مصنعنا الى خزينة الدولة ١٫٣٦٠٫٠٠٠ يوان من الارباح ، ولا يزال مصنعنا فى انطلاق . لقد درست مديرة مصنعنا جميع المواد الدراسية الجامعية لقسم ادارة المؤسسات الصناعية بواسطة التلفزيون ، وتطبق كل ما استوعبته من تلك المعلومات الادارية فى اصلاح وادارة مصنعنا . ولذلك تحظى منتجات مصنعنا حاليا باقبال عظيم من دوائر التجارة الخارجية . والسترة الصوفية الجميلة التى تلبسها مديرة مصنعنا اليوم عينة صممتها المديرة بنفسها ، وقام عمال مصنعنا بتجربة صنعها ، وستنتج رسميا فى المستقبل العاجل . "

٢ ـ قوية فى الحياة

بعد انتهاء هوه جيان بينغ من معالجة الامور المستعجلة أجرت معنا احاديث صريحة ، اعربت خلالها عن موقفها الواضح من الحياة . انها بصفتها مديرة مؤسسة صناعية تتحلى بالجرأة والحكمة ، وبصفتها امرأة تفيض عاطفة وطموحا ، وقد احسسنا من خلال حديثها بأنها امرأة قوية فى مختلف نواحى الحياة .

مختلف المذاقات

لقد شاهدت هوه جيان بينغ الفيلم الجديد « قدرة المرأة » الذى يبرز نشاط للنساء الاصلاحيات فى الصين ، فحدثتنا عنه فى انفعال : " ان فى مجتمعنا عددا غير قليل من الناس يعتقدون ان مديرات المصانع نساء حديديات مخيفات ، ولكن مديرة المصنع فى فيلم « قدرة المرأة » امرأة عادية ذات مشاعر قلبية فياضة . واذا ارادت مديرة المصنع فعل الاعمال الحميدة ، فانها ستتذوق مختلف انواع المذاقات ، الحامض منها والحلو والمر واللاذع . ان مشاعر المرأة دقيقة ، فمن السهل ان تكون عطوفا ، ومن السهل ايضا ان تشوه صورتها على يد الآخرين . وقالت مديرة المصنع فى هذا الفيلم انها لا تجد مكانا هادئا لتبكى فيه . وانا عندى نفس الاحساس . فاذا ظهر على وجهى سيماء غير حسن ، فسيؤثر ذلك فى عمل فى المصنع كله ، ولذلك على ان اكبح مشاعرى فى جوفى قدر الامكان ، وعلى ان آخذ احترام الذات وحب الذات بعين الاعتبار . " ان تجاربها فى الحياة ووضعها فى الاصلاح قد جعلاها تحس بأنها فى حاجة ملحة الى ان يفهمها الآخرون . ان مشاغلها كثيرة ، وتعمل ما يتراوح بين ١١ و١٢ ساعة فى اليوم ، وتظل مشغولة الذهن طول اليوم ، ودائما ما تعود الى بيتها فى منتصف الليل ، ولاتكاد تستلقى على سريرها احيانا حتى يأتى شخص من المصنع للحديث معها عن العمل او معالجة امر مستعجل . ودائما ما تستيقظ ليلا ، وتتوجه فورا الى المصنع ،

ولا تعود الى بيتها ثانية الا وقد انبلج الفجر ، واوشك يوم العمل الثانى على البدء . ولكنها برغم مشاغلها الكثيرة تفيض دائما نشاطا وحيوية ، كأنها نهر كبير تتدفق مياهه الى الامام بلا انقطاع . وقد قالت لنا : " اصبحت بعد اكتوبر عام ١٩٨٤ شخصية مشهورة فى الاصلاح . واشتهار المرأة ليس امرا سهلا ، وانما هو قائم على اساس العمل الكدود . ان المرأة العادية ليست امامها فرصة للاشتهار . غير ان ذيوع الصيت جلب بها الضيق كذلك ، وهذا لا يعرفه كثير من الناس ، وكنت لا اعرف ذلك ايضا قبل ذيوع شهرتى . لقد احرزت بعض النجاحات فى طريق تحقيق طموحاتى ، ولكنى دفعت من اجل ذلك ثمنا باهظا . انى شابة طموح تتطلع الى العلاء باستمرار ، وانى مستعجلة كذلك لتحقيق تطلعاتى الواحد تلو الآخر . فى عامى ١٩٨٣ و١٩٨٤ عشت بين اصوات المدح والثناء ، وهذا اعتبره حلاوة الحياة . اذا حقق المرء فى عمله نتائج ملحوظة ولقى اعترافا بها من المجتمع ، فان ذلك امر يسعده ايما اسعاد فى كفاحه من اجل قضيته المنشودة ، بل ليس هناك شىء اسعد من ذلك ابدا . وقد تعرضت لاستنكار العائلة والاصدقاء لمثابرتى على الاصلاح واضطلاعى بمنصب مديرة المصنع . وان اكبر ضيق لدى المرأة ان يعتبر الناس قوتها عيبا فيها . وفى المجتمع اليوم اناس يتخذون موقفا متحيزا جامدا ضد المرأة القوية ، ويرون انها تعمل فقط فى سبيل قضية عملها ، ولا تعرف معنى الحياة ولا الحب ولا العطف . وموقفهم منى انا كذلك . وهناك صحفيون كتبوا مقالات وصفونى فيها بامرأة تنهمك فى قضيتها المنشودة وتتميز كالرجل بالعنف والشدة . ان وصف المرأة بالرجولة يشكل اساءة للمرأة . وللاسف

ان بعض الناس لا يفهم جرأة المرأة على الانهماك فى قضيتها المنشودة .
انني سعيدة بتركيز جهودى على قضيتى المنشودة ، ومن دونها اجد حياتى عديمة المعنى . ولكنى احتاج كذلك الى الحياة العاطفية الفياضة ، والا ظلت حياتى ناقصة .

بقيت كئيبة وحزينة فترة من الزمن لأن بقايا الافكار الاقطاعية ما تزال قائمة فى مجتمعنا هذا ، وقد تسللت الى مختلف مجالات الحياة ، تفسد نفوس الناس وحياتهم . وانتم تستطيعون ان تلاحظوا ذلك من تجاربى . وانى فى وجه تلك الشائعات والمفتريات لست هادئة فى اعماق قلبى برغم انى غير هيابة فى الظاهر . هناك اناس لا يفهمون مقياسى فى الحب والزواج . لقد توليت منصب قيادة المصنع ، وصعدت مسرح الشهرة بدفع من امواج الاصلاح ، لذلك اطالب نفسى بعدم الخضوع امام الصعاب فى اى حال من الاحوال ، كما ألتزم باحترام الذات والثقة بالنفس .

وبرغم الاكاذيب والمفتريات التى اختلقها بعضهم حول حياتى الشخصية مازلت اشعر أنى سعيدة الحظ ويسعدنى ان هناك عددا كبيرا جدا من الناس يفهموننى ويعتنون بى . لقد تعرضت لاصطدامات التيارات المعاكسة ، وفى وجه هذه التيارات المعاكسة كان على ان اظل صافية الذهن قوية العزم ، وبذلك تخلصت من الهموم والاحزان واجتزت الصعاب .

مصنعى يتطور تطورا مستقرا وسليما ، وقد دخل فى المدار الطبيعى لادارته الصارمة العلمية . ولمصنعى هيئة قيادية حسنة متكونة من مديرة المصنع ونائبتيها ونائبها ، واعمارهم فى الثلاثين تقريبا ، وثقافتهم

بمستوى التعليم العالى . وقد زار معظمنا الدول الاجنبية ، وخبرتنا جعلتنا لا نضع مصلحتنا وشهرتنا الشخصية فى المقام الاول . واننا نتضافر فى العمل تضافرا وثيقا ، وكل منا يحرص ان يكون بطلا مجهولا ، وهذا الوضع يسعدنى جدا . ولولا هذه القيادة الجماعية ، لما وصلت الى ما انا عليه اليوم . فى عام ١٩٨٧ سيستورد مصنعنا من الخارج "مناويل جاكار" باستخدام قرض قدره ٤ ملايين يوان ، وسيتم فضلا عن ذلك توظيف ٤ ملايين يوان اخرى لبناء ٨ آلاف متر مربع من مبانى الورش الجديدة . وقد نالت منتجات مصنعنا جائزة الكأس الفضى فى الدورة السادسة لمسابقة بايهوا لمنتجات الاشغال اليدوية الفنية ، ونال مصنعنا جائزة بوصفه مؤسسة صناعية ممتازة فى ادارة نوعية المنتجات فى مدينة شانغهاى . ولذلك اشعر بسرور وغبطة وحماسة واندفاع بغض النظر عن المفتريات والمضايقات .

الشريك المثالى

هوه جيان بينغ فتاة طموح تحب الحياة ، وقد اعربت عن آرائها قائلة : " ان المرأة من دون قضية منشودة تصبح حياتها عديمة المعنى ، ومن دون حب لن تشعر بسعادة . واقوى متفان فى سبيل القضية المنشودة لابد ان يتطلع الى حياة الحب . والمرأة القوية ستتطلع الى حياة الحب مثلما تعتز بقضيتها المنشودة . وعلى الرغم من انى قد بلغت الواحدة والثلاثين واصبحت كبيرة السن فى انظار الناس وصار اختيار شريك الحياة امرا صعبا ، الا انى لم ايأس ، ولا اريد العزوبة على

الاطلاق . واذا كان من الضرورى ان ادفع ثمنا او اضحى بشىء مقابل الحصول على الحب الحقيقى ، فانى موافقة على ذلك .

واتمنى ان يكون شريك حياتى المنشود كالآتى : احرز نجاحه بالاعتماد على كفاحه لا على عائلته ، وخاض اختبارات كثيرة ، او حنكته الايام ، فذاق المرارة ثم الحلاوة . فشاب من هذا النوع من السهل التفاهم معه وايجاد لغة مشتركة بينى وبينه . اما اذا لم يكن كذلك ، او كانت حياته ميسرة موفقة ، فمن الصعب جدا ان يفهم ما عانيته من المشقات فى سبيل تحقيق نجاحى . اننى لا اتطلع الا الى من يتحلى ببعض الصفات الطيبة ، ولا تهمنى ظروفه العائلية . اما تجاربه العملية او مؤهلاته الدراسية العملية فتهمنى كثيرا ، اذ عليها يتوقف مصير الانسان . "

تعيش عيشة متكاملة الالوان

" اننى الى جانب اهتمامى بعملى اهتم كذلك بتنويع هواياتى وتنويع حياتى حتى اعيش حياة سارة . قال بعضهم انى امرأة تعيش عيشة متكاملة الالوان . وظروفى العائلية حسنة ، وانى اشتغل اوقات الفراغ فى قراءة الروايات ومشاركة الاصدقاء فى تذوق الاطعمة الشهيرة فى المطاعم . واحب تصميم الملابس كذلك . وجملة القول احب تلوين الحياة . واظن ان الانسان يجب ان يعيش عيشة متكاملة الالوان . "

فى مجرى الاصلاح الحالى فى الصين انبثقت مجموعة من الاداريين الاقتصاديين الشباب ، ومن ضمنهم اداريات شابات . وتجارب هوه

جيان بينغ الحياتية فى قضيتها المنشودة ومشاعرها العاطفية ذات صفة عامة وخصوصية لأنها تمثل مشاعر النساء القويات فى حالات الفرح والحزن والسرور والغضب .

شن شين تشيوان

ـ صاحبة دكان الدجاج

كان فى شارع دونغهواشى فى حى تشونغون بمدينة بكين دكان صغير لا تزيد واجهته عن المتر الا قليلا ، ولكنه ذائع الصيت ببضاعته الفريدة ـ دجاج متبل شهى سائغ الطعم طيب الرائحة . فلقى اقبالا كبيرا من الزبائن الذين اخذوا يتواردون اليه قبل فتحه فى الساعة الرابعة مساء . وحظيت صاحبته شن شين تشيوان بلقب "آشين الصينية" (آشين بطلة المسلسل التلفزيونى اليابانى "آشين" ـ التى عملت بجهد جهيد حتى تحولت من فتاة بائسة الى صاحبة مؤسسة ضخمة) .

فى شتاء عام ١٩٨٦ ، عندما شرعنا فى تأليف هذا الكتاب ، قمنا بزيارتها فانتزعت اعجابنا واحترامنا بصمودها امام حياة البؤس والشقاء . ولكن ما كدنا ننتهى من مقالتنا عنها حتى فوجئنا بخبر فى الصحيفة مؤداه انها ضبطت بتهربها من الضرائب وبانحرافها السلوكى ، فاختفت بغتة ! كيف نقبل هذا الخبر وقد تأثرنا بصدقها وتحمسها للتفوق فى العمل ؟ ذهبنا للتحقيق فى امرها ، ولكن لم نتوصل الى اية نتيجة اذ لم نعثر لها على اثر ! ومع ذلك ظلت موضع اهتمامنا فكم نود ان ترجع لتحيط الزبائن بالاهتمام والعناية وتزيد حياتهم متعة

وسرورا . اننا دائما ما نتذكر فى هذه الايام الحكايات التى حدثتنا بها شن شين تشيوان ......

طفولة بائسة

عمرى ٣٣ سنة . ولدت بعد تأسيس الصين الجديدة ، وعشت طفولة بائسة . فقد توفيت والدتى بالسل الرئوى الذى ما كان له دواء ناجع يومذاك ، وكنت فى السابعة من عمرى واخى طفل لم يتجاوز السنة . فتزوج والدى امرأة ، عاملتنا انا واخى بقسوة ، اذ كان دخل والدى ضئيلا بينما العائلة كبيرة . كانت تطعمنا خبز الذرة والفلفل الاحمر المملح ، اما ثيابنا فلم تكن تحمينا من البرد القارس فى الشتاء . وهكذا نشأت فى البؤس والحرمان قوية الارادة منطوية على نفسى .

وفى الثالثة عشرة من عمرى نشبت " الثورة الثقافية " فاذا بوالدى — سائق سيارة — يتهم باستعداده السرى لشن انتفاضة ، فقبض عليه ، وسيق الى الشوارع لفضحه والى الاجتماعات لدحضه ونقده . وقد شاب شعره فى اقل من نصف شهر . وطردنا من بيتنا الى غرفة متداعية ، صفر الايدى ومن دون معيل بوصفنا عائلة مجرم . فخرجت باخوتى الصغار نلتقط من القمامة ما يسد رمقنا .

وبرغم ذلك كله لم اخضع لظلم الحياة ، بل عزمت على المقاومة . وعندما اجبرت زوجة والدى على تكنيس الشوارع ذهبت بدلا منها ، أجابه من ظلمنا . وذات يوم جاء ولد وناولني بعض النقود

قائلا : " ائتيني برغيف يا ابنة الكلب ! " فرميت نقوده على الارض وقلت : " اذهب بنفسك ! " فهجم على ليضربني ، فأنذرته بلهجة صارمة : " سأقتلك ان ضربتني ! " فتركني ومضى خائفا . وصادفته قبل سنوات عديدة فى الشارع فابتعد عنى خجلا ، ولم يعرف اننى صفحت عنه منذ زمن طويل .

وذات يوم ذهبت ببعض الطعام لزيارة والدى الذى كان فى اجتماع النقد ، يقف امام الجمهور الثائر وقد تصبب عرقا ، اصبت بألم شديد ، وتقدمت اجذبه الى حيث المقعد مما بعث الدهشة فيمن حوله . ومن اجل اعادة الاعتبار لأبى ذهبت الى المدرسة نهارا ، اذ كنت فى السنة الخامسة الابتدائية ، وكتبت ليلا شكوى على ورقة بحروف كبيرة الحجم لأنقض التهمة عن والدى . ومن ثم اتقنت فن الخط جيدا .

وفى عام ١٩٦٩ بلغت حملة نزول الشباب من المدن الى الارياف اوجها فى انحاء الصين . وتبادر الى ذهنى وانا فى السادسة عشرة من عمرى ان اكسب الرزق من عرق جبينى فعائلتى تعانى اشد الحرمان . فسافرت بأختى (١٢ سنة) مع بعض الفتيان والفتيات من بكين الى منطقة شيشوانغبانا النائية فى يوننان جنوب غربى الصين ، حيث تتجمع الاقليات القومية . وشرعنا نعمل فيما لا عهد لنا به من قبل ، مثل بناء المنازل وبناء السدود وازالة الغرين من الانهار وزراعة الارز والخضار وغرس شجر الزيتون . وهكذا عشنا حياة صعبة ، ونحن فى العقد الثانى من عمرنا ، فقد تغربنا عن الاهل لنقيم فى غرف قشية بنيناها بأيدينا ، ونأكل طعاما بائسا ، ونعمل اكثر من عشر ساعات

فى اليوم ، او نقطع عشرات الكيلومترات عبر الجبال لبناء السدود .
وما لبث ان تشاءم بعضنا بالمستقبل وتذمر الآخرون من الحياة .
اما انا فقد صممت على تحمل هذه البيئة الصعبة معتقدة ان المشقة
تقوى الارادة وتشحذ العزيمة . وملأت اوقات فراغى بنشاطات ممتعة
مفيدة ، فتعلمت الرسم وعلاج الوخز بالابر والحقن . وما زلت محتفظة
حتى الآن ببعض الرسوم التى تذكرنى بمسيرة حياتى .

عشت مع زملائى وزميلاتى كاخوة واخوات ، اعتنى بهم برغم
انى اماثلهم فى السن . كانت معنا فتاة تدعى تشن تشينغ تشنغ ،
اصيبت بمرض عصبى ، فترددت اليها بعناية فائقة حتى نجحت فى
اخذها الى المستشفى ، بينما تباعد عنها الآخرون كراهية واحتقارا .
وعندما مرضت فتاة اخرى ثقيلة السمع تدعى لوى فى يى بالسل
الرئوى لم تتمكن من الحصول على رخصة بالانتقال الى بكين لقلة
عدد المسموح لهم بذلك ، فتنازلت لها عن حقى وانا منكوبة بالتهاب
الكبد وانتفاخ البطن ، ولكنى واثقة بشبابى ومستقبلى .

البداية الصعبة

وفى يوليو ١٩٧٦ انتقلت الى بكين لأواجه مشكلة التوظيف ،
اذ رجع الشبان الى المدينة على دفعات كبيرة متتابعة . فعندما جاء
احد الموظفين فى ادارة حينا السكنى الى بيتى ، وكنت حينذاك قد
تزوجت ، وقال انه سيساعدنى فى ايجاد وظيفة ، صدقناه انا وزوجى
بكل سذاجة ، وبعنا كل ما له قيمة فى البيت لنقدم لهذا الموظف

هدايا بمقدار ألف يوان . لكنه لم يف بوعده وتجنب لقاءنا حين لم يبق لدينا ما نقدمه له . فلم اجد بدا من حمل ولدى والذهاب به الى مكتب الاستقبال فى حكومة المدينة لأشرح وضعى واشتكى على هذا الموظف . فعينت بعد عدة ايام بائعة فى احد المتاجر الحكومية ، ونال الموظف الدجال جزاءه المستحق .

وسررت جدا بحصولى على العمل ! واصبحت اول من يصل الى المتجر وآخر من يغادره ، ويتم اختيارى بائعة ممتازة كل سنة . ولكن شعرت تدريجيا بقيود كثيرة تكبل افكارى فى التجارة لأن المتجر الحكومى لا يقبل بالآراء الفردية . فتسللت الى خاطرى رغبة صادقة فى فتح دكان لنفسى .

فى الماضى كان جدى يدير بمهارته دكانا لدجاج يويشى المعالج بطريقة جنوب الصين ، وكان جد زوجى كذلك يدير دكانا لدجاج دتشو المعالج بطريقة الشمال . أفلا استطيع ان استفيد من طريقتهما فأعد دجاجا معالجا بطريقة تخص بكين ، ثم افتح دكانا خاصا ؟

وعقدت العزم اخيرا على الاستقالة ، بينما نصحنى زملائى قائلين : " فكرى جيدا ! ألا تندمين على ترك العمل المستقر والدخل المضمون ؟ " وقال مدير المتجر فى مودة : " ارجعى الينا اذا ما خسرت . " فشكرتهم على عنايتهم ، واستقلت من العمل واثقة بقوتى ، ودبرت مالا انشأت به دكانى .

كانت البداية اصعب بكثير مما تصورت . فما جاءنى اى زبون فى الشهر الاول من فتح الدكان مع اننى حرصت على الوقوف خارج البوابة كل يوم اعرض بضاعتى . فالناس لم يلتفتوا الى ، بل

انحرفوا عنى ولم يحاولوا حتى السؤال عن السعر لمجرد ان دكانى غير حكومى . فقد غشهم بعض التجار الفرديين ، فلم يعودوا يطمئنون الا للتجارة الحكومية . وبرغم ذلك رحت انادى بحماسة : " هيا الى الدجاج المصنع بطريقة الاجداد ! ثمنه ارخص مما فى المتجر الحكومى ! " فسخر منى بعض الفتيان قائلا : "كفاك هراء ! ألم يتباه كل من يبيع الدواء المزيف بأنه تقليدى متوارث ؟ " فانتابنى حزن عميق من آراء المتعصبين .

وركدت التجارة منذ البداية فهجرنى شقيقا زوجى اللذان يعملان معى ، وبقيت وحدى . وخجلت من الرجوع الى المتجر الحكومى ، فاضطررت الى المثابرة بكل صبر . وفى الليل اخذت أتقلب فى الفراش وابحث عن مخرج ، فتذكرت كيف بعت فى اسبوع واحد ٥٠٠ كيلوغرام كاسدة من العناب فى المتجر الحكومى من خلال دعوة الناس الى التذوق قبل الشراء . اذن لماذا لا اجرب هذه الطريقة فى بيع دجاجى ؟

وفى فجر اليوم التالى قمت من السرير وعملت بدقة بالغة ، فغسلت الدجاج ودهنته بالعسل ثم قليته وتبلته . ثم اخترت اكبر دجاجة متبلة وقطعتها قطعا متعددة ، ووضعتها فى الصحن ودعوت الزبائن للتذوق . فاذا بى احقق ما اريد بهذه الطريقة الناجحة ! واثنى على دجاجى المتبل كل من ذاقه ، واشتراه دون تردد .

وهكذا بعت اول دفعة من بضاعتى . ومن ثم ازدادت كمية البيع سريعا من بضع عشرة دجاجة فى اليوم الى ٧٠ او ٨٠ ثم الى اكثر من ١٠٠ دجاجة ، وقد بلغت عدة آلاف في العيد . وبعد شهرين

من فتح الدكان زادت قيمة المبيعات الشهرية عن ١٠٠٠ يوان . وبعد نصف سنة بلغت ٣٥٠٠ يوان اما الآن فتبلغ ١٠ آلاف يوان .

الامانة والحماسة تكتسب الثقة

نال دكانى شهرة لا بأس بها من خلال عنايتى بالزبائن وصدقى فى معاملتهم فالمثل الصينى يقول : " الامانة تجذب الزبائن من انحاء الدنيا والسمعة الحميدة تأتى من الثقة العليا . " فوضعت شعارا عاما لدكانى هو مراعاة مصالح الزبائن وتلبية طلباتهم . وتمثل ذلك فى جملة من القواعد ثابتة كالتذوق قبل الشراء والبيع الكثير بالربح القليل وايصال البضاعة الى منازل المسنين والمرضى وقبول الطلبات المسبقة ومساعدة الزبائن فى تتبيل دجاجهم بلا مقابل والسماح بالدين وترك الفئات التى تزيد فى فاتورة الحساب .

ورحت استقبل الزبائن بحرارة ، فأقول لمن جاءنى لأول مرة : " لقد شرفتنا بزيارتك الاولى ! ارجو ان تشترى دجاجة صغيرة وترجع لشراء اخرى اذا اعجبتك او لنقدنا اذا خيبت املك . " واقبل على من لا يروم شراء دجاجى بنفس الحرارة : " على كل حال حضورك شرف عظيم لدكانى . " وارتاح الزبائن للطفى وصدقى فى معاملتهم ، وقال بعضهم متأثرا : " اننى معجب بخدمتك قبل كل شىء . "

حدد ثمن الكيلوغرام الواحد من حواصل الدجاج المتبل بستة يوانات فى المتاجر الحكومية ، ولكننى بعتها بيوان واحد للمسنين والحوامل والاطفال او الذين جاءوا بعد ان نفدت بضاعتى .

ذات يوم ناولت دجاجتى الاخيرة زبونا فاذا برجل تقدم من ورائه للقبض عليها قائلا : " هاتيها ! تأخرت دقيقة واحدة فقط . وفوق ذلك يلح والدى المسن فى اكل دجاجك المتبل . " فاستشاط الزبون غضبا : " ألا تعرف الادب ؟ لقد زارنى اصدقاء وطلبوا ان اقدم لهم هذا النوع من الدجاج المتبل فى الوليمة . " فنصحتهما قائلة : " هدئوا روعكم . لنحل المشكلة بالتشاور . من رأيى ان تتنازل انت عن حقك له لأن بر الوالد من واجبنا المقدس واعوضك بحوصلة الدجاج المتبلة حتى تقدمها لضيوفك طبقا لذيذا . " لكنه لم يرض برجائى : " انها غالية بالنسبة الى الدجاج . لا اريدها ابدا . " فاقنعته بالثمن الرخيص اذ اعطيته نصف كيلوغرام من الحواصل مقابل نصف يوان فقط . فغادر الرجلان مسرورين .

وذات يوم جاء رجل يقلب نظره فى دجاجى المتبل واحدة تلو الاخرى ، ثم وقع اختياره على واحدة ، ولكنه تردد ظنا ان ثمنها اغلى من اللازم . فأدخلته الى غرفة العمل وسألته : " لعلك من غير ذوى اليسار ؟ " فابتسم فى خجل قائلا : "كلامك صحيح . لقد اصيبت والدتى بالشلل منذ عدة اعوام . وارغب فى ان اشترى لها دجاجة متبلة ، ولكن لم يتوفر لى المال . " فقلت له : " لا بأس . كل انسان وله والدان . ان احترام المسنين من واجب المجتمع كله . " وسمحت له ان يختار دجاجة كبيرة من دجاجاتى الحية ، واخذت منه ثمنها الاصلى دون اى ربح . وفى اليوم التالى اخذها منى دجاجة متبلة لذيذة .

وبعكس ما يتبع فى المتاجر الحكومية والفردية فانى بعت بضاعتى

بالدين ، وقد رفضت ان اسجل اسم المدين وعنوانه فضلا عن قبول ما حاول ان يودعه لدى رهينة مثل شهادة عمل او ساعة يد او خاتم ذهبى وقلت : " جئتنى لثقتك بى ، فمن واجبى ان استقبلك بثقة اكبر . لا كلفة بيننا . " وهكذا اصبحت علاقة حميمة بزبائنى . وبرغم ان الذين استدانوا من عندى قد تجاوز عددهم ١٠٠ شخص منذ سنتين من افتتاح دكانى لكن لم يتخلف احد منهم اطلاقا عن دفع دينه .

ولا عجب ان شهد دكانى اناسا من شتى الطباع وحوادث متنوعة ايضا . ففى احد ايام الشتاء خرجت عجوز من عندى فى عقدها التاسع بعد ان اشترت دجاجة . ولكن مالبثت ان رجعت لتقول فى جزع : " نقصنى نصف يوان من فائض القيمة المستحقة يا بنتى . " فقلت فى هدوء : " لا يا عمتى . نظامنا ان نعد النقود بصوت مسموع عند تسليمها للزبائن ورد فائض القيمة لهم ، ونطلب ان يراجع الزبائن الحساب امامنا . ارجو ان تعيدى الحساب من جديد او تبحثى عن المال المفقود جيدا . " ولكنها تشبثت برأيها وعندما شهد لى بعض الزبائن قائلا : " رأيناها ردت لك ثلاثة يوانات ونصف اليوان " ، ثارت ثائرتها وراحت تقسم بشرفها وتصب على اللعنة ، فلم اغضب ، اذ قرأت فى تعابير وجهها انها صادقة قد خانتها الذاكرة . وفضلت عافيتها على خسارتى ، فناولتها نصف اليوان راجية صفحها .

وفى صباح اليوم التالى ، والعاصفة الثلجية تهب بلا هوادة ، دخلت العجوز على عكاز وشدت على يدى قائلة : " انت بريئة يا بنتى . لقد وجدت نصف اليوان فى جيب معطفى قبل قليل ... "

فى رأيى ان المجتمع كالمرآة ، اذا ابتسمت له ، رد لك نفس الابتسامة . فخلال السنتين اللتين مضتا على عملى فى هذا الدكان حصلت بخدمتى الامينة والدقيقة على ثقة الزبائن . وقد ندم بعضهم على انه لم يكن اول زبون يزورنى . وابدى بعضهم الآخر رغبة فى للتردد الى دكانى طول العمر . وقال شيخ : " انا فى عقدى الثامن ، ولكنى لست آسفا اذا مت بعد ان تمتعت بدجاجك المتبل . " ويوم مرضت زارنى كثير منهم . وحين خرجت اقبلوا صغارا وكبارا يهنئوننى بالشفاء حاملين معهم هدايا مختلفة ، وانصرفوا من دون ذكر اسمائهم . وحدث مرات كثيرة ان وجدت عند باب الدكان صباحا رزما من الحطب فى الخارج ، ودكانى بأمس الحاجة اليه . كان هناك شيخ من زبائنى القدماء قد علم بحاجة دكانى الى الحطب ، فجاء بعربة ملأى بصناديق خشبية مهملة ، ورفض بكل اصرار اخذ ثمنها .

كما صار عدد من زبائنى الاجانب اصدقاء لى . فقد تردد الى دكانى ضيف كورى ، واخذ يساعدنى فى العمل بعد شراء الدجاج . ويوم رجوعه الى وطنه اهدانى سمكة شبوط لتكون بركة لتجارتى ومبعث سعادة دائمة لى . وقدرنى استاذ بعلم الاقتصاد من جامعة طوكيو تقديرا عاليا لعملى الجدى ، ولقبنى "آشين الصينية" . وزارنى رجل وزوجته من شركة امريكية عندما بلغتهما شهرة دكانى ، واخذا معى صورا تذكارية كما صورانى فى شريط فيديو وقالا : "سيلقى الشريط اقبالا من الشعب الامريكى بكل تأكيد ."

خدمة المجتمع

ازداد دخلي مع ازدياد تجارتي ورواج بضاعتي حتى اصبحت اكسب ألف يوان شهريا . ورغبت عن الانغماس فى الملذات ، وعزمت على الاسهام فى خدمة المجتمع بنصف مقدار دخلي الشهرى .

كان فى المدرسة الابتدائية بالقرب من بيتى اولاد وبنات ، لا احد يعد لهم الغذاء لأن اباءهم وامهاتهم يعملون فى مواقع بعيدة ، فيتعذر عليهم الرجوع ظهرا . وقد ساءت صحة عدد منهم بسبب سوء الغذاء وقلة عناية الوالدين . واثر ذلك تأثيرا سلبيا فى سلوكهم المدرسى ، وقلق آباؤهم وامهاتهم اشد القلق حيث وقفت المدرسة عاجزة عن حل المشكلة .

ولجأ مسؤول مكتب الحى السكنى الى معونتى ، وكان ذلك فى ايلول ١٩٨٦ ، فوعدته بتقديم الخدمة اللازمة وقد وافقت على رأيى جمعية التجار الفرديين للاطعمة تحت رئاستى .

وفى ٧ مايو ١٩٨٦ جاءنى ٢٥ ولدا وبنتا ، فوزعتهم على ٥ دكاكين للاطعمة . وابقيت فى دكانى العابث منهم والمتأنف فى الاكل والنحيل ومن هو من قومية هوى المسلمة ، واخذت اعد لهم على الغذاء السمك واللحم والبيض الى جانب الحساء والبوظة والفواكه كل يوم .

ومع ذلك ظل عدد من الاهالى خائفين على اولادهم فى البداية . فقد جاءت عجوز لترى بأم عينيها حفيدتها تتغذى بشهية ، فرجعت

مرتاحة . وعمد رجل الى زنة ابنه كل اسبوع ، ولم يتبدد قلقه الا بعد ان وجد وزنه يزداد تدريجيا .

كنت اتسلم ١٥ يوانا شهريا عن كل ولد مقابل وجبة الغداء ، ولكنى كنت اتكلف فى الواقع ٢٠ يوانا ، الى جانب ما اشتريت لهم خصيصا من اسرة سهلة الطى وحصائر والوحات شطرنج وكتب حرصا على راحتهم . كما كنت اصحبهم الى السينما مرة او مرتين فى الشهر لتنمية روحهم الجماعية .

فارتاح الاولاد فى بيتى ، وشعروا كأنهم فى بيوتهم . وترعرعوا بعافية وحيوية وتعلقوا بى تعلقا شديدا ، اذ رأوا بى اما حنونا ، وكانوا يتدلعون امامى ، ويبلغوننى نتائج دراستهم ، ويصارحوننى بمكنونات انفسهم . وقد قال بعضهم فى ندوة عقدتها المدرسة : " ان العمة شن اقرب الى من امى وابى . " وقال آخر : " سأقدم للعمة شن مرتبى فى اول شهر بعد بدئى العمل . " وتأثرت حقا بكلماتهم الساذجة ، اذ رأيت فيها العزاء والسلوة .

لقد حلمت منذ طفولتى ان اصبح مدرسة محترمة . لكن " الثورة الثقافية " حطمت امنيتى ، فاشتغلت بائعة ثم تاجرة ، وتألمت كثيرا لسوء حظى فى التعليم . ولم يكن يخطر ببالى ابدا ان احقق مثلى العليا فى اعداد الغداء للتلاميذ .

كانت الدكاكين الفردية للاطعمة فى شارع دونغهواشى غير منظمة برغم ان عددها يبلغ ١٨ دكانا . فلما توليت رئاسة جمعية التجار الفرديين ، رحت اتفقد هذه الدكاكين واطلع على الاسعار والنظافة والخدمة فيها ، واساعد اصحابها على حل مشاكلهم . فقدمت

كمية من زيت دكانى لمن يحتاج اليه من اعضاء جمعيتنا ، وزرت من مرضى منهم وحملت معى الهدايا المناسبة . فتوثقت العلاقة بيننا ، وسمونى " الاخت شن " ، واقتدوا بى فى اداء الضرائب . وقد اشتريت سجلى حساب للجمعية لضبط عملية اداء الضرائب . وكنت على رأسهم فى التبرع لبناء ملهى للاطفال فى حينا السكنى برغم تعرضى حينذاك لصعوبة مالية .

وانفقت وقتا كبيرا ومالا كثيرا فى الاعمال العامة الى جانب الاشراف على دكانى . وعارضنى بعض اقربائى قائلا : " الربح هو الغرض الاول والاخير من التجارة ، فما الفائدة من اهتمامك بما لا يعنيك ؟ " وقال آخرون : " لقد تحسن حال التجار الآخرين كثيرا ، فاشترى كل منهم دراجة بخارية او سيارة . اما انت فليس لديك حتى جهاز تلفزيون ملون . "

ولكنى لم اتأثر بكلامهم . اننى لا ألوم من كسب الثروة بعمله المجد اذا هو تنعم بحياته ، فأنا نفسى اشتهى جهاز التلفزيون الملون والدراجة البخارية وغيرهما . وعلى جميع التجار ان يعملوا لتحقيق الغنى المادى والحضارة الروحية فى آن واحد ، فهم بذلك يسهمون فى تقدم المجتمع .

اسرتى

عندما رجعت من يوننان عام ١٩٧٦ لانجاز الاجراءات الضرورية من اجل للحصول على رخصة الانتقال الى بكين بسبب مرضى ، لقيت

من والدى وزوجته معاملة سيئة ، فخرجت من بيتى متشردة ، اذهب الى الدوائر المعنية لاداء الاجراءات نهارا ، وانام عند ابواب البيوت ليلا . فاشفق احد الجيران على ، وعرفنى بصديق له طيب القلب سليم النية ، قال لى بعد فترة : " سأتزوجك سواء انتقلت الى بكين ام لم تنتقلى ."

وفى يوليو من ذلك العام عدت الى بكين بموجب الرخصة الرسمية ، وتزوجنا وانا عاطلة من العمل ، وهو عامل بأجرة لا تزيد عن ٣٠ يوانا فى الشهر . فرغب عنى حماى عكس حماتى ، واصبح يشتمنى دائما بسبب بطالتى ، برغم اننى لم آكل بيضة واحدة خلال سنتين من زواجى حرصا على تخفيف اعباء الاسرة . ولم يطق صبرا على المعيشة الصعبة بعد ما باع كل ممتلكاته لسد رمق العائلة ، فعزم على تزويج ابنه بامرأة اخرى . وتسربت فكرة تطليقى الى ذهن زوجى ، اذ لم يكن حبنا قويا يومذاك . وهكذا خاب املى فى العمل والحب والحياة ، وانهارت ارادتى الثابتة ، وحاولت الانتحار بالكهرباء . فثاب زوجى الى رشده اخيرا ، وخرج حبنا من محنة الهلاك متينا لايتزعزع .

وانتاب زوجى فيما بعد قلق شديد على تركى العمل المضمون عندما استقلت من المتجر الحكومى . ولكنه مالبث ان تأثر بازدهار دكانى ، فقدم هو الآخر استقالة فى اغسطس ١٩٨٦ وقال : " ما كنت اعرف ان الثقة هى اهم ضمان . والآن لأساعدك ، وانت غارقة فى التجارة الى اذنيك ." فسألته متعمدة : " ألست قلقا على فقدان العمل المضمون ؟ " فابتسم فى خجل ولم ينبس بكلمة .

واتفقنا انا وزوجي على ان يشرف هو على شؤون الاسرة ، واشرف انا على شؤون الدكان ، اى انا المديرة وهو مساعدى لأنه لا يعرف فن التجارة ولا الادارة . وطلبت منه فى البداية ان يقف بجانبى يلاحظ ويدرس كيف اعمل . وكنا نختلف فى الآراء ، ونتجادل بشدة حتى انني ابكي احيانا . ولكن ما نلبث ان يعترف كل منا بخطئه ، ونعود الى العمل مسرورين .

واستخدمت ٥ عمال فى دكانى ، من بينهم فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، جاءت من مسقط رأسها فى مقاطعة شاندونغ لتتعلم فنى فى تتبيل الدجاج . وقد عاملتها كأخت لى كما عاملت سائر العمال كأهلى . فكنت اشترى لهم الثياب والاحذية دائما ، الى جانب دفع اجورهم الثابتة . اما فى العمل فقد ألزمتهم بمراعاة القواعد الصارمة ، ونبهتهم الى حزمى فى طرد من لا يكون صادقا امينا فى عمله ، وكنت اقول لهم دائما : " لقد وضعت الحكومة لوائح وانظمة صالحة لعملنا ورخائنا ، فعلينا ان نسهم فى تطور البلاد لأن غنى الفرد منوط بغنى الوطن . "

واخذت حياتى تجرى على نظام دقيق ، استيقظ فى الساعة الخامسة صباحا لأنظف بيتى واعد الفطور ، وبعد خروج ولدى الى المدرسة اغسل الثياب واقوم بالاستعدادات لتتبيل الدجاج الذى يمر بسبع عمليات دقيقة متعاقبة . واصبحت قادرة على نتف ريش الدجاجة فى دقيقة واحدة بالماء الحار .

انني مديرة بارعة ، ولكنني لست اما ممتازة . ولدى فى الثامنة من عمره يذهب الى المدرسة ، ويرجع ظهرا ليتغدى مع الاولاد الذين

تكلفت باعداد الغداء لهم . . وبدلا من ان اخصص له الوقت والرعاية ، استقدمت له معلما خصوصيا ، وهذا ما سبب لى ألما نفسيا دائما ، ولم ارغب له ان يخلفنى فى مهنتى ، فقد رأيت انه يجب ان ينتهج طريقا خاصة يسير عليها بنفسه . واوضحت له قائلة : " عندما تبلغ رشدك تدرك ان تصرفات والدتك صائبة ." فأومأ برأسه موافقا ولكن دون ان يفهم فهما تاما .

واعتقدت ان المرء اذا سمت نفسه الى معالى الامور ، فعليه ان يمتاز بالتواضع واللباقة ، ويعمل بجرأة ونشاط وكفاءة حتى يحرز النجاح .

التفاؤل بالمستقبل

لما نشر خبر نجاحي فى بعض الصحف كتب الى مئات القراء ، يطلب بعضهم تعلم فنى ، ويعزم بعضهم الآخر على الاستثمار فى تنمية دكانى . فرددت عليهم واحدا تلو الآخر ، اقول فى خطاباتى انى مازلت فى البداية ، ولا بد لى من مواصلة العمل وكسب الثروة حتى تتوفر الظروف الاقتصادية ، فأقيم مدرسة لفنى واؤلف كتابا عنه . ووضعت خطة لتوسيع دكانى ببناء عمارة عالية فى نفس المكان ، ثم اقدم للحكومة ٥٠٠ يوان ضريبة شهرية .

ودعتنى شركة يابانية لانشاء دكان دجاج متبل فى اليابان ، فوعدتها بأن اسافر اليها فى الوقت المناسب .

وانتخبت مؤخرا نائبة لرئيس اتحاد الصناعة والتجارة الفرديتين

بمنطقة تشونغون ، الذى يضم اكثر من ٣٥٠٠ عضو . ففكرت فى تنظيم جميع النساء داخل الاتحاد فى مجلس خاص لصيانة حقوقنا ومصالحنا ، وانا واثقة بقدرتى . كما عرضت طلبا للانضمام الى الحزب الشيوعى الصينى حتى ابلغ هدفى السياسى .

الهجر

نالت شن شين تشيوان درجات الشرف على التوالى ، مثل " عاملة متقدمة وطنية " و " قدوة الدكاكين الفردية " و " بطلة الصحافة الصينية " عام ١٩٨٦ . كما اختيرت عضوة فى وفد الشخصيات البارزة فى تحقيق المثل العليا (تشكل الوفد من نحو ٣٠ عضوا انتخبوا من جميع انحاء الصين ليلقوا محاضرات عن عملهم . وقد ذهب اربعة منهم الى مقر مجلس الدولة حيث بث محاضراتهم تلفزيونيا على البلاد كلها) . ولم تكن تدرى ان درجات الشرف هذه ستجلب عليها من الازعاج والارتباك ما قذف بها الى ورطة حرجة .

منذ استعدت لمحاضرتها اضمر لها موظف سافل من دائرة الاعلام نية خبيثة ، وحاول بلا انقطاع ايقاعها فى شرك المنكر . وحين اعياها الصبر على تصرفاته الدنيئة ، انذرته انذارا صارما . فاشتد غيظه منها ، ولجأ الى نفوذه لاتهامها بالمفتريات الباطلة كالتهرب من الضرائب وارتكاب الزنى . كما احتال لقطع مصدر بضاعتها بحجة ان من يبيعها دجاجا حيا عليه ان يدفع ضريبة لأنها صارت شخصية بارزة . فلم يعد باعة الدجاج الحى يأتون اليها بل يذهبون الى الزبائن العاديين .

فوقعت فى ازمة ، اذ لم تعد تجد الدجاج الحى ، وعندها طلبات مسبقة بأكثر من ٤٠ الف دجاجة متبلة بمناسبة عيد رأس السنة الجديدة وعيد الربيع . فذهبت الى الدوائر المعنية تحتج ، ولكن لم تجد اذنا صاغية . فلم يبق امامها الا ان اغلقت دكانها على حق الزبائن . ولكنها ثابرت بقروض الاقرباء على دفع اجور عمالها واعداد غداء التلاميذ . ثم سافرت الى مقاطعة خبى ، واقامت فرعا لدكانها نظرا للاعفاء من ضريبة شراء الدجاج الحى . وما ان مضى ٢٠ يوما ونيف حتى جاء موظف من دائرة الضرائب المحلية ليقول لها ان اللوائح لا تناسبها لأنها لم تعد تاجرة عادية . فاغلقت فرع الدكان وسافرت الى مقاطعة خنان لتعليم الراغبين فنها الفريد . وعندما عادت الى بكين ألحت محطة التلفزيون على تصويرها وهي تشترى الدجاج حيا من السوق الحرة لتبيعه متبلا بخسارة . ثم جاء بعض الاصدقاء اليابانيين خصيصا لتذوق دجاجها المتبل . وهكذا تزايدت خسارتها . ولكن ما لبث ان انتشرت اكذوبة جديدة تقول بتهربها من الضرائب .

والى جانب ذلك ساد اسرتها جو من سوء التفاهم ، اذ لم يؤيدها زوجها فى مواجهة المصائب ، بل بالعكس حاول ان يثنيها عن عزمها ، وطلب منها ان تعدل عن الاعمال العامة وتسعى وراء الربح والثروة . فشعرت بضغط نفسى هائل . وذهبت الى اتحاد الصناعة والتجارة الفرديتين لتشتكى صعوباتها ولكن المسؤول قابلها باللوم الشديد ، فسألته : " هل تعرف ازمتى ؟ جئت ألتمس من الاتحاد قوة وعزاء ! " ولكنه لم يعرها اذنا صاغية ، بل خرج صافقا الباب خلفه . فاندفعت خلفه تناديه ، لكنها سقطت على الارض من شدة جزعها وغضبها ،

بينما قال سيادته فى برود : " ترى ، هل بقيت لديها قوة تعينها على النهوض ؟ "

وسدت جميع الطرق فى وجهها ، ففقدت رشدها ، واندفعت تبكى وتضحك كمجنونة . وراودتها فكرة الموت ، فقبضت على سكين . . . ولو لم تدخل اختها فى اللحظة المناسبة لقطعت معصمها .

ونصحتها اختها ان تزيل عن نفسها الكرب بالسياحة ، كما دعاها زملاؤها من ايام الدراسة الى زيارتهم فى جنوب الصين . فسافرت فى فبراير عام ١٩٨٧ بصحبة احدى زميلاتها وصديق لها مالبث ان افترق عنها لشأنه عندما وصلوا الى مدينة ووهان . وقد كتبت قبل سفرها خطابا الى مدير مصلحة الصناعة والتجارة لشرح سبب سفرها . ولم تعلم الا بعد عودتها من جزيرة هاينان ان حملة من الاكاذيب قد انتشرت فى بكين حول سفرها ، حتى قال بعضهم بأنها هربت مع طالب جامعى ! فأزيلت عن بوابة دكانها لافتة الشرف المكتوب فيها " قدوة الدكاكين الفردية " . فقالت فى حزن : " لم اعد ابالى بما يفعلون حتى ولو صادروا الدكان . ليفعلوا ما يشاؤون ، انى لا اندم على ما فعلت ، ومازلت واثقة بنفسى كل الثقة . ويحضرنى الآن قول لكاتب اجنبى : " عندما تقوم بعمل ما يلزمك ان تميز بين الاصول والفروع ، ومنتهى الغباء ان تكتفى بالنظر الى الاخيرة . سأواصل عملى . . . "

دكان جديد

تخلصت من المأزق بارادتها القوية قبيل ان ينقضى الاجل المحدد

لاغلاق دكانها والغاء الرخصة اذا بقى الدكان مغلقا . فاقترضت ، ضنا بدكانها او قل " ببداية عملها " ، ١٧ الف يوان من الاصدقاء وطلبت فتح دكانها من جديد . تمت الاجراءات اللازمة بسرعة ، وعلقت فى المكان الذى كان فيه لافتة " دكان تشيشنغيونغ للدجاج المتبل " لافتة جديدة بعنوان " دكان آشين للدجاج المتبل " . وافتتح الدكان فى ديسمبر ١٩٨٨ ، وذلك يعنى ان صاحبته بريئة ، وقد عادت اخيرا ، اما الافتراءات فذهبت ادراج الريح .

انها على دراية تامة بطريقها وما فيه من صعوبات . وما زالت على بساطتها ، لا تطمح الا الى ان يفضل الزبائن فنها كالسابق ، فتكسب رزقها ، وتخدم المجتمع بثروتها ، وتجلب لحياة الناس السعادة والسرور .

انها مثل جميع اللواتى برزن فى الاصلاح الصينى ، يجارين الرجال فى الجرأة والفطنة والقدرة ، ويبرهن بأعمالهن على ما تتحلى به الصينيات من الثبات والطيبة والغيرية وللمبادرة الى العطاء .

شيه شى ده

— مديرة جامعة فودان

جامعة فودان جامعة مشهورة فى الصين ، ومديرتها شيه شى ده شخصية بارزة بين مديرى ١٠١٦ جامعة ومعهدا عاليا فى الصين عامة ، وهى احدى العضوات الخمس عشرة من اعضاء المجمع العلمى التابع لأكاديمية العلوم الصينية ، كما انها احدى النساء البارزات فى الصين .

اسمع منذ وقت طويل ان المديرة شيه شى ده سيدة انيسة لطيفة ، ومع ذلك كنت اشك فى التمكن من اجراء مقابلة صحفية معها لكثرة مشاغلها . لكن شكوكى هذه مالبثت ان تبددت حين تلقيت من مكتب ادارة الجامعة هاتفا بالموافقة على المقابلة .

وفى صباح ١٤ مارس ١٩٨٧ جئنا الى جامعة فودان التى لا تبعد كثيرا عن حديقة هونغكو . كان الطلبة داخل قاعاتهم يستمعون الى المحاضرات ، والجامعة يسودها جو من الهدوء والانسجام . وعلى لوحات الاعلان المحجوبة بالزجاج على الجانب الايسر من مدخل الجامعة تعرض مآثر المعلمات المتفوقات ، وبدهى ان هذا العرض اقيم بمناسبة عيد المرأة .



شيه شى ده

انتظرنا فى غرفة الاستقبال ما يقرب من نصف ساعة حيث كانت المديرة مشغولة فى اجتماع لتنسيق اعمال الجامعة قبيل مغادرتها الى خارج البلاد . ثم جاءت اخيرا ، لقد تجاوزت الستين من عمرها ، ولكنها تفيض حيوية ونشاطا . فصافحتنا بوجه باش واعتذرت عن تأخرها .

وبدأت المديرة شيه تتحدث بوضوح واسترسال مجيبة عن اسئلتنا :

– ولدت فى عائلة مثقفة عام ١٩٢١ ، فكان والدى قد درس فى جامعة شيخه فى بكين ثم تابع دراسته العالية فى الولايات المتحدة ، واشتغل استاذا فى علم الفيزياء بجامعة يانجينغ . توفيت والدتى وانا فى الرابعة من عمرى . وقيل انها كانت تفكر فى الالتحاق بالجامعة

بعد ولادتى بوقت غير بعيد ، الامر الذى يدل على انها من النساء المتفتحات الذهن فى ذلك العهد . وزوجة ابى خريجة جامعية .

فى عام ١٩٤٧ ارسلنى والدى الى الولايات المتحدة ، حيث درست فى كلية "سميث" للطالبات . وبعد نيل شهادة الماجستير درست فى معهد ماساتشيوستس للتكنولوجيا . وفى عام ١٩٥١ انجزت اطروحة الدكتوراه تحت ارشاد الاستاذ ب . م . موس والاستاذ و . ب . اريس ، وحصلت على شهادة الدكتوراه فى الفيزياء .

وفى عام ١٩٤٩ تأسست الصين الجديدة . واخبرتنى زوجة ابى فى رسالتها : ان الوطن بعد قيام الصين الجديدة يسوده الاستقرار والوحدة والازدهار . كنت ارى ان على المثقفين الذين تلقوا التعليم العالى خارج البلاد ان يعودوا الى الوطن ليسهموا فى بنائه بمعلوماتهم وقدراتهم . ولكن خلال استعدادى للعودة الى الوطن تعرضت الولايات المتحدة لنكسات عسكرية فى حربها ضد كوريا ، فأصدرت امرا بمنع خروج الطلبة الصينيين المختصين فى العلوم والتكنولوجيا من الولايات المتحدة وعودتهم الى الوطن . وفى ذلك الوقت كان خطيبى تساو تيان تشين يدرس كيمياء الاحياء فى جامعة كامبردج فى بريطانيا . وفى عام ١٩٥١ نال شهادة الدكتوراه ، وتلقى دعوة من احدى الجامعات الامريكية للعمل فيها ، ولكنه تخلى عن هذه الفرصة من اجل العودة معى الى الوطن . وطلب منى ان اتوجه الى بريطانيا ، حتى نعود الى الوطن بأسرع ما يمكن . ولم اتوقع ان تكون الحكومة البريطانية اذذاك قد اتخذت من الصين موقفا غير ودى ، فتمنعنى من دخول بريطانيا . واخيرا حصلت على تأشيرة بالدخول بعد تعهد احد الاساتذة الجامعيين

بعدم اطالة مكوثى فى بريطانيا .

فى مايو ١٩٥٢ اتجهت الى لندن ، وفى اغسطس من نفس العام عدت الى الوطن عن طريق هونغ كونغ . وهذا الامر بالذات اصبح فى " الثورة الثقافية " مسألة مثيرة للشكوك لأن المتطرفين اذذاك خيل اليهم انى جاسوسة بحجة ان بريطانيا حليفة للولايات المتحدة فى حربها ضد كوريا ، فكيف سمحت الحكومة البريطانية بعودتى الى الوطن مادامت الحكومة الامريكية لم تسمح بذلك ؟

تعرفنا انا وزوجى على بعضنا بعضا منذ صغرنا لأن والدى ووالده كانا زميلين فى للتدريس بجامعة يانجينغ . ولنا ابن وحيد فى الثانية والثلاثين من عمره . درس فى كلية الفيزياء فى جامعة فودان ، وقبل تخرجه توجه الى الولايات المتحدة لاكمال دراسته والحصول على شهادة الدكتوراه فى الهندسة الميكانيكية . وكنا فى طفولته قد استدعينا له مربية ، مما خفف اعبائى فى رعايته وادارة شؤون المنزل (لا تتوفر مثل هذه الظروف الحسنة لأغلبية النساء العاملات فى الصين) . وعندما بلغ طفلنا ٥ اشهر من عمره توجهت الى بكين حيث عملت مدة سنتين ، اضطلع خلالهما زوجى بمهمة رعاية الطفل ، ومن اجل ذلك صرف الكثير من وقته بطبيعة الحال .

كنت شغوفا بجمع طوابع البريد منذ نعومة اظفارى ، وكذلك ابنى الذى تولى هذا الامر مع مر الايام ، واصبحت مساعدة له فى ذلك . وبعد مغادرته الى خارج البلاد عدت اتولى هذا الامر بدلا منه . ان جمع الطوابع البريدية يحتاج الى وقت ، ولكنه امر ذو معنى كبير . وفى جامعتنا جمعية لهواة الطوابع ، نظمت ذات مرة معرضا لطوابع

البريد بما فيها عدد من الطوابع التى جمعتها ، الامر الذى زاد من رغبتى فى جمع الطوابع . وقد اختارتنى هذه الجمعية رئيسة فخرية لها . اما الطهى فانى لا اجيده ، والسبب فى ذلك يرجع الى ضيق وقتى لممارسته.

احب انا وزوجى كذلك جمع التحف التذكارية مثل برج ايفل فى باريس بفرنسا وتمثال إلهة الحرية فى نيويورك وتمثال السيدة مارى سكلود وفسكا كيورى المنحدرة من اصل بولندى وسفينة القرصان النرويجى وحيوان الكنغر الاسترالى والساعة الدقاقة البريطانية والانسان الاسكتلندى والزنجى الامريكى ونموذج المفاعل النووى الاول فى مجال العلوم وغير ذلك من هذه التحف التذكارية . وقد اشتريناها بمناسبات زياراتنا الى الخارج ، وبعضها هدية من الاصدقاء الاجانب . كما احب مشاهدة الافلام السينمائية والاستماع الى الموسيقى ، واحب الحياة المتعددة الالوان .

الى جانب اعمالى الادارية فى الجامعة اضطلع بمهمة الاشراف على فرقة بحث علمى . وعندى مساعدتان رئيسيتان احداهما استاذة ، والاخرى استاذة مساعدة . وقد اشرفنا على اربعة طلبة فى دراسات الدكتوراه ، واثنان منهم قد تخرجا الآن .

كان هذا ما تحدثته لنا المديرة عن احوالها الشخصية ، ولم ترغب فى الاسترسال وعرفنا عنها انها عالمة فيزيائية شهيرة فى الصين ، حققت فى مجال العلم كثيرا من النجاحات .

وقد قمنا بتحقيقات حول مجرى حياتها خلال البضعة والثلاثين عاما الاخيرة ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

فى مايو ١٩٥٦ جاءت الى بكين تاركة طفلها البالغ ٥ اشهر من

عمره لزوجها يرعاه وحده فى البيت فى شانغهاى ، وذلك من اجل التحضير لتكوين فرقة خاصة لاشباه الموصلات . وابتداء من ذلك الوقت عملت فى جامعة بكين مدة سنتين ملقية بنفسها فى العمل ليل نهار . وفى عطلة الصيف التى قضتها فى شانغهاى قرأت كثيرا من الكتب والمراجع فى المكتبات . وبعد صيفين وشتائين ، انجزت هى والاستاذ هوانغ كون تأليف كتاب « فيزياء اشباه الموصلات » الذى يعد اول كتاب شامل فى الصين حول علم اشباه الموصلات . وخلال هاتين السنتين اعدت هى وزملاؤها اكثر من ٣٠٠ شخص متخصص بعلم اشباه الموصلات .

وفى عام ١٩٦٢ انجزت هى بالتعاون مع الاستاذ فانغ جيون شين تأليف المادة الدراسية « علم فيزياء الاجسام الصلبة » . وبين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٦٥ نشرت هى ومساعداها مجموعة من الابحاث العلمية عن استخدام نظرية " المجموعة " الرياضية فى بحوث فيزياء الاجسام الصلبة . وفى شتاء عام ١٩٦٥ ترأست الوفد الصينى لفيزياء الاجسام الصلبة لحضور المؤتمر الاكاديمى البريطانى لعلم الفيزياء وفيزياء الاجسام الصلبة .

وفى اغسطس ١٩٦٦ تم اكتشاف اصابتها بسرطان الثدى . وعانت من الاختبارات السياسية ، وتعرضت للنقد والدحض ، ولكنها ظلت تفيض نشاطا وحيوية ، وتدرس بجد واجتهاد ، وتؤلف معلومات جديدة ، وتبتكر تصورات علمية جديدة . وفى عام ١٩٧٠ عاودها مرض السرطان ، فاستأنفت العلاج ، واستمرت كذلك فى تأليف مادة المحاضرات التدريسية « اسس الفيزياء للدائرات الموحدة لأشباه الموصلات » .

وفى صيف عام ١٩٧٦ عاودها مرض السرطان مرة اخرى فعولجت بأشعة اكس والادوية الكيماوية ، مما ادى الى شدة انخفاض الكريات البيضاء عندها والى تورم جسمها . ولكن عندما تحسنت صحتها عادت تعمل كالعادة ، وألفت مادة «سطوح اشباه المرصلات» . وفى عام ١٩٧٧ بدأت شيه شى ده المتخصصة ببحوث اشباه الموصلات وفيزياء الاجسام الصلبة تشتغل بمواضيع جديدة لأبحاث الفيزياء السطحية . وفى نوفمبر ١٩٧٧ تقدمت باقتراح حول ملء فراغ علم السطوح وتطوير علم السطوح فى الصين ، واعتمدت فى ذلك على معلومات مقنعة . وفى اكتوبر ١٩٧٨ زارت ألمانيا الاتحادية . ومن سوء حظها انها وقعت هناك على الارض وجرحت جروحا شديدة ، لكنها نسيت آلامها لكثرة مشاغلها . وفى مارس ١٩٧٩ اكتشف الطبيب خلال فحصها العام ان جروحها كانت كسورا فى الاضلاع ، وقد تم شفاؤها دون علاج .

وفى عام ١٩٨٣ عينت مديرة لجامعة فودان . ومنذ اربع سنوات وهى مشغولة بأعمال القيادة الادارية ولكنها ما زالت تظهر دائما فى قسم ابحاث فيزياء السطوح ، وتشتغل معلمة مرشدة لطلبة الدكتوراه .

وقد اشتغلت المديرة شيه فى مجال التعليم العالى سنين طويلة ، فبدهى ان تكون قضية التعليم موضوعا هاما فى حديثنا . لقد قالت المديرة :

— هناك بعض المسائل فى التعليم الصينى تستحق الدراسة . فالاساس الوحيد لقبول الطلبة مثلا هو درجات امتحان القبول ، مما حرم عددا من الطلبة الذكور ذوى القدرة الكامنة الكبيرة فرصة دخول

للجامعة . ان الفتيان يختلفون عن الفتيات فى المراحل الدراسية ، فالفتيات يمتزن بالدقة والحفظ ونتائج دراستهن ودرجات امتحاناتهن فى المرحلتين الابتدائية والاعدادية احسن مما لدى الفتيان عموما ، بينما الفتيان لا يحصلون عادة على درجات حسنة فى الامتحانات بسبب الاهمال فيهما . ولكنهم حين يدخلون المرحلة الثانوية يبدأون فى اظهار تفوق على الفتيات فى دراسة مواد الرياضيات والفيزياء والكيمياء .

ان من المهم جدا تقوية الثقة بالنفس عند الفتيات . واعتقد ان المدارس الخاصة للفتيات تلعب دورا كبيرا فى مساعدة الفتيات على تقوية ثقتهن بالنفس . واعرف ان المدرسة المتوسطة الثالثة الخاصة للفتيات فى مدينة شانغهاى قد اعدت كثيرا من الطالبات الممتازات ، وانا كنت طالبة فى مدرسة بيمان المتوسطة الخاصة للفتيات فى بكين فى فترة " الثورة الثقافية " التى امتدت من الستينات الى السبعينات . وكان هناك عدد كبير من الفتيات لم يتابعن دراستهن لأن آباءهن وامهاتهن فضلوا عملهن فى البيت على دراستهن فى المدرسة . اما الفتيان فعلق آباؤهم وامهاتهم آمالا كبيرة عليهم ، وتمنوا ان تتاح لهم الفرص لتلقى التعليم الاعلى فالاعلى . وليست هذه الظاهرة سوى تحيز اجتماعى . وبعد اسقاط " عصابة الاربعة " عام ١٩٧٦ استؤنف نظام قبول الطلبة الجامعيين عن طريق الامتحان ، فالتحق بالجامعات كثير من الفتيان الذين استطاعوا تكملة التعليم الاعدادى قبل " الثورة الثقافية " ، وتخرجوا فى المدارس الثانوية فى الفترة الاولى من " الثورة الثقافية " (ما بين عامى ١٩٦٦ و١٩٦٨) ، وكان اساسهم الثقافى متينا ، واعمار معظمهم فى ذلك الحين بحدود الثلاثين عاما . اما الفتيات

فى هذا العمر فمعظمهن قد تزوجن وانجبن . ان خصائص الجنس اللطيف والتحيز الاجتماعى قد افقدا الفتيات فرصة تلقى التعليم العالى .

وفى معرض حديثها عن تحول النساء الى بارزات فى المجتمع قالت المديرة شيه فى انفعال :

ـ ان اعباء المرأة اكثر من اعباء الرجل . وفى مجال تنافسها مع الرجل عليها ان تبذل المزيد من الجهود وتؤدى المزيد من الثمن والتضحيات .

واذا ما ارادت المرأة تحقيق النجاح فى قضيتها المنشودة ، فعليها ان تعتمد اولا على جهودها الشخصية ، وهذا الشرط فى المرتبة الاولى من الاهمية ، ثم عليها ايضا ان تحصل على تأييد عائلتها وزوجها وتفهمهم لوضعها . زد على ذلك ان المجتمع يجب ان يغير المفهوم القديم عن المرأة . لقد قامت السيدة جين نان فى بكين باستقصاء اجتماعى ، وجاء فى تقريرها عنه ان الخمس عشرة عضوة فى المجمع العلمى التابع لأكاديمية العلوم الصينية فى الصين كلها قد حققن نجاحهن البارز فى ظروف استثنائية . فالمرحومة لين تشياو تشى مثلا ، الاستاذة الطبية الشهيرة فى الصين ، لم تتزوج طول حياتها ، وكانت تعيش مع ابن وبنت اخيها . والاستاذة وانغ تشنغ شو فى معهد البحوث لفيزياء الطاقة العالية قد تأخرت فى الانجاب ، وانجبت مولودا واحدا . وعضوتان اخريان يه شو هوا وتشى جى شانغ انجبتا مولودا واحدا كذلك . وانا تزوجت حين بلغت الواحدة والثلاثين ، وانجبت وانا فى الخامسة والثلاثين . فأولئك العضوات فى المجمع العلمى إما انهن لم يتزوجن ، واما تأخرن فى الزواج والانجاب ، او انجبن مولودا واحدا .

وبالمقارنة مع المجتمع القديم نجد فرص العمل قد كثرت امام المرأة الصينية الآن ، ولكن ما تزال هناك مشاكل . فوظائف النساء مثلا منخفضة ، وعدد النساء اللواتى يتوظفن بوظائف عالية قليل . واذا اخذنا مجال التعليم مثالا على ذلك ، نجد ان المعلمات فى رياض الاطفال والمدارس الابتدائية اكبر من المعلمين ، ولكن عددهن فى المدارس المتوسطة اقل ، وفى الجامعات والمعاهد العليا اقل بكثير . ولا يفوتنا طبعا ان التعليم فى رياض الاطفال والمدارس الابتدائية اكثر ملائمة للمرأة وامر بالغ الاهمية فى الوقت نفسه .

هناك قليل من النساء اللواتى يعملن فى وظائف عالية ، ويواجهن وضعا ليس فى صالحهن فى تنافسهن مع الرجال . فعدد المعلمات فى جامعة فودان مثلا احتل ثلث مجمل عدد المعلمين والمعلمات فى الجامعة ، اما اللواتى احرزن منهن وظيفة استاذة او استاذة مساعدة فهن قليلات . واعمال الشؤون المنزلية عبء ثقيل على المعلمات . ونظرا لأن الرواتب فى الصين منخفضة فان معظم العائلات تعجز عن الاستعانة بمديرات للشؤون المنزلية . وقد لجأت بعض العائلات مشتركات الى الاستعانة بمديرة واحدة لهم جميعا ، تقوم بشراء الحاجات اليومية وغسل الملابس واعداد طعام الغداء ، اما العشاء فتعده ربات هذه العائلات بأنفسهن . وبعد العشاء عليهن ان يساعدن اولادهن فى الدراسة . وبتأثير "الثورة الثقافية" انخفضت نوعية التعليم ومستوى المعلمين فى المدارس الابتدائية والمتوسطة ، لذا يحتاج الاولاد الى مساعدة كبيرة من آبائهم وامهاتهم . وعندما يفرغن من العمل الرسمى والشؤون المنزلية يحاولن تخصيص ما بقى من وقت ضئيل لدراستهن

المتعلقة باختصاصهن ، ولكنهن يكن فى ذلك الوقت قد بلغن ذروة التعب . اما المجتمع فلم يحسن لهن ظروف الحياة بعد . ولنأخذ سوق الخضار فى شانغهاى مثالا على ذلك . ان هذه السوق تفتح فى الصباح الباكر فقط ، ولكن معظم النساء العاملات لا يجدن وقتا لشراء الخضار .

ومن الناحية الفيسيولوجية تعتبر المرأة ضعيفة جدا فى مجال التنافس فى بعض اقسام العلوم ودوائرها . فقد لاحظنا مثلا ان الطالبات فى كلية الفيزياء وكلية الحاسبات وكلية العلوم النووية قليلات جدا . وفى العام الماضى قبلت جامعة فودان ١٢٠ فردا من الطلبة الجدد لكلية الفيزياء لم يكن بينهم الا ٨ طالبات فقط . وللمرأة طبعا خصائص لا يتحلى بها الرجل ، فهى تتفوق على الرجل فى بعض اقسام للعلوم مثل تعلم اللغات ، ودائما ما تكون الطالبة اقوى من الطالب فى النطق والتعبير . وان عدد الطالبات فى كلية اللغات الاجنبية وكلية التاريخ وكلية الاحياء وكلية الكيمياء بجامعة فودان كبير الى حد ما .

ان التحيز القديم المتأصل ليس فى صالح تطور المرأة . لقد اعترف القانون بالمساواة بين الرجل والمرأة ، ولكنه فى الواقع ابقى عدم المساواة فى بعض القضايا المحددة . فمختلف المدارس مثلا تفضل الذكور على الاناث عند قبول الطلبة فى حالة بلوغ الطرفين نفس درجات الامتحان ، بل حتى اذا تجاوزت درجات الاناث درجات الذكور ، فلماذا ؟ ذلك لأن هناك كثيرا من دوائر العمل لا تحب ان تعمل فيها النساء بحجة ان مشاكل النساء كثيرة كالحمل والولادة والاعباء المنزلية .

وهناك وجهة نظر تقليدية قديمة لدى بعض الصينيين ، ترى ان المرأة يجب ألا تفوق الرجل . لذلك فان النساء ذوات المؤهل الدراسى العالى والمرتبة الاكاديمية العالية يصعب عليهن ان يحصلن على شركاء فى الحياة فى الوقت الحاضر . وقد صارت هذه الظاهرة مشكلة اجتماعية . وكثير من ارباب العائلات يقلقهم ذلك . ولهذا السبب لا يشجعون بناتهم على مواصلة الدراسة وتلقى التعليم العالى . وفى المجتمع الصينى فعلا عدد غير قليل من الفتيات الكبيرات السن ذوات المؤهل الدراسى العالى والمرتبة الاكاديمية العالية يساورهن القلق لعدم تمكنهن من ايجاد شريك الحياة . وفى جامعتنا طالبة تلقت بعد نيلها شهادة الماجستير منحة دراسية من احدى الجامعات فى الولايات المتحدة لدراسة الدكتوراه ، ولكن كثيرا من الناس حولها يخافون ان لا تجد شريك الحياة المنشود بعد ان تقضى ريعان شبابها فى دراستها الطويلة .

ان مديرة الجامعة شيه قد عاشت فى المجتمعين القديم والجديد فى الصين ، ومرت بالنظامين الاجتماعيين الصينى والغربى . وبسبب تجاربها الواسعة البعيدة المدى دائما ما تقف من هذا الامر موقفا فذا . ثم انتقلت المديرة الى موضوع آخر خاص بفرص العمل امام المرأة فى الولايات المتحدة والصين فقالت :

ـ فى اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات قلما كانت المرأة الامريكية تعمل ، اما اللواتى حصلن على مرتبة استاذة فمعظمهن ممن لا يتزوجن طول حياتهن . وفى عام ١٩٧٩ ، اى بعد ذلك العهد بثلاثين عاما ، عدت الى الولايات المتحدة فى زيارة فلاحظت ان الوضع قد تغير . وبرغم ان عدد للنساء العاملات بالوظائف العالية لا يزال

قليلا ، الا انه قد ازداد كثيرا بالمقارنة مع ما قبل ٣٠ عاما ، ولاسيما النساء المنحدرات من أصل صينى الحاملات الجنسية الامريكية القادمات من هونغ كونغ وتايوان ، فكثير منهن يعملن . ومن بينهن السيدة وو جيان شيونغ العالمة الفيزيائية الشهيرة المنحدرة من اصل صينى ، وقد انجبت مولودا واحدا فقط ، واستعانت بمربية فى بيتها خلال طفولة مولودها .

ان دور الحضانة فى الولايات المتحدة قليلة ، مما جعل كثيرا من النساء لا يستطعن الاشتراك فى العمل فى فترة الرضاعة . ولكن معاملة النساء فى الولايات المتحدة معاملة مرنة الى حد ما ، فاذا انقطعت الطالبة عن التعليم بسبب الولادة والرضاعة ، يمكنها ان تستأنف الدراسة بعد فترة الرضاعة . اما بالنسبة للمرأة العاملة فان وحدات عملها تسمح لها عادة ان تحدد وقت الدوام بنفسها بصورة مرنة ، وتتقاضى اجرها حسب اوقات عملها . وهذا لا يمكن تطبيقه فى الصين حاليا .

ان تحرر المرأة قضية عالمية مشتركة . وفى كثير من الدول قد نص القانون على المساواة بين الرجل والمرأة ، ولكن هذه المساواة غير موجودة فى الواقع . وهناك كثير من الصعوبات الواقعية فى انتظار تذليلها .

وبهذه العبارة اصابت مديرة الجامعة شيه كبد الحقيقة ، واوضحت المشاق التى تحف بقضية تحرر المرأة .

وبالطبع لم تفتنا الفرصة للسؤال عن احوال جامعة فودان فى لقائنا مع مديرتها شيه ، ولكن من المؤسف ان الوقت لم يسمح لها بالاستفاضة فى ذلك ، فقالت باختصار :

– فى جامعة فودان ٢٦ كلية تضم ٦٠ قسما . ويبلغ الآن مجمل عدد طلبتها ١١ ألفا ، من ضمنهم ٨ آلاف من الطلبة النظاميين و ١٤٠٠ من طلبة الدراسات العليا ، ومن بينهم ايضا عدد من الطلبة الاجانب والطلبة المستمعين وطلبة الدراسات القصيرة المدة . ويبلغ عدد المعلمين والموظفين فيها اكثر من خمسة آلاف . ولا تزال جامعتنا دون مستوى الجامعات المشهورة فى العالم ، وتواجه صعوبات كبيرة فى النفقات ، فلا يسعنا الا ان نعمل حسب قدرتنا المالية المحدودة . وهدفنا ان نبذل كل ما فى وسعنا لتصبح جامعتنا من اوائل الجامعات فى الصين . وما زال الطريق امامنا طويلا لبلوغ مستوى الجامعات الاولى فى آسيا والعالم اجمع .

كان على مديرة الجامعة شيه ان تهيئ امتعة السفر بعد ظهر ذلك اليوم لأنها ستسافر الى الولايات المتحدة فى اليوم التالى . فلا يصح ان نأخذ منها مزيدا من الوقت . وعند مغادرتها غرفة الاستقبال ألقيت عليها نظرة متفحصة ، وانا متأسفة لازعاجها فى مثل هذا الوقت . وترى متى ستجد الاستاذة شيه يوم فراغ ، وهى مشغولة يوميا بأعمالها غير المتناهية ؟

الاسهامات والمساعى

يساهمن بصمت ونكران ذات في مختلف اعمالهن ، ولكنهن نساء عاديات ، ومآثرهن عادية مثل روافد تجرى نحو الانهار ثم تصب في البحر . . .

عطاء فى الحب اصيل

" حين امنح طلبتى الحب احظى بحبهم . " هكذا وصفت قوان وان شيا حياتها وعملها بوصفها معلمة لمادة الحساب للاطفال المتخلفين عقليا .

ان التعليم فى افضل الاوقات وفى احسن الظروف يعد عملا مرهقا . فكيف اذا كان مطلوبا منك تعليم اطفال لايستطيعون الاعتماد على انفسهم فى شيء ، اطفال يحتاجون الى من يرافقهم حتى الى دورة المياه ويساعدهم فى تناول طعامهم ، اطفال يلزمهم كبح دائم عن القيام بأعمال فوضوية مؤذية ؟ لا شك فى ان مثل هذه المهمة ستكون – كما تقول قوان وان شيا – عسيرة مرهقة بكل ما فى الكلمة من معنى ، لا سيما لمعلمات تجاوزن الاربعين .

لم يسبق لقوان وان شيا أن تلقت تدريبا على تعليم الاطفال المعوقين عقليا . ولا احد كذلك من معلمى مدرسة بايجيه (دار الرعاية التهذيبية) . كان عليهم جميعا ان يشقوا طريقهم منذ ان تحولت مدرستهم الى مدرسة خاصة بالمعوقين عقليا عام ١٩٨٤ . وقد تغير اسمها حينذاك ايضا الى اسم مناسب تماما ، ما دامت الرعاية التهذيبية العقلية لهؤلاء الاطفال المعوقين قد اصبحت هدف المدرسة .

هناك معلمة اخرى تدعى قوان جيان ترى ان العقل يمكن رعايته وتهذيبه من خلال الموسيقى . وهى فى الواقع تشعر ان الموسيقى يمكن ان تسهل تعليم اى مادة تقريبا . لذلك تقسم الآن وقتها بين تعليم الموسيقى فى الصفوف والدراسة فى معهد تدريب المعلمين .

وهناك معلمة ثالثة فى المدرسة تحمل اسم قوان (لا قرابة بينهن) ـ قوان شيو فنغ ، تعلم اللغة الصينية . وهى يمكن وصفها بالمعلمة المسؤولة (مربية صف) ، اى انها مسؤولة عن الصف طيلة ساعات اليوم ، ترعى احتياجات الطلبة الاخرى الى جانب رعايتها متطلباتهم التعليمية . أنها تقوم بدور ام ومعلمة للطلبة فى آن واحد . لذلك تحضر الى المدرسة باكرا ، وتغادرها فى وقت متأخر . وكثيرا ما تخرج بطلبتها فى نزه قصيرة ، وتزور بيوتهم ، وترسل الى اولياء امورهم تقادير يومية .

اما اعلى صفوف المدرسة فهو الصف السادس (المدرسة تخطط



مساعدة التلاميذ خارج اوقات الحصص

للوصول الى الصف التاسع) ، وهو تحت رعاية واشراف وانغ جينغ فن ، معلمة سابقة للالعاب الرياضية ومدربة لدى الطلائع . لقد فاز عدد من طلابها مؤخرا بمعظم الميداليات الذهبية والفضية فى اللقاء الرياضى الوطنى للمعوقين ، كما حظوا بالثناء على سلوكهم النموذجى . وثلاثة منهم قبلوا فى عصبة الشبيبة الشيوعية ، وتلك بادرة اولى بالنسبة للمعوقين عقليا ، وجميعهم وعدوا بالحصول على عمل بعد تخرجهم فى القسم العملى . ان وانغ تركز على النشاط العملى فى صفها ، وتشعر ايضا ان من المهم ان تغرس فى الاطفال روح المقدرة على العمل لتبنيهم بناء جسميا قويا ولتعزز لديهم الشعور بضرورة خدمة الآخرين . وأحد واجباتها ، بالاضافة الى تعليم اللغة الصينية والمادة العملية (مهارات بسيطة) ، هو تعليم الاطفال السلوك الأخلاقى . لقد جعلت من هذه المادة تطبيقا عمليا ، تسجل خلاله ملاحظاتها على سلوك الاطفال كل يوم ، مركزة على الايجابى منه ومسرفة فى الثناء عليه . وحين قامت المدرسة بنزهة الى الجبل العطرى ، ذلك المنتزه الشهير فى ضواحى بكين ، بقى طلاب جميع الصفوف فى الاسفل ، ولم يصعد الجبل الا طلابها . ان التسلق الى القمة محفوف بخطر الانزلاق ، لكن طلاب صفها قالوا بأنهم لا يخشون الصعوبات ، ومضوا يصعدون دون تردد . وهذه هى الروح المعنوية التى تشعر وانغ بأنها ستساعدهم فى مجالات اخرى ايضا . وحين اخفق طلابها فى محاولتهم صنع احزمة للحقائب قامت بتعليمهم ذلك فى مرتين بعد انتهاء الدروس ، مما جعلهم يدركون ان الانسان اذا صمم على الشىء فلا بد ان ينجح فى تحقيقه اخيرا .



تحضير الدرس

وتقول وانغ بأن هؤلاء الاطفال يتعرضون لصدمات نفسية عند دخولهم المدرسة . وتدرك انهم سيتعرضون للمزيد منها بعد مغادرتهم المدرسة ، لذلك تريد ان يكونوا مستعدين لمواجهة ذلك . ان كثيرا من اوليائهم مفكرون ، فيعتقد الاطفال بأنهم سيصبحون مثلهم فى المستقبل — علماء او ذوى مناصب عالية وغير ذلك من هذا القبيل . انهم يتوقعون ان يحققوا اكثر مما تمكنهم قدراتهم ، فتعلمهم وانغ — علما منها انهم سيباشرون العمل بعد انهاء دراستهم الاساسية — ان لا يتعصبوا الى عمل دون آخر ، وان يرحبوا بأى فرصة تمكنهم من خدمة الآخرين بالقدرة التى يستطيعونها مهما كان حجمها .

التحول

حين اضطلعت المدرسة بدورها الجديد كانت قد مرت بعدة سنوات من الخبرة فى رعاية صفوف خاصة بالطلبة المعوقين ، مضيفة هذه الصفوف الى منهاج تدريسها الطبيعى (فى السنوات الثمانى الاخيرة فقط اولت الصين هؤلاء الاطفال عناية خاصة) . ولكن تحولها الى مدرسة مخصصة كليا للتعليم التخصصى كان صدمة للمعلمين فيها . فمعظمهم آثروا ترك المدرسة . وحاولت قوان جيان الانتقال الى مدرسة اخرى . وكان لديها كورس من الطلبة حائز على الجائزة بين الطلاب الطبيعيين ، لهم اصوات كأصوات الاجراس الفضية . كيف



القاء الدرس

يمكنها ان تواجه الصمت – عدم استجابة الاطفال المعوقين ؟ واحست ان علم الجمال فوق مستوى فهمهم . وجاءها عرض من مدرسة على بعد ثلاث دقائق من بيتها ، وفى ذلك توفير خمسين دقيقة على الدراجة تستغرقها للوصول الى مدرسة بايجيه ، اما زوجها الذى تهمه راحته هو الآخر ، فقد شجعها على الانتقال بعد ان رأى فتور حماستها اثر شروعها فى تعليم الاطفال المعوقين .

وكانت قوان شيو فنغ تعمل فى مدرسة اخرى حين انشئت مدرسة بايجيه . لكن مدرستها الغيت فى تلك الفترة بالذات ، فطلب منها مدير مدرسة بايجيه ان تعمل لديهم . وفعلت ذلك مدرسة اخرى دفعت لها راتبا اعلى ، وهيأت لها ظروفا افضل وفرصا اكثر لرفع مستواها الثقافى .

حقا لقد وجدت هاتان المعلمتان مخرجا . ولكن معظم المعلمين الصينيين لا يجدون ، علما ان القيود قد خفت بعض الشيء . فمعلمو المدارس الابتدائية والثانوية ، على ندرتهم فى الصين ، يعانون من عدم توفر الفرصة امامهم للانتقال . ورفض طلب قوان جيان . ولم يكن الرفض مباشرا بل بفرض شروط مستحيلة ، مثل مطالبة المدرسة الثانية بالتخلى عن افضل اثنين من معلميها بالمقابل ، ومطالبة قوان جيان – على سبيل الدعابة طبعا – بأن تملأ الجدار برايات الفوز قبل ان تنتقل . وهذا كله تم فى جو من المودة ، ولكن بات واضحا ان قوان جيان ستبقى حيث هى .

انها فى السابعة والاربعين من عمرها ، وهى اقدم المعلمات الاربع وتتكلم باسم الجميع حين تقول : بمجرد ان يضطلع متوسطو

الاعمار بمهمة ، فانهم يؤدرنها على خير وجه . وينطبق هذا على المعلمات الاربع جميعهن ، اذ كان عطفهن صادقا جياشا تجاه الاطفال وذويهم . ويجب الاعتراف ايضا بأنهن مطالبات بريادة مجال جديد ، بحيث انهن فى اعمارهن يمكنهن البدء بكل حيوية ، ويمكنهن التعلم واجراء التجارب والتقييم ، والاسهام — وهذا هو الاهم — فى الاساليب التعليمية بطريقة لم يعهدنها من قبل . ان الروتين القديم المعروف فى تعليم الاطفال الطبيعيين لم يعد مطبقا ، فعلى المعلمات ان يبدأن من الصفر .

البدايات

حقا لقد بدأن جميعا من الصفر منذ بضعة وعشرين عاما ، مندفعات بكل حماسة فى وظائفهن التعليمية فور تخرجهن فى المدرسة الثانوية . ففى عام ١٩٦١ علمت قوان جيان من احد اقربائها ان هناك مدرسة ابتدائية تحتاج الى عازفة بيانو . ذهبت اليها ، فأحبتها المدرسة ، واستبقتها لديها معلمة "للموسيقى" . وقوان وان شيا ، وعمرها الآن ٤١ سنة ، قد تخرجت عام ١٩٦٤ ، حين كانت الحاجة ملحة الى معلمى المدارس الابتدائية ، والمدارس تقيم دورات تعليمية . فوجدت عملا هو الاشراف على مجموعات من الطلبة وعلى نشاطاتهم الاستجمامية خارج وقت المدرسة النظامى . اما قوان شيو فنغ ، وعمرها الآن ٤٥ سنة ، فقد اشتركت فى دورة صيفية لتدريب المعلمين اثر تخرجها فى مدرسة ثانوية رئيسية عام ١٩٥٩ . وفى السابعة عشرة من عمرها

بدأت تعلم اللغة الصينية لتلاميذ الصف الرابع . اما المعلمة الرابعة وانغ جينغ فن ، وعمرها الآن ٣٩ سنة ، فهى الوحيدة بينهن التى دخلت مدرسة تدريب المعلمين قبل ان تعين فى مدرسة ابتدائية .

وخلال "الثورة الثقافية" (١٩٦٦ — ١٩٧٦) حسنت قوان وان شيا خطها عبر قيامها بكتابة ملصقات لجيرانها بالمقاطع الصينية الكبيرة . وذهبت الى مدرسة بايجيه (كانت تدعى حينذاك مدرسة يويده) عام ١٩٥٩ لتعمل مسؤولة صف واحد . وفى عام ١٩٧٢ بدأت فى تعليم الرياضيات ، تلك المادة التى لم تقم مطلقا بأى تدريب عليها . اما الآن فهى ليست مجرد مسؤولة عن مجموعة معلمى الرياضيات فى المدرسة ، بل مسؤولة ايضا عن اللجنة التى تقوم بتأليف كتب الرياضيات للتعليم الخاص على مستوى البلدية .

لقد وجدت قوان شيو فنغ ، وهى بعد فى السابعة عشرة ، ان صفها يتراجع على نحو مخيف بسبب افتقارها الى الخبرة ، وان المدير لا يرغب فى استبقائها . فرجته امهالها شهرين آخرين ، ومنحها ذلك . فعملت بجهد حتى استطاعت تحويل الصف الى صف نموذجى . وفى عام ١٩٦١ ارسلت للقيام بدورة مدتها سنتان لتعليم اللغة الصينية . وفى عام ١٩٨٢ امضت سنة فى كلية المعلمين ببكين .

من النشاطات الرياضية والاستجمامية تحولت وانغ جينغ فن الى حفر الانفاق واعمال اخرى مشابهة خلال "الثورة الثقافية" ، مما اساء الى صحتها . فتحولت الى معلمة للمواد السياسية ، ومن ثم للغة الصينية . وكان عليها ان تتعلم الكثير ، ولكن وقت الدراسة امامها كان ضيقا بسبب متاعبها العائلية ، فهناك طفلها الذى يجب ان ترعاه ،

وزوجها بعيد عنها فى الجيش .

التحدى الجديد

فى كل مرة يصبح فيها من السهل على هؤلاء المعلمات ان يسترحن فى استقرارهن على المنجزات الماضية يواجههن تحد جديد . والذى يجعلهن معلمات بارزات هو انهن لايقبلن التحدى فحسب ، بل يرحبن به ايضا . لماذا لم تذهب قوان شيو فنغ الى تلك المدرسة ؟ انها لم تكن واثقة بأنها تستطيع اداء عمل جيد مع هؤلاء الاطفال المعوقين عقليا ، لكنها احست بشفقة كبيرة عليهم . ونظرا لعدم بعدها كثيرا عن سن التقاعد (الخامسة والخمسين بالنسبة للنساء) فقد احبت العمل فى تعليم جديد آخر .

وبمجرد ان وافقت قوان جيان ايضا على البقاء فى المدرسة شحذت عزيمتها ، وبدأت تزور الصفوف الخاصة بالمعوقين فى شانغهاى ، تلك التى انشئت لأول مرة عام ١٩٧٩ ، وصفوف رياض الاطفال الطبيعيين (معتقدة ان الطرق هناك ستكون قابلة للتطبيق) ، والمختصين فى علم النفس التعليمى ، ومعهد نانجينغ الخيرى الذى كان يستقبل الاطفال المعوقين ، وفيه اعتقدت انها ستحصل على المساعدة ، لكنها كانت مساعدة ضئيلة . لقد كانت معلمة الموسيقى فى شانغهاى ضعيفة تنقصها الخبرة . فالطلاب ينامون فى درسها . لقد تعلموا اغنية واحدة ، ويؤدونها صباحا لا غناء . وادركت قوان جيان انها ستنهك فى ظروف كهذه . وارتأت ان روضة الاطفال الطبيعيين

يمكن ان تزودها بالحلول ، لكنها اصيبت ثانية بخيبة امل . فالاطفال كانوا صغارا ، ولم يمروا بعد بأية تجربة ، لكنهم امتازوا بالسرعة والحيوية ، واختلفوا كل الاختلاف عن المعوقين عقليا . وامضت ستة اشهر فى دراسة علم النفس بجامعة بكين ، بما فى ذلك علم النفس الخاص بالتعليم . وجمعت خلال ذلك بين الدراسة والتعليم ، فكانت تسرع بعد انتهاء المحاضرات الجامعية الى مدرستها لتتابع التعليم فيها . ولكنها وجدت ان ما استوعبته عن الاطفال المعوقين قليل جدا . وخلال حضورها مؤتمرا فى نانجينغ زارت المعهد الخيرى هناك ، فوجدت فيه كتبا معروضة للبيع تتحدث عن مرض الاطفال المعوقين ، وكتابا واحدا فقط من الاتحاد السوفياتى ، كتب فى الثلاثينات ، يبحث فى علم النفس لدى الاطفال المعوقين . وتحققت اخيرا من انها يجب ان تطور اساليبها . والآن ، وبعد عدة سنوات من الخبرة ، اصبحت مقتنعة بأن من واجب كل معلم ان يعمل على تطوير خطته التعليمية من اجل التلاؤم مع الوضع الدائم التغير . ومن خلال محاولاتها غير المجدية للحصول على المساعدة رأت قوان جيان ان لديها فراغا فى تعليم اللغة الصينية ، ومن ثم فرصة لفتح مجال جديد ووضع اساس للبحث التالى : كيفية استخدام الموسيقى لبناء الادراك . وهذا اعطاها زخما وقوة دافعة . ولكن كل سنة دراسية جديدة جلبت لها صفا جديدا ، يضم احيانا وجوها يغشيها المزيد من التعوق والتصلب وعدم الاستجابة ، لذلك ظلت تشعر بعدم قدرتها على المتابعة ، ورغبت فى الانتقال . لكن احساسها بالواجب يمنعها . فهى تستجيب لتشجيع اهالى الاطفال ، وتلمس حب الاطفال المتزايد لدرس الموسيقى ،

وتلمس كذلك تقدمهم الكبير على الرغم من بطئه ، وترى كيف يعملون وكيف بدأوا ينمون فى انفسهم الاحساس بالجمال والفن .

المعاناة الشخصية

الاطفال الذين لم يدخلوا مدرسة من قبل يميلون الى سوء السلوك والعجز ، وذووهم لايرجون منهم الا القليل . ان هؤلاء الاطفال يأتون الى المدرسة رافضين اكل الخضار ، عاجزين عن ترتيب اسرتهم عند الظهر (الاطفال يقيلون بعد الغداء كما يفعل معظم الصينيين) ، مستعدين لضرب بعضهم بعضا او الانفجار فى نوبة من الغضب اذا هم لم يحصلوا على ما يريدون . وقد بح صوت قوان شيو فنغ بعد ثلاثة ايام من محاولتها تهدئة مجموعة من الاطفال الجدد الصاخبين الفوضويين. وقد كان بينهم طفلة ، شخصت حالتها قبل بضع سنوات بأنها مجنونة ، ميالة الى ضرب الاطفال الآخرين ، أبوها ينتظر خارج المدرسة مدركا ما يمكن ان يحدث . لقد ذهبت قوان شيو فنغ الى بيت هذه الطفلة لتنشئ معها علاقة جيدة ، لكن الطفلة راحت تقفز وتصرخ محاولة طردها . واستمرت قوان مدة شهر تذهب الى بيتها مساء . وفى ايام الاحاد والعطل كانت تأخذ الطفلة الى المنتزه ، وتتحدث معها ، وتشترى لها ما يعجبها ، وزارت جدة الطفلة التى اتعبتها طويلا وهى توضح لها ما تحتاج اليه الطفلة ، وفى المدرسة كانت الطفلة جشعة تنتزع دائما طعام غيرها من الاطفال . فحكت قوان للاطفال حكاية كونغ رونغ الخرافية ، الولد الذى اختار حبة الكمثرى الصغيرة ، تاركا

الكبيرة لأخيه . وتعلمت تلك الطفلة المزعجة الدرس ، واصبحت الآن تقدم طعامها للآخرين ، وتجلس فى الصف هادئة ، وتغنى لبقية الاطفال ، وتبدى اهتماما بهم حين يمرضون ، كأن تجلب لهم الماء لشرب الدواء ، او تحبس الدم النازف من الانف ، او تفعل كل ما يطلب منها ، وهذا بالطبع تغير ملحوظ .

لكن الضريبة التى تدفعها المعلمات اللواتى يعالجن مثل هذه المشكلات هائلة جدا . انهن يعانين من تعب دائم وحدة عصبية فى البيت ، وعدم صبر على اولادهن . لقد اكتشفن خطورة اخرى ايضا ناجمة من طبيعة عملهن ، وقد تمثلت فى تبلدهن ونزوع تفكيرهن الى البساطة ووضع انفسهن دائما بمستوى المعوقين . لقد انهمكن فى اعمالهن ، واندمجن بالاطفال بحيث اصبح الاطفال لا يغادرون مخيلاتهن .

وحين تشاهد قوان شيو فنغ برامج التلفزيون ، لا تشعر بالراحة التامة ، بل تظل منشغلة الذهن بعملها – كيف تشرح شيئا جديدا لتلاميذها . اما وانغ جينغ فن فشديدة القلق على التلاميذ السبعة الذين حضروا اللقاء الرياضى بحيث لم تستطع تناول طعامها جيدا . وقد فاتها حفل الاستقبال الذى اقيم للرياضيين ، وكان التلاميذ فى اضطراب شديد . وعلاقتها بتلاميذها وثيقة جدا – تأكل معهم ، وتلعب معهم ، وتعمل معهم – بحيث يستدعيها اهالى التلاميذ احيانا طلبا للعون . وبعض التلاميذ يتبعها الى البيت ليرى اين تقيم . وحين يزورها التلاميذ يمكثون عندها بعض الوقت ، ولكن لا يتحدثون كثيرا . انهم يرغبون فى الذهاب اليها . واحد التلاميذ مصاب بالصرع ، لذلك دائما ما

تصطحب وانغ دراجتها معها فى النزهات التى تقيمها لتلاميذ صفها .

شعور بالتوازن

ان الاستثناء الوحيد فى هذا المجال قد يكون قوان جيان التى اقصت نفسها الى حد ما ، وذلك لطبيعة عملها من جهة ولقضائها نصف الوقت فى الدراسة من جهة اخرى . وهى ايضا تعيش فى ظروف تقصيها مباشرة عن كل ما يذكرها بالمدرسة . وتقيم بعيدا جدا عن المدرسة ، فلا مجال لتردد تلاميذها عليها كما يفعلون احيانا بالنسبة لبقية المعلمات ، لاسيما اذا مرضت معلمتهن المحبوبة .

وكل من قوان جيان وزوجها اللذين يقومان حاليا بمهمة عمل فى السفارة الصينية بمدريد مذة سنتين لديهما خلفية من يعيشون خارج مواطنهم ، وبيتهما يعكس هذه الظاهرة ، فهو واسع رحب ، جيد الفرش (معظم الاثاث من تصميم قوان جيان نفسها) ، مملوء بالتحف والازهار ، الحقيقى منها والاصطناعى ، وهذا ما يجعل الصينيين الآخرين يشعرون لدى دخوله انهم فى شقة غربية الطراز . وانه ليعد معتزلا بالنسبة لقوان جيان التى تشارك فى غرفه الثلاث بالاضافة الى ردهة الطعام والمطبخ الطويل والحمام والشرفة الدفيئة والحديقة ابنتها البالغة من العمر ستة عشر عاما والتى تعيش حرة مستقلة التفكير . وتشعر قوان جيان انها قد ورثت الموهبة الموسيقية وقوة الشخصية عن امها التى اضطلعت وحدها بتربية اولادها الخمسة بعد ان غادر ابوها الى هونغ كونغ قبل التحرير ، وانقطعت صلته بالاسرة . هذا وان والدى

زوج قوان فى مراكز عالية فى الدوائر الحكومية ، وكانا فى السابق يعيشان فى الخارج ، ويعتبران من المثقفين التقدميين برغم كونهما من العناصر البرجوازية . وقوان نفسها زارت زوجها فى اسبانيا . وخلال اقامتها هناك تقصت احوال المعوقين عقليا . ان نظرتها المستقبلية وطموحاتها ربما تكون اوسع مما لدى بقية المعلمات ، ولديها ايضا مزيد من الوقت والطاقة تخصصهما للتلاميذ . انها تسهر حتى منتصف الليل ، تدرس ، وتكتب الملاحظات (تحتاج الى وقت لكتابة وظيفتها اكثر مما يحتاج الى ذلك تلاميذ صفها) . وتتقاسم مع ابنتها الاعمال المنزلية والعناية بالحديقة ، وتلتمس الراحة فى زيارة صديقاتها . انها تنشد التوازن النفسى فى حياتها ، وتشعر ان عملها مع المعوقين عقليا يجب ان يكون متوازنا ، لما هو عليه من اهمية ، مع الغنى الثقافى . وفى الايام المرهقة تجلس الى البيانو وتغنى اغنية تدعى " اين السعادة ؟ " ، وتقول كلماتها : السعادة ليست فى ظل الصفصاف ولا داخل الدفيئة ، وانما فى العمل وفى بذل العرق وفى الحكمة المشرقة .

العيش فى وئام ومودة

ان التصميم على اداء عمل جيد يتمثل فى اعداد المعوقين عقليا لأخذ مكانهم المناسب فى المجتمع ربما يكون الاسهام الوحيد الذى تشترك فيه قوان جيان وبقية المعلمات . فالمعلمات الاخريات يعشن فى بيوت بكين التقليدية ذات الافنية . والافنية الآن محتشدة بالسقائف والملحقات من مختلف الاشكال والاحجام . وتملك وانغ جينغ فن

اصغر غرفة فى الفناء ، وهى مركومة بالاثاث ، وتقتسمها مع زوجها (المسرح من الجيش حاليا) وابنتها البالغة من العمر عشرة اعوام . والمطبخ مجاور لها ، اما دورة المياه العامة فتحتاج منهم الى سير اكثر من خمس دقائق . وارض الغرفة من الآجر الاسمنتى والبلاط ، وهذا ما يجعلها ملائمة لتحريك الموقد فيها خلال الشتاء للتدفئة . والبراد محيد جانبا وملفوف بالورق المقوى ، لا يستخدم فى اشهر البرد توفيرا للكهرباء . وفى الزاوية ثبتت طاولة مكتب الى جانب خزانة ثياب كبيرة فى اعلاها خزانة خشبية مزودة بأدراج ، تغطى كل الفراغ فى الجدار . وكى تتمكن وانغ من العمل ليلا فانها تغطى المصباح بواقية . وثلاثتهم ينامون على السرير الكبير الذى يشغل حيزا لابأس به من الغرفة . وهناك طاولة متداعية تكفى لسد الفراغ الباقى من الغرفة ، يتناولون عليها وجباتهم . وتتردد وانغ بين هذا البيت وبيت امها ، فتذهب الى هناك يوميا فى وقت الغداء ، حين يكون تلاميذها فى راحة ، لتعتنى بأمها العجوز البالغة من العمر سبعين عاما . لقد امضت سنوات فى العناية بوالديها المريضين واقربائها وهى فى زحمة اعمالها . وكان احد الاسباب التى دعتها للانتقال الى مدرسة يويده كما كانت تدعى عام ١٩٧٨ هو انها اقرب الى مسكن اسرتها . فحين اصيب والدها بالسرطان اخذت على عاتقها مسؤولية العناية به . وامها التى شغلت بالعناية بزوجها لم تجد متسعا من الوقت للعناية بطفل وانغ . اما وانغ فلا بد ان تمضى الامسيات متعبة وحيدة فى اعداد اوراق الطباعة لتلاميذها . وعندما توفى والدها عام ١٩٨٠ اخذت اذنا بثلاثة ايام فقط .

وقوان وان شيا واسرتها (زوج وولد فى السابعة عشرة) كانوا يقيمون

فى الغرفة التى تشغلها الآن اسرة وانغ جينغ فن ، لكنهم انتقلوا الى غرفة اكبر (١٤ مترا مربعا) ، وتركوا غرفتهم السابقة لأسرة وانغ جينغ فن . ومطبخهم خارجى ، وعليهم استخدام صنبور فى الفناء ودورة مياه عامة . اما حماة قوان التى تعيش معهم فتقيم فى سقيفة منفصلة . ومع وجود سريرين فى الغرفة وبراد وآلة خياطة وخزانة ثياب وخزانتين بأدراج وألواح خشبية تستخدم مقاعد لم تبق فيها حتى ولو فسحة صغيرة للتحرك . ويدرس ابن قوان فى مدرسة مهنية ، اما زوجها فمعلم فى مدرسة ابتدائية . وهو الآخر مشغول فى مراجعة الكتب المدرسية فى اوقات فراغه ، فنادرا ما يخرجان من البيت . وفى الفصل الثانى من العام الدراسى تعمل قوان مندوبة عن منطقتها فى مجلس نواب الشعب ، وهذا يعنى انها يجب ان تكون نشيطة فيما يتعلق بشؤون الجيران : تسعى لانشاء المزيد من دورات المياه العامة ولاصلاح الطرق ولتوفير مرأب للدراجات وصفائح للنفايات وغير ذلك . وتلبس على رأسها تاجا ثلاثيا باعتبارها معلمة نموذجية على مستوى البلدية والبلاد عامة فى مجال التعليم الخاص ومعلمة نموذجية فى مجال التعليم العام . (قوان جيان معلمة نموذجية ايضا على مستوى البلاد فى مجال التعليم الخاص) . وهذا اثار بعض الغيرة فى المدرسة (رد عليها الى حد ما بمأدبة اقامتها هى ومدير المدرسة لبقية المعلمات ، وتمنحها المدرسة معظم نقود الجائزة) ، واضاف اليها مزيدا من العبء .

ان اسرة قوان شيو فنغ الموسعة تشغل اربع غرف فى احد الافنية . ابنتاها (واحدة فى السادسة عشرة والثانية فى السابعة عشرة) مع حماتها فى غرفة ، وشقيقة زوجها مع زوجها فى غرفة اخرى ، وهى وزوجها

فى غرفتين ، واحداهما غرفة جلوس عامة . وهذه الاسرة من قومية مان ، وقد حصلوا على هذا المسكن منذ وقت طويل . والمطبخ فى الفناء يحاذى سقيفة لتربية الحمام ، وتلك هواية الاسرة منذ اربعة اجيال . وحماة قوان هى التى تقوم باعداد الطعام ، وتريحها كذلك من معظم الاعمال المنزلية ، مقدرة مدى انشغالها . وتستغل قوان الوقت فى استنباط مشاريع لتلاميذها ، مثل نماذج تطريز يقلدونها بدقة ، وفى تطوير اساليبها لتعليم اللغة . وتروى لنا قوان قصة بعد اخرى عن سلوك تلاميذها ، لاسيما الثلاثة الاكثر ازعاجا ، ومن بينهم تلك التى سعت الى كسب ودها بأقصى جهدها . وعلمت قوان صفها لغة الاشارة التى اضطرت هى الى تعلمها اولا ، وبذلك تمكنت من اشراك طفل اصم كان من عادته الصياح طول الوقت . وكى تتمكن من تعليم طفل عنيد دائم الصراخ ، ومن عادته ان ينام فى الصف ويشخر او يكتفى بالتحديق الى قوان بنظرة بلهاء ، ويؤثر بتصرفه هذا فى الاطفال الآخرين ، فانها عمدت الى تعليم تلاميذها بناء بيت بغير حجارة ، ثم هدمته ، شارحة لهم ان ذلك هو ما يفعله الطفل بالنسبة لهم . لقد ظل هذا الطفل محبوسا فى للبيت ثلاث سنوات دون اية ارتباطات خارجية ، فأصبح يرتاب فى كل شخص ، ولا يفهم العلاقات الانسانية . وحين مرض ذات يوم ، ذهبت قوان بجميع زملائه فى الصف لزيارته ، فتأثر هذا الصبى لما ابدوه له من مشاعر الود والصداقة ، وتخلى مباشرة عن تنمره عليهم . لقد علقت امه ثلاث قواعد سلوكية على الجدار فى غرفة نومة : ١) انهض التجيب عن الاسئلة . ٢) اجب عن جميع الاسئلة . ٣) لاتنم فى الصف .

وقد اصبحت المعلمة قوان الآن " صديقته الحميمة " .

يقوم الصف بزيارة التلاميذ الذين يمرضون ، ويقيم حفلة فى عيد ميلاد كل تلميذ . وتحول هذا الحشد المشتت غير المترابط الى جماعة متحدة متماسكة . والتلاميذ الآن نشيطون ويشاركون فى الدرس ، حيث قوان شيو فنغ ، بالاستعانة بجهاز عرض للصور ، تقودهم عبر تعقيدات اللغة الصينية .

وواضح من قوان شيو فنغ وبقية المعلمات ان مهمتهن الجديدة بكل لحظاتها المؤلمة والمبطة قد حزرت فيهم روحا خاصة قوية للابداع . فدون تقيد منهن بخطط المنهاج الدراسى والكتب المدرسية المطلوبة يعملن بكل حرية على تطوير موادهن الخاصة ، ويقبلن على العمل بمزيد من التفانى ، وعلى اجراء التجارب ، والاكتشاف ، ومتابعة الموهبة ، وتطوير النظرية . هن انفسهن كالتلاميذ قد بدأن من جديد ، فاتحات فصلا جديدا فى حياتهن ، ومكتشفات طاقات وقوى ومقدرات جديدة . ان الباحث التعليمى فى الغرب يضع حاليا معيارا " للمعلم الامثل " . ويبدو ان بندين من هذا المعيار ينطبقان على معلمات مدرسة بايجه : " المعلم الامثل هو الذى يستمتع فى مساعدة الآخرين على التعلم ، وكذلك الذى يعلم بكفاءة ممزوجة بالحب . "

ما شيا

مايو ١٩٨٧

مستقبلات " الملائكة الصغار " في " مملكة البنات "

اقصد بـ " مملكة البنات" هنا مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين ، ذلك لأن اكثر من ٩٧٪ ممن يعملون فى هذا المكان من الجنس اللطيف . واقصد بـ " الملائكة الصغار" المواليد ، لذلك فان الطبيبات والممرضات فى مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين هن مستقبلات " الملائكة الصغار" فى " مملكة البنات" .

انهن يستقبلن المواليد الواحد تلو الآخر للكثير الكثير من الامهات ، ويمكنهن من اداء ترنيمة النوم العذبة لأطفالهن . وكل مولود سيعزف فى هذه الدنيا معزوفة الحياة ، وسيترعرع من نبتة الى دوحة ، وسيضفى على هذا العالم مناظر بهية وألوانا زاهية . ان المستقبلات يقابلن بالاحترام والمحبة من الاهالى فى هذه " للمملكة " المفعمة بالافراح والعواطف والنابضة بالنشاط والحيوية .

عشنا فى هذه " المملكة " عدة ايام ، فلاحظنا بأنفسنا كثافة اعمال اولئك المستقبلات للملائكة الصغار وحماستهن فى العمل وفرحهن بقدوم المواليد . وقد ترك ذلك انطباعات عميقة جدا فى قلوبنا .

تشانغ ينغ جيه ـ مديرة المستشفى ومقيمة " جسر الاخصاب "

كان مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين اصلا مركزا تجريبيا للوقاية الصحية للنساء والاطفال تابعا مباشرة لوزارة الصحة المركزية . وفى عام ١٩٥٦ انتقلت تبعيته الى مصلحة الصحة العامة فى الحكومة الشعبية لمدينة بكين . وفى فبراير من العام نفسه وضع حجر الاساس لبناء مستشفى امراض النساء والتوليد القائم فى بكين اليوم . وقد تم تدشينه فى يونيو ١٩٥٩ ، ويعتبر المستشفى المركزى لأمراض النساء والتوليد فى بكين ، ويضطلع بمهام العلاج والوقاية الصحية والتعليم والبحث العلمى . ويضم هذا المستشفى قسم الولادة وقسم امراض



تشانغ ينغ جيه مع حفيدها

النساء وقسم تنظيم النسل وقسم الاورام وقسم الدمج بين الطب الصينى التقليدى والطب الحديث وقسم المواليد ، وذلك فى كلا العيادتين الخارجية والداخلية . ويضم ايضا غرف استقبال المرضى المحتاجين الى العلاج الطارئ وغرف العمليات الجراحية اللازمة للعلاج الطارئ وغرف التوليد وغرف عمليات التعقيم لتنظيم النسل وغرف الاشعة . وخدمة للابحاث العلمية والفحص الطبى الخاص اقيم فى هذا المستشفى مكتب الافراز الباطنى ومكتب الوراثة ومكتب الدورات الدقيقة ومكتب الباثولوجيا الخاص بالانجاب ومكتب رقابة المواليد . وفى هذا المستشفى ايضا قسم للتخدير وقسم للوقاية الصحية فى منطقة المستشفى وقسم للتغذية وقسم للمعدات الطبية وقسم للاحصاء الطبى ، وغرف للتحليل والصيدلية والموجات فوق الصوتية واشعة لازر والمداواة الطبيعية والصورة البيانية الكهربائية لعمل القلب . وفى عام ١٩٨٦ كان فى المستشفى ٣٦٤ سريرا بالاضافة الى ١٥٠ سريرا للمواليد ، وقد وصلت نسبة استخدام الاسرة ٩٤٫٨٪ ، وبلغ مجمل مرات تردد المرضى على المستشفى للعلاج او التشخيص ٢٤٨٫٩٢٤ مرة فى السنة ، ومرات اقامة المرضى فى المستشفى ١٣٫١٠٠ مرة ، ومرات العمليات الجراحية الكبيرة والمتوسطة ٣٫٠١٠ مرة ، ومرات العمليات الجراحية لتنظيم النسل ١٦٫٤١١ مرة ، ومرات توليد الحوامل ٥٫٤٥١ مرة ، منها ١٫٣٥٨ ولادة قيصرية ، وكان عدد المواليد ٥٫٤٥٠ مولودا ، ولم تحدث فى ذلك العام اية وفيات بين الحوامل على الاطلاق . وفى عام ١٩٨٣ تم تحديد هذا المستشفى بالتعاون مع المنظمة العالمية للصحة مركز تعاون مع المنظمة العالمية للصحة فى للبحوث والتدريبات

فى مجال اعمال الوقاية الصحية حول الانجاب .

لقد تطور هذا المستشفى تطورا سريعا ، ويعمل فيه الآن اكثر من ٨٠٠ شخص ، ويحتل عدد الطبيبات والممرضات اكثر من ٩٧٪ ممن يعملون فى مجال العلاج والتمريض . اما العاملون الرجال فى هذا المستشفى فأغلبيتهم فى الاقسام التموينية ، ويعملون سويا مع الطبيبات والممرضات على توفير الطمأنينة والامن والسرور والعناية الصحية للامهات والمواليد .

هناك عدة اختصاصيات فى الولادة تولين منصب مديرة هذا المستشفى على التوالى ، واولاهن السيدة لين تشياو تشى الذائعة الصيت . ومديرته الحالية تشانغ ينغ جيه الشهيرة بأنها تقيم "جسر الاخصاب" .

تخرجت تشانغ ينغ جيه فى جامعة الطب الصينية عام ١٩٥٠ ، ومارست العمل فى قسم امراض النساء والتوليد فى المستشفى ، وكذلك اعمال التعليم والابحاث فى مجال الطب مدة تزيد عن ثلاثين عاما . وفى عام ١٩٨٤ نقلت من مستشفى جيشويتان ببكين الى مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين لتتولى منصب المديرة فيه . ومنذ ذلك الحين بدأت تعمل فى "مملكة البنات" جاهدة ليل نهار ، تتحمل كل يوم هى وجميع الطبيبات والممرضات فى المستشفى مهام العمل الثقيلة جدا .

نشأت تشانغ ينغ جيه فى شمال شرقى الصين ، وتتحلى بالشجاعة والصراحة وعدم التكلف ، كما تجمع فى شخصيتها كل ما لدى الجنس اللطيف من رقة وانس وحنان . انها مديرة للمستشفى من جهة وطبيبة رحيمة بارعة من جهة اخرى . وقد قالت لى بصراحة :

ـ يسرني ان اقوم بالابحاث العلمية الطبية ، وقد حققت تقدما متتاليا في الابحاث التي اقوم بها . والآن اتولى منصب مديرة المستشفى ، فأصرف وقتا قليلا في الابحاث العلمية ووقتا كثيرا في العمل الاداري ، ولكني غير آسفة على ذلك لأنه لا يصح ان تكون ادارة هذا المستشفى سيئة . والاهم من ذلك ان مستشفانا مكان بالغ الاهمية تتوقف عليه حياة الانسان ، واية نقيصة ادارية قد تشكل اخطارا . وعلي في الوقت نفسه ان ابذل الجهود لانجاز مواضيع ابحاثي في امراض النساء والولادة ، لذلك اركز عملي على انقاذ المرضى ، وارى هذا واجبا مقدسا لكل طبيب .

كيف اشتهرت تشانغ ينغ جيه باقامتها "جسر الاخصاب" ؟

غالبا ما يتمنى الزوجان ان يكون لديهما مولود محبوب ، ولكن الوالدين قد يفقدان مولودهما لسبب من الاسباب ، فيعانيان من الوحشة ، وخاصة بالنسبة للامهات اللواتي قد اجريت لهن عملية التعقيم . فاذا فقدت الام المعقمة مولودها ، فان ألمها النفسي قد يصل بها الى حد الجنون .

في عام ١٩٧٩ ترأست تشانغ ينغ جيه مجموعة من الطلبة لأخذ دروس تطبيقية في المستشفى . فوجدت اما تتألم تألما بالغا لوفاة طفلها ، وكانت ممن اجريت لهن عملية التعقيم . وانطلاقا من واجبها المقدس وعطفها على هذه الام المسكينة عقدت تشانغ ينغ جيه عزمها على تلمس وسيلة تخلصها من آلامها وهمومها . وكانت هذه الوسيلة هي " اقامة جسر للاخصاب" اي اجراء عملية للأم قناة فالوب المبتورة . وهذه العملية الجراحية عملية مجهرية تجرى بواسطة المجهر .

وقد اجرتها تشانغ ينغ جيه فعلا على تلك الام المعقمة . وفى الشهر الثانى من اجراء هذه العملية اخصبت تلك الام ، وتأكد نجاح هذه التجربة . ومنذ ذلك الوقت كثرت عملية لأم قناة فانلوب المبتورة ، وتم تعميمها تدريجيا . وقد تجاوزت نسبة النجاح فى هذه العملية فى مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين ٩٠٪ . وتشترك تشانغ ينغ جيه فى هذه العملية دائما برغم مشاغلها .

كانت مقابلتنا الصحفية عشية عيد العمال العالمى فى اول مايو ١٩٨٧ . وقد قالت تشانغ ينغ جيه لنا :

– تقيم فى العنابر حاليا ٥ او ٦ امهات ينتظرن اجرائى لهن عملية لأم قناة فانلوب . والصين تطبق سياسة تنظيم الاسرة باعتبارها سياسة اساسية للدولة من اجل التحكم فى ازدياد السكان حسب الخطة الموضوعة . ولكن بالنسبة لمن لا اولاد لهم او بالنسبة للرجال العقيمين والنساء العقيمات فاننا نستأصل امراضهم ، ونزيل همومهم بقدر الامكان ، وهذا الامر يراعى مراعاة تامة فى تطبيق سياسة الدولة الخاصة بتنظيم الاسرة .

ومن اجل دراسة تأثيرات مشيمة الجنين على نمو الجنين ودراسة التسمم الحبلى كانت تشانغ ينغ جيه تأتى الى المستشفى فى الساعة السادسة من صباح كل يوم فى الفترة الممتدة من اكتوبر ١٩٨٤ الى ربيع ١٩٨٥ لفحص مشيمات الجنين ، وقد فحصت فى تلك الفترة اكثر من ألف حالة من حالات مشيمات الجنين ، وجمعت خلال ذلك المعلومات المفيدة لأبحاثها العلمية على حساب راحتها الخاصة .

وتحدثت معنا خلال المقابلة عن احوال حياتها وموقفها من الحياة فقالت :

– من اجل توفير اوقاتى للعمل جعلت متطلبات معيشتى بسيطة جدا . فمن حيث الطعام يكفينى ضمان الاغذية الضرورية بغض النظر عن حسن مذاقها . وزوجى طبيب مختص بالامراض الباطنية ، ونفهم بعضنا بعضا ، ويؤيد احدنا الآخر فى تخصصاتنا ، وعواطفنا منسجمة . ودائما ما يبادر الى غسل الملابس وشراء الحاجات اليومية واعداد الطعام دعما لعملى ، وانا كذلك ، فاذا انصرفت من العمل وعدت الى البيت قبله ، ابادر الى اعداد الطعام . اننا لا نصرف اوقاتا كثيرة على امور معيشتنا . وانا لا اهتم بالشؤون المنزلية كثيرا ، فجل اهتمامى منصب على اعمال المستشفى . فاذا كانت هناك مريضة فى حالة خطرة ، فاننى اقلق اشد القلق ، واتوجه الى المستشفى ، ولو كنت فى يوم راحة ، لألازم المريضة واراقب تطورات حالتها . ومن الناحية الاقتصادية فليس عندنا اى مطمح من المطامح ، وليس لدينا ودائع مالية كذلك ، ونعيش الآن مع افراد اسرتنا فى انسجام تام .

لا اجد الآن وقتا للتسلية . وكنت فى السابق اتخذ تسلق الجبال والسباحة وركوب الدراجة وسيلة للترفيه . اقوم بالسباحة فى الصباح الباكر يوميا فى الفترة ما بين مايو ونوفمبر من كل سنة ، ومازلت اواظب على هذه العادة برغم ان بيتى يبعد الآن كثيرا عن موقع العمل . ونتيجة مثابرتى على الرياضة البدنية فى الماضى ما زالت صحتى جيدة الى الآن . وشهيتى لا بأس بها ، واحب مختلف انواع المأكولات ، واحب

الذرة الصفراء على الاخص ، فاذا وجدت فرصة لأكل الذرة ، فدائما ما آكل اكثر مما ينبغي عاجزة عن كبح هذه الشهية . . .

وضحكت ضحكا طويلا ، واحسست من ذلك بلطفها وصراحتها.

وقالت لنا احدى زميلاتها :

ـ ان مديرة المستشفى تشانغ امرأة قوية وتحب تخصصها . ومعلوماتها الطبية متطورة تطورا شاملا فى مختلف المجالات كأمراض النساء والولادة وتنظيم الاسرة والاورام ، وقد قطعت اشواطا كبيرة فى بحوثها العلمية الطبية . وهى متحمسة للاصلاح . ومع تطور الاصلاح قام مستشفانا عام ١٩٨٤ تحت قيادة المديرة تشانغ بالتعاون الطبى مع الوحدات الطبية الاخرى . فمثلا تم تأسيس فرع له فى مستشفى محافظة تونغشيان لأمراض النساء والتوليد عن طريق التعاون معه ، والفرع يضم ٢٨ سريرا و ٥ طبيبات و ٥ ممرضات مرسلات من مستشفانا . ويخدم هذا الفرع ١٨٠ ألف امرأة فى تلك المحافظة فى مجال التوليد وعلاج امراض النساء . والآن توسع نطاق خدماته ، حيث اقام الفرع علاقات علاجية مع ٤ مصانع على مقربة منه . وليست النساء الفلاحات وحدهن اللاتى يأتين من اماكن قريبة للعلاج والتشخيص ، بل تأتى اليه ايضا نساء من اماكن بعيدة او من مدينة بكين للعلاج والتشخيص . وهذا زاد من الفوائد الاقتصادية لمستشفانا ، وخفف اعباء مستشفى المحافظة كذلك . ولقد اقام مستشفانا ايضا علاقات الاستشارات الطبية الخاصة بين اطباء مختلف الاقسام مع عدة مستشفيات قاعدية لمساعدتها على معالجة الامراض المستعصية . وفى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ اختير مستشفانا وحدة طبية متقدمة فى مدينة بكين مرتين متتاليتين ، ويمكن

القول بأن مديرة مستشفانا تشانغ لا تقيم "جسورا للاخصاب" فحسب ، بل تقيم ايضا " جسرا طبيا " لاجراء التعاون الطبى بين المدينة والريف ، " وجسرا عاطفيا " لتنشيط مشاعر القابلات تجاه المواليد فى مملكة البنات .

الطبيبة والام والزوجة

ان اكثر من ٩٧٪ ممن يعملون فى مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين هم — كما اسلفنا — من الجنس اللطيف ، وبعبارة اخرى انهن الطبيبات او الممرضات والامهات والزوجات فى آن واحد . وامامهن مهام العمل الرسمى والعمل فى الشؤون المنزلية . ان اى لقب من هذه الالقاب الثلاث الطبيبة والام والزوجة يتطلب منهن تقديم المحبة دون تفكير فى ذواتهن ، وهذا هو الواجب المقدس للطبيبة والام كذلك .

ان الطبيبة فان هوى مين هى رئيسة قسم تنظيم الاسرة ، وعمرها ٥٤ عاما ، وقد تخرجت فى معهد الطب فى بكين عام ١٩٥٥ ، وعملت بجهد واجتهاد فى جبهة العلاج الطبى اكثر من ٣٠ عاما . وزوجها طبيب ايضا ، ولهما ابنتان ، احداهما مصابة بالفتق المخى الذى يعتبر مرضا عضالا ، وتعانى من آلام شديدة حين تأتيها النوبة المرضية . وعلى الطبيبة فان الى جانب هذا رعاية والدتها المسنة — عمرها ٨٥ عاما — المقيمة معها لعجزها عن العيش مستقلة بسبب اصابتها بكسور فى العظم . وهذه الاعباء المنزلية الثقيلة لم تغرق فان وزوجها فى الهموم

والشؤون المنزلية الشخصية ، بل ظلا مواظبين على عملهما الرسمى خدمة للمرضى فى المستشفى ، وبعد عودتهما الى البيت يقومان برعاية البنت والوالدة المريضتين .

ومنذ اوائل الثمانينات بدأ الاصلاح والانفتاح فى الصين يتطوران نحو العمق تدريجيا . بذلك طرأت تغيرات على تفكير الناس ومفاهيمهم واساليب حياتهم ، ولا سيما الشباب . انهم يتعلمون بجد واجتهاد كل ما يرونه مفيدا لهم . والشابات فى "مملكة البنات" كذلك . ولكنهن يتميزن بميزات فريدة حيث انهن مشغولات بالاعمال فى المستشفى ليلا و نهارا يخدمن الحوامل والمريضات .

وممرضات العنبر الثامن مجموعة متقدمة فى مدينة بكين ، وهن يضطلعن بأعمال التمريض لقسم التوليد . وهناك قصة حول خدماتهن الحماسية المخلصة .

ذات مرة جاءت الى العنبر الثامن امرأة فلاحة قادمة من احدى القرى الجبلية البعيدة بمحافظة ميون فى ضواحى بكين البعيدة تشكو من نواسير فى المهبل والمعى المستقيم . وكانت هزيلة الجسم ، تفوح من بدنها رائحة كريهة ، فكل الناس ينفرون منها ، حتى زوجها لا يريد الاقتراب منها . وبعد اقامتها فى العنبر الثامن لم يأت احد لزيارتها مطلقا . ولكن ممرضات العنبر الثامن عطفن عليها عطفا شديدا ، فالى جانب تمريضها تمريضا دقيقا بالتنسيق مع الطبيبات فى العلاج الطبى ساعدنها على غسل جسمها وملابسها وتنظيم غذائها وعملن على التهدئة من قلقها ، الامر الذى جعلها تحس بأن ممرضات العنبر الثامن وحدهن عزيزات عليها . وبعد شفائها من مرضها ، تلاشت

بالطبع تلك الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث من جسمها ، وازداد وزنها ازديادا ملحوظا ، وتحسنت معنويتها . وحينما عرف زوجها هذا الخبر ، جاء الى المستشفى مسرورا لاخراجها ، واحضر كمية من التمور الحمراء لاهدائها الى الممرضات تعبيرا عن شكره الجزيل .

وممرضات مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين لسن قانعات بمستواهن الحالى فى التمريض ، لذلك يسعين لاغناء خبراتهن فى اعمال التمريض مسايرة لتطور العلوم وقضية الطب ، كما يدرسن علم التمريض النفسى حتى يستطعن اللحاق بالتطورات الجديدة لتداخل الاقسام الطبية باتخاذ قسم امراض النساء وقسم التوليد اساسا لمعارفهن .

ان الطبيبات والممرضات فى قسم التوليد مشغولات بأعمال التوليد ليل نهار . وقد عرفتنا الطبيبة وانغ شو لان بحياتهن قائلة :

ـ كى تستطيع النساء الصينيات تسجيل مآثرهن عليهن ان يعملن بكل كد واجتهاد مضحيات بمصالحهن الخاصة . اننا لا نستطيع الانصراف من موقع العمل فى الموعد المحدد كل يوم بل نضطر غالبا الى العمل اكثر من الوقت المطلوب . وفى الاعياد والعطل لابد ان يواظب بعضنا على العمل فى اقسام الخط الاول والتموين لأن الولادة متوقعة فى كل لحظة ، والطوارئ قد تحدث فى اى وقت من الاوقات ، وعملية التوليد ليست سهلة . والمستشفيات فى الصين قليلة بالنسبة لتعداد السكان الضخم . لذلك يظل الاطباء الصينيون منشغلين جدا . فى عام ١٩٨٥ بلغ عدد المواليد الذين تم توليدهم فى قسمنا ٦٠٥٨ مولودا ، وفى عام ١٩٨٦ بلغوا اكثر من ٧ آلاف مولود . وتحتل

نسبة التوليد بالعملية الجراحية ٢٥٪ ونسبة العملية القيصرية ٢٢٪ .
ويضم مستشفانا ٥ غرف للعمليات الجراحية ، وكلها على اهبة الاستعداد طوال الاربع والعشرين ساعة كل يوم . وقسم التوليد وحده يجرى وسطيا ١١ عملية فى اليوم و١٧ او ١٨ عملية فى بعض الايام . فيبلغ مجمل العمليات الجراحية فى الشهر ٢٠٠ عملية تقريبا ، واكثر من ٢٣٧٠ عملية فى السنة . وذات مرة اجريت ١٣ عملية قيصرية فى يوم واحد خلال فترة قبل الظهر . وان حجم الاعمال الجراحية الشهرى يساوى الآن الحجم السنوى لهذه الاعمال فى الماضى . وكثيرا ما تعجز الطبيبات عن الانصراف من موقع العمل فى الموعد المحدد ، وتعجز كذلك عن تناول الطعام . ولم تفشل لدينا ولو عملية واحدة ، مما يدل على ارتفاع مهارة طبيباتنا الجراحات وعظم احساسهن بالمسؤولية وتطور قضية الطب فى مستشفانا . ومن اجل تجنب التلوث الجرثومى بعد العمل الجراحى لا يسمح لأحد من ذوى المريضة بمصاحبتها ، فى الليل ، فالممرضات يقمن بكل ما يلزم . ومنذ عدة سنوات لم يحدث اى تلوث خلال العملية الجراحية او بعدها ، وتعمل فى العنبر الثامن الخاص لقسم التوليد ٨ ممرضات يضطلعن بتمريض ٤١ امرأة واضعة و٤٤ امرأة على وشك الوضع . ونصف هؤلاء الممرضات فتيات غير متزوجات ، ويعملن بجد واجتهاد ، لا يخشين التعب ولا يتأففن ، ويعتنين بالمريضات كل العناية ، فطبيعى الا يحدث التلوث بعد العمل الجراحى .

من المفروض ان تكون الحياة متنوعة متلونة ، ولكن حياتنا قليلة الالوان . ان افراحنا مستمدة من احساس المريضات والامهات بالفرح

والسعادة ، وليس لدينا وقت للتمتع بالفنون والخروج الى النزهة . نتناول لقيمات من الخبز على عجل قبل انطلاقنا الى وردية العمل صباحا . وبعد انصرافنا من العمل نشترى بعض الخضار المتبقية فى السوق فى غير مبالاة لاعداد العشاء . واذا كان ازواجنا مشغولين كذلك بأعمالهم الرسمية ، تزداد اعباؤنا بتولى الشؤون المنزلية ايضا . انا اخرج من البيت فى الصباح الباكر واعود اليه مع الغروب . وفور دخولى البيت على ان اسرع فى اعداد العشاء . لا اشاهد الفيلم السينمائى الا مرة واحدة فى الشهر . ولا اشاهد من برامج التلفزيون الا نشرات الاخبار لانشغالى بالشؤون المنزلية . وفى مواقع عملنا فى المستشفى نعمل بلا انقطاع لأن هناك اعمالا كثيرة يجب تأديتها فى حينها . والمريضات والواضعات فى حاجة ملحة الينا فى كل لحظة . وفى بعض الاحيان تتوقف حياتهن على استجابتنا لطلبهن ، فلن نكون عديمات الرحمة فى تركهن ينتظرننا .

قابلنا فى هذا المستشفى رئيسة الممرضات ، وهى شابة دائمة السرور ، لا تعرف الهموم ابدا . وقد حدثتنا قائلة :

— بدأت اعمل ممرضة منذ ١٠ سنوات . وانى احب وظيفتى الحالية كما احب مستشفى امراض النساء والتوليد . ان عملى هنا مرهق ، ولا اتوخى منه مستقبلا وضاء ، ولكنى امرأة عادية واحب ان اخدم الشعب باخلاصى فى هذا العمل العادى . بيتى بعيد عن هذا المستشفى . فعلى ان اصرف كل يوم ٣ ساعات فى الطريق ذهابا وايابا ، ولذلك لا اجد الوقت الكافى لأداء الاعمال المنزلية . وقد سبق لى ان طلبت الانتقال الى موقع عمل آخر قريب من بيتى ، ولكن

عندما وافقت ادارة مستشفانا على طلبي مراعاة لظروفي ترددت في الانتقال حبا في البقاء حيث انا ، وسحبت طلبي . ان موقع العمل الجديد الذي طلبت الانتقال اليه قريب من بيتي ، وظروف العمل هناك احسن مما هي هنا ، ولكن حرصي على ازالة آلام النساء الحوامل او المريضات وحبي لاستقبال المواليد هما اللذان انسياني معاناتي الشخصية الناجمة عن بعد بيتي عن موقع العمل ، وجعلاني اتمسك بالبقاء هنا .

فور وصولي الى موقع العمل بدأت اقوم بأعمال غير متناهية ، وذلك لأني اضطلع بعدة مهام . فأنا باستمرار مشغولة بهذا العمل وذاك . ويعتقد بعضهم انني اتمتع بقوة ونشاط لا ينفدان ، ولكن من يدري اني كلما عدت الى بيتي بعد انتهائي من العمل الرسمي في المستشفى أجد نفسي في غاية التعب ، وشعرت عندها برغبة في النوم اياما بلياليها دون استيقاظ . وزوجي ووالداه يقدرون وضعي ، وزوجي يؤيدني ويراعيني ، ولذلك قلما اقوم بالاعمال المنزلية ورعاية الطفل . ولكن اعتزازا مني بزوجي على تقديره لوضعي وظروفي ابادر احيانا الى القيام ببعض الاعمال المنزلية من تلقاء نفسي .

وتحدثت معنا احدى الطبيبات الرئيسيات عما في قلبها فقالت :

ــ ان سعادتي تكمن في استقبال المواليد المحبوبين بأيدينا ورؤيتهم كبارا يافعين . اول امس جاءت الى المتسشفى احدى الحوامل على وشك الوضع وقالت لي بسرور : " لقد ولدت في هذا المستشفى وحضرتك قابلتي ، وكان وزني حينذاك ٧٦٠ غراما فقط . كنت مولودة هزيلة ، وانتن اللواتي انقذتن حياتي من الخطر منذ

اللحظة التى جئت فيها الى هذه الدنيا . والآن اعود الى حيث ولدت لأصبح اما فى القريب العاجل . . . "

وواصلت هذه الطبيبة قائلة :

ـ ان بقية الاطباء والطبيبات مثلى ، كلما رأوا مرضاهم قد تخلصوا من الخطر غمر قلوبهم احساس بالزهو والسرور .

مما يقلقنى ان اعمالنا تفوق قدرتنا على التحمل . ان العمل كثير ، والمسؤولية كبيرة . ونقوم الآن فى مستشفانا بأبحاث الوقاية الصحية حول الانجاب ، وهذا العمل يستهدف فى الواقع رفع المستوى الصحى للانسان . وفى سبيل ذلك علينا ان نقوم بكثير من الاعمال ، ولكن اعمارنا كبيرة الى حد ما ، واعباء عملنا فى ازدياد مستمر . انى كلما حان وقت الانصراف بعد انتهاء النوبة الليلية ، اشعر بألم فى الظهر ، فأضطر الى ان استريح قليلا قبل الانصراف عائدة الى البيت . واذا جاءت مريضات جديدات فى ذلك الحين ، لا استطيع الانصراف بل على ان اواصل العمل .

وبالرغم من اننا زوجات وامهات الا اننا لا نجد الوقت الكافى لأداء الاعمال المنزلية فى بيوتنا ورعاية اولادنا ، ولكننا ننشر المحبة على الامهات والمواليد خلال عملنا فى مستشفانا . وجدير بالذكر انه فى سهرة عيد الربيع التى اقامتها محطة التلفزيون المركزية عام ١٩٨٦ غنت احدى المطربات اغنية بعنوان « انشودة المولدة » ، فانفعلنا بهذه الاغنية حتى اغرورقت اعيننا بالدموع لأننا احسسنا من ذلك ان المجتمع لم ينسنا نحن العاملات العاديات اللواتى يعملن فى مجال التوليد .

تأثرت انا كثيرا بعباراتهن المذكورة اعلاه لأنها ذكرتنى ان النساء الصينيات بسيطات مخلصات وهن يهبن الشباب والقدرة والعطف والمحبة ، غير طامعات بشيء الا ان يفهمهن الآخرون . وان الطبيبات والممرضات فى هذا المستشفى يحملن هذه النفسية . وهن بصفاتهن الثلاث طبيبة (او ممرضة) واما وزوجة قد وضعن واجبهن فى المقام الاول عازمات على ان يبذلن كل ما فى وسعهن لخدمة الشعب .

وجدت فى عنبر المواليد المصابين بحالات مرضية شديدة الخطورة ٢٠ سريرا صغيرا ترقد فيها كائنات حية صغيرة قدمت الى هذه الدنيا منذ وقت قصير . ومن بين هؤلاء المواليد خدائج (مواليد قبل الآوان) ومواليد لم يصل وزن الواحد منهم ٢٥٠ غراما . وهذه الاسرة عبارة عن صناديق دافئة معقمة ثابتة الحرارة . واغذيتهم قد تم تركيبها طبيا . والطبيبات والممرضات يلازمنهم ويراقبن حالاتهم مراقبة دقيقة ويتلمسن الوسائل لعلاجهم وانقاذهم بكل عناية ، وهم عن ذلك ساهون لا يفقهون شيئا . وفى عام ١٩٨٦ انقذت الطبيبات والممرضات فى هذا المستشفى ١٧٠ مولودا من هذا القبيل ، ولعلهم يصبحون فى المستقبل ممن يضفون ملامح زاهية على هذه الدنيا .

لقد بلغت الطبيبة وانغ التى تعمل فى هذا العنبر سن الكهولة ، وخلال مقابلتى لها وجدت نفسى اكن لها كل الاحترام والتقدير . وقد لاحظت انها تبذل اكثر مما ينبغى فى سبيل انقاذ المواليد المصابين بحالات مرضية خطيرة .

ان الامهات لا ينسينها هى وجميع زميلاتها فى " مملكة البنات" — مستشفى امراض النساء والتوليد فى بكين . ومما لا شك فيه انهن

سيخبرن اولادهن الذين استقبلوا الحياة على ايدى هؤلاء الطبيبات والممرضات ، كما سيعلمنهم كيف يتحولون الى من يضفون ملامح زاهية على هذه الدنيا . . . وهذا هو ما تتمناه مستقبلات " الملائكة الصغار" فى " مملكة البنات" .

آن قن دى

ـ بائعة عادية فى سوق الخضار

عمل البائع فى المحلات التجارية ليس وظيفة محببة الى الجميع ، وعمل البائع فى سوق الخضار على الاخص هو من اكثر الاعمال بساطة . وهناك كثير من الشباب فى الوقت الحاضر يستخفون بهذه الوظيفة ، ويرونها عملا متدنيا . ويقول بعضهم : " اذا عملت فى سوق الخضار بعد دراسة ١٠ سنوات ، أفلا يعنى هذا اهمال الثقافة ؟ "

اما آن قن دى ، البائعة فى سوق الخضار بشارع تششينغ فى حى هونغكو بمدينة شانغهاى ، فتتخذ موقفا مخالفا لذلك .

العمل

لقد تجاوزت آن قن دى الخمسين من عمرها ، وهى تعمل بائعة فى سوق الخضار منذ ٤٠ عاما . وقبل قيام الصين الجديدة كانت تساعد والدها فى بيع جبنة فول الصويا لكسب لقمة العيش . وفى عام ١٩٥٨ بدأ الكثير من النساء الصينيات يخرجن من بيوتهن الى العمل . وفى ذلك العام بالذات بدأت آن قن دى تعمل بائعة فى سوق الخضار التعاونية .

ما موقف آن قن دى من عملها ؟ قالت مجيبة عن ذلك :

ـ ان عملى عادى ، ولكنه مهم جدا لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بمعيشة الشعب . فكل شخص يتناول الخضار ، وكل عائلة تشترى الخضار . ان الاعمال بحد ذاتها لا تنقسم الى رفيعة ووضيعة . والمهم أن يحب المرء المهنة التى يمارسها ، وان يرفع مهارته فيها ، وان يقدم خدمات مفيدة من خلال عمله العادى . ويقول مثل صينى : " لكل مهنة خبيرها الاول . "

ان موقف آن قن دى يختلف كل الاختلاف عن موقف اولئك الذين يستخفون بوظيفة البائع .

حرصا على خدمة الزبائن تضع آن قن دى على طاولتها دائما ٤



آن قن دى

لوازم هى سكين ومجموعة من الاوراق ورزمة من الحبال وخرقة قماش ، فاذا وجدت بعض الخضار رديئة النوعية لا تلقى اقبالا من الزبائن ، عالجتها بالسكين ، وهكذا تحول الخضار الراكدة الى رائجة . واذا وجدت سلة الخضار بيد الزبون فيها مأكولات نظيفة ، زودته بورق عند تسليمه الخضار . واذا وجدت الزبون يصعب عليه حمل ما اشترى ، بادرت الى اعطائه قطعة من حبل ليربط بها حاجاته . واذا وجدت الزبون قد لوث يده عند شراء الخضار ، اعطته الخرقة فورا لتنظيف يده . فلو لم تكن آن قن دى بائعة متحمسة لما اعتنت بالزبائن كل هذه العناية .

ومن اجل مساعدة الزبائن على اختيار الخضار الملائمة تعلمت آن قن دى بجد واجتهاد معلومات وافرة عن القيم الغذائية لمختلف انواع الخضار وطرق طهيها برغم ما واجهته من صعوبات كثيرة فى ذلك باعتبارها خريجة مدرسة ابتدائية . فقد اشترت مجموعة من الكتب التى تبحث فى الاطعمة ، وحفظت كثيرا من المعلومات الواردة فيها . كما جمعت مقالات من الصحف تتحدث عن فوائد بعض الخضار فى معالجة الامراض ، وحفظت هذه المعلومات عن ظهر قلب ، وراحت تعرف الزبائن بها حين تجدهم بحاجة اليها . وذات مرة جاءت الى السوق زبونة عائدة الى شانغهاى من الخارج لقضاء عيد الربيع ، وقالت لآن قن دى انها اشترت بضعة عشر كيلوغراما من لحم الضأن ، وتود ان تشترى بعض الفجل لازالة رائحته الخاصة . فاقترحت عليها آن قن دى ان تشترى قليلا من الفجل اليابس . فقالت الزبونة ردا على اقتراحها :

ــ انك ماهرة فى ممارسة التجارة ، واغلب الظن انك تريدين ترويج فجلك اليابس .

لم تستأ البائعة آن قن دى من كلامها ، انما شرحت لها بصبر واناة :

ــ ان الفجل اليابس يتميز بالرخاوة وقوة الامتصاص ، وهو افضل من الطازج فى ازالة رائحة اللحم .

فلمست الزبونة الصدق والاخلاص فى كلامها ، فقبلت اقتراحها ، واشترت فى سرور عدة ارطال من الفجل اليابس .

وبالمقارنة مع البائعات الاخريات نجد آن قن دى تبيع اكبر منهن ، فالزبائن يفضلون الشراء من منضدتها . وذلك ان دل على شىء، فانما يدل على فعالية خدمتها الحماسية واستقبالها البشوش للزبائن . انها تتكلم مع الزبائن بكل لطف وادب وتبتسم دائما ، لذلك يحبها جميع الزبائن رجالا ونساء ، شيوخا واطفالا . وقد سألتها احدى زميلاتها قائلة :

ــ يا اختى آن قن دى انك تخدمين الزبائن بالابتسامات منذ بداية عملك ، ألا تشعرين بالتعب ؟

فردت آن قن دى على سؤالها مبتسمة :

ــ انى اعتبر الزبائن من اعزائى ، فابتساماتى طبيعية ومنبثقة من اعماق قلبى . وان وجه البائع نافذة مطلة على نفسيته . فاذا وجد الزبائن وجهك عابسا مكفهرا ، ابتعدوا عنك ، اذ لا احد على الاطلاق يرغب فى شراء العبوس بنقوده . وعكس ذلك انهم اذا وجدوك تستقبلينهم بالابتسامة ، سارعوا الى منضدتك .

ان خدمة البائعة آن ڤن دى ليست مقتصرة على منضدتها ، بل امتدت الى خارج مناضد السوق . وتقول آن ڤن دى دائما : " ان مصاعب الزبائن مصاعبى ، وان رضاهم مبعث سرورى وسعادتى . " وازاء طلبات الزبائن دائما ما تبذل قصارى جهدها لمساعدتهم على تحقيقها .

ذات يوم جاءها احد الزبائن ، وقال لها انه يحتاج الى الفجل ليستخدمه فى رصفة طبية لعلاج مريض من عائلته ، وانه بحث فى عدة اسواق ولم يجده فجاء اليها ملتمسا مساعدتها . فوعدته بتأمينه له على الرغم من معرفتها بأن الاسواق تفتقر اليه فى ذلك الحين . وبعد انصرافها من موقع العمل فى نفس اليوم ذهبت على دراجتها الى عدة اسواق زراعية حرة ، ولكنها لم تجد الفجل . وبعد عدة ايام اتيحت لها فرصة السفر الى موطنها فى يانغتشو . وفور وصولها الى هناك طلبت من شقيقها ان يبحث لها عن الفجل ، فوجده فى آخر المطاف . وهكذا لبت البائعة آن ڤن دى حاجة الزبون .

وذات مرة جاءتها زبونة وقالت لها انها تحتاج الى ثلاثة اكباد دجاجية لتركيب دواء صينى تقليدى لعلاج ابنها ، وقد حصلت على اثنين منها وما زال ينقصها واحد ، وطلبت منها مساعدتها على تأمينه . فوعدتها بذلك دون تردد ، وطلبت منها ان تعود اليها فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى لتأخذ ما تريد . ولكن من اين تحصل على كبد دجاجة ؟ وكيف وعدتها هذا الوعد القاطع ؟ كان فى بيتها دجاجتان هدية من احد اقربائهم فى القرية ، وقد خططت لذبحهما فى العيد للوطنى المقبل قريبا . ولكن نظرا لحاجة الزبونة الملحة الى كبد الدجاج

قررت تغيير خطتها وكلفت ابنها بذبح دجاجة فى مساء ذلك اليوم وفاء بالوعد .

وذات يوم من صيف العام الماضى حضرت الى سوق الخضار زبونة مستعجلة . وحين وجدت الطماطم الموضوعة على المنضدة ليست جيدة قالت فى اسف شديد : " جئت الى هنا فور انتهاء نوبتى الليلية ، ولم اتصور اننى لن اتمكن من شراء طماطم جيدة . ان هذا يقلقنى كثيرا . " واستوضحت منها آن قن دى الامر ، فعرفت ان ولدها مصاب بالتهاب الكبد ، ويقيم فى المستشفى للعلاج ، ويحتاج الى اكل الطماطم ، ولكن امه لم تجد الطعاطم الجيدة التى يمكن تناولها نيئة ، وهذا ما يقلقها . فهدأتها قائلة : "كونى مطمئنة ! اكتبى لى عنوانك ، وانا سأحاول جهدى . واذا حصلت على طماطم جيدة ، فسأوصلها الى منزلك . " وبذلت آن قن دى اقصى جهدها الى ان حصلت اخيرا على عدة ارطال من الطماطم من قسم التموين التابع لمطعم سوق الخضار . فاختارت منها كمية على درجات مختلفة من النضج كى يستطيع هذا الولد المريض تناولها خلال عدة ايام . لقد قامت حقا بأكثر مما تمنته الزبونة .

ذات مرة وجدت آن قن دى خلال عملها عجوزا ارملة لا معيل لها ، مصابة بارتفاع الضغط وبمرض القلب وبالربو ، فطلبت منها ان تترك سلة الخضار لديها ، ووعدتها بتوصيلها الى منزلها بعد انتهاء العمل . ومنذ ذلك اليوم بدأت البائعة آن قن دى توصل الخضار الجيدة للعجوز مرة فى كل يومين ، وتؤدى لها كذلك بعض الاعمال المنزلية . وظلت مواظبة على خدمتها الطوعية عدة سنوات الى ان توفيت هذه العجوز .

وقبل عدة اعوام تطوعت آن ڤن دى ايضا برعاية عجوز اخرى عمياء . وكانت هذه العجوز العمياء تضطر دائما الى الذهاب الى سوق الخضار لشراء الخضار بنفسها نتيجة لعدم الوئام بينها وبين كنتها . فبادرت آن ڤن دى الى توصيل الخضار لهذه العجوز حرصا على سلامتها عند عبور الشارع . ومع مرور الايام اعتبرتها هذه العجوز ابنة لها . وعندما دخلت العجوز المستشفى لعلاج عينيها زارتها آن ڤن دى عدة مرات ، واصبحت فى نظر الناس ابنة حقيقية لها . وبعد خروج العجوز من المستشفى واصلت آن ڤن دى خدمتها لها . وحرصت كذلك على التقريب بين العجوز وكنتها ، وساعدتهما اخيرا على استبعاد ما بينهما من خلاف ، فعادت حياتهما طبيعية قائمة على الالفة والمودة .

لقد لقيت البائعة آن ڤن دى بخدماتها الدقيقة الجيدة وحماستها البالغة تقدير كافة الزبائن وثناءهم عليها . واصبحت معروفة لدى جميع الذين يرتادون سوق الخضار فى شارع تششينغ ، يمتدحها كل من فى سوق الخضار بشارع تششينغ ودوائر التجارة فى حى هونغكو وغيره من احياء مدينة شانغهاى . وما زالت بعد تقاعدها تتردد الى السوق من حين لآخر لتخدم الزبائن ، وتقابل اولئك الذين يشتاقون اليها .

الوئام العائلى

قالت لنا آن ڤن دى :

— ان لاجادة العمل شروطا ، يأتى فى مقدمتها الوئام العائلى .

فعدم الوحدة والتضامن بين افراد العائلة سيؤثر كثيرا فى حماسة المرء فى عمله لأن عمله مرتبط ارتباطا وثيقا بعائلته .

فآن قن دى تعيش فى عائلة سعيدة ، ولهذا استطاعت بذل كافة جهودها فى العمل . انها زوجة مثالية وام حنون وابنة بارة فى آن واحد .

زوج آن قن دى يعمل رئيسا لقسم شؤون المطعم فى جامعة فودان بشانغهاى . والمطعم الجماعى الذى يشرف عليه مطعم متقدم بين مطاعم الجامعات والمعاهد العليا فى الصين كلها . وقد تعرف على زوجته فى الفترة الاولى بعد التحرير . وكان فى ذلك الحين عاملا فى هذا المطعم الجماعى ، موكولا بأعمال الشراء . اما آن قن دى فكانت بائعة فى سوق الخضار ، وهناك تعرفا على بعضهما بعضا واصبحا زوجين . ومنذ زواجهما حتى الآن لم يتشاجرا ، ولم تحصل بينهما تناقضات تذكر . انها تعرف كيف تعتنى بزوجها ، وتعامل والد زوجها كأنه والدها . فعندما اصيب بسرطان البلعوم ، واضطر الى ترك الريف والقدوم الى شانغهاى للعلاج استقبلته بكل ترحيب ، وقدمت له كل الرعاية المطلوبة . وحين غادر شانغهاى عائدا الى موطنه فى الريف بكى بحرقة لتأثره على فراق ابنه وكنته ، وقال " ان كنتى تعاملنى افضل مما تعاملنى ابنتى " . وتقول آن قن دى : " اهل زوجى هم اهلى ، واحسانى لهم يعنى احسان معاملتى لزوجى ، واساءتى لهم ستؤلم زوجى وتؤثر فى صحته وعمله . " ولهذا فان زوجها يعتنى بها بالمقابل عناية فائقة . وكان يعامل والديها اللذين عاشا معهما بضع عشرة سنة خير معاملة . وجملة القول انها عاشت مع زوجها ٣٥ ربيعا فى جو المحبة والاحترام والانسجام ، وانجبا ٥ اولاد وبنات ، وربياهم

خير تربية .

لقد قامت آن قن دى بتوعية اولادها وبناتها توعية اخلاقية مثالية . فكانت توجههم قائلة : " فى مواقع عملكم عليكم ان تكونوا متواضعين فى معاملة الزملاء ومجتهدين فى تعلم المهارة ، كما عليكم ان تلتزموا بالنظام والانضباط والقانون حتى تكونوا محبوبين لا مكروهين . " ابنة آن قن دى الثانية بائعة ممتازة فى احدى اسواق الخضار ، والفضل فى ذلك يعود الى تربية امها . لقد قالت لنا بصراحة : " فى الفترة الاولى من عملى كنت اود ان اظل عاملة بين بين ، ولكنى بفضل تربية امى لى ادركت ان هذه الفكرة ليست صحيحة ، فزملائى وزميلاتى سيقولون : نحن نتعلم من البائعة النموذجية آن قن دى ؛ لكن ابنتها لا تتعلم منها . وفى البيت لا تتساهل امى بعيوبنا واخطائنا ، بل تنقدنا بشدة .

لقد زوجت آن قن دى بناتها الثلاث ، وكانت تنصحهن قائلة : عليكن ان تحترمن اهل الزوج والا فستقابلن بتأنيب الجيران . وبفضل تربيتها لهن عالجت كل منهن علاقتها مع افراد عائلتها معالجة حسنة ، وعاشت مع زوجها ووالديه فى انسجام ووئام .

صحيح ان المستوى الثقافى للبائعة آن قن دى ليس عاليا ، ولكن لديها وسائل فعالة فى تربية الاولاد ، فقد قالت :

— ارى من الضرورى القيام بالتوعية الاخلاقية الصارمة للاولاد وتشجيعهم على التقدم المستمر فى العمل ، وتثقيفهم بروح " التشدد مع الذات والتسامح مع الغير " وبصفات حميدة اخرى مثل التواضع واللطافة . واما فى المعيشة فلا نطلب منهم ان يكونوا مثلنا ، لأن المجتمع

قد تطور ومستوى المعيشة قد ارتفع ، فطبيعي ان يكون طعامهم ولباسهم جيدين قدر المستطاع مع وجوب مراعاة روح " العمل الشاق والعيش البسيط" . فلا يجوز الاقتراض بسبب الافراط فى الطعام واللباس .

لقد احسنت آن قن دى بصفتها ربة للبيت ترتيب معيشة العائلة على خير وجه . انها المسؤولة عن جميع الامور الاقتصادية للعائلة . وكان الاولاد والبنات قبل زواجهم يسلمون جميع رواتبهم اليها ، فتطرح المصروفات المعيشية اللازمة جانبا ، وتضع الاموال الباقية فى البنك وذلك لجمع نفقات زواجهم فى المستقبل . والآن تعيش آن قن دى بعد زواج بناتها مع زوجها وابنهما الاكبر المتزوج فى نفس الشقة ، فى جو من الانسجام والوئام .

وعند حديثنا عن عائلة آن قن دى يجدر بنا ان نذكر خالها وزوجته ، فهما مسنان ولا معيل لهما . وخالها هذا عامل متقاعد . وعندما مرض اسكنته آن قن دى فى بيتها لتقوم بخدمته صباحا ومساء . ولما تفاقم مرضه ولزم فراشه ، ادخلته المستشفى ، وعكفت على زيارته يوميا ، كأنه والدها . وبعد وفاة خالها اسكنت زوجته المسنة فى بيتها لتعيش معها برغم ان اولادها فى ذلك الحين كانوا صغارا ، ووضعها الاقتصادى ليس ميسورا . وقالت لأولادها : " ارجو ان تعاملوها مثلما تعاملون والدتى . وان اساءة معاملتكم لها تؤلمنى اكثر من اساءة معاملتكم اياى . احترموها اذا احببتم ان تحترمونى . " وهكذا عاشت هذه العجوز ١٣ سنة فى رعاية تامة من آن قن دى وجميع افراد عائلتها الذين تأثروا بعملها المثالى الحميد ، وهذا يعكس

ما تتميز به الامة الصينية من الاخلاق الحميدة التقليدية فى احترام المسنين ورعايتهم .

الجزاء

عملت آن قن دى بائعة مدة ٤٠ عاما ، واهبة للعمل شبابها وكل طاقتها فى سبيل خدمة الزبائن والمجتمع . وقد منحها المجتمع بدوره الجزاء الاوفى والمكانة العظمى . فقد اختيرت منذ عام ١٩٧٩ عاملة نموذجية لمدينة شانغهاى خمس مرات متتالية ، وعاملة نموذجية فى قطاع التجارة على مستوى البلاد مرتين . وفى عام ١٩٨٦ اختيرت عاملة نموذجية بدرجة خاصة فى قطاع التجارة على مستوى البلاد . وفى عام ١٩٧٨ دعيت الى بكين ومدن اخرى مثل ووهان وهانغتشو وشيآن ونانجينغ ، حيث ألقت اكثر من ٢٠٠ محاضرة . وانتشرت مآثرها النموذجية فى قطاع التجارة فى طول البلاد وعرضها . وسميت مجموعة من قواعدها فى العمل " طريقة آن قن دى فى الخدمة " ، وتناقلتها الالسنة فى قطاع التجارة . ومن اجل تعميم خبراتها فى العمل تأسست فى حى هونغكو بمدينة شانغهاى مدرسة تسمى بمدرسة تطبيق طريقة آن قن دى فى الخدمة ، وعينت آن قن دى مديرة فخرية لها . وقد دربت ٥٤ تلميذا وتلميذة خلال عملها ، ومعظمهم قد اختيروا الآن شخصيات نموذجية متقدمة على مختلف المستويات .

كانت البائعة آن قن دى تعمل بكل امانة واخلاص . وظلت حريصة على ان تكون اول من يصل الى سوق الخضار وآخر من يغادره

كل يوم ، ودائما ما تعمل ٩ — ١٠ ساعات فى اليوم واكثر من ١٢ ساعة فى بعض الاحيان ، فى حين ان ساعات العمل المطلوبة هى ٨ ساعات فى اليوم . وفضلا عن ذلك كانت نتائج عملها دائما فى القمة . فمن المفروض ان تستحق اعلى المكافآت على ضوء مبدأ التوزيع الاشتراكى القائل " لكل حسب ما يؤدى من عمل " . ولكن آن قن دى لم تقبل ذلك ، وقالت ان غرضى من اتقان العمل ليس الحصول على المكافآت . اننى عضوة فى الحزب الشيوعى وعاملة نموذجية ، فمن واجبى ان اعمل اكثر من الآخرين ، ولذلك لا يمكننى ان آخذ اكثر من الآخرين ، واصرت على اخذ معدل المكافآت فى فرقة العمل حيث هى .

والمكافأة المادية الوحيدة التى قبلتها هى الشقة السكنية التى اجرتها اياها لجنة حى هونغكو فى مدينة شانغهاى . ويعتبر ذلك افضلية وجزاء عظيما فى مدينة شانغهاى المكتظة بالسكان مع قلة المساكن ، بحيث يكون معدل مساحة المسكن لكل فرد ٦ر١ متر مربع فقط . واقتنعت بتلك المكافأة كل الاقتناع .

واليوم تتوجه آن قن دى دائما الى مختلف اسواق الخضار لتدريب التلاميذ والى مدرسة تطبيق طريقة آن قن دى فى الخدمة لالقاء المحاضرات . وتذهب احيانا الى سوق الخضار فى شارع تششينغ حيث كانت تعمل قبل التقاعد لتقوم بخدمة الزبائن الذين يشتاقون اليها . ان آن قن دى التى عملت بكد واجتهاد مدة ٤٠ سنة ما تزال الى الآن لا تعرف الرفاهية ، بل لم تفكر فى الرفاهية ابدا ، وانما تفكر دائما فى خدمة المجتمع . وقد قالت لنا ابنتها الثانية :

ــ ان امى لا تعرف شيئا عن الرفاهية . وفى المناسبات والاعياد نشترى لها بعض المأكولات المغذية تعبيرا عن ولائنا ومحبتنا لها ، ولكنها ترفض تناولها . وفى الايام العادية نشترى لها بعض الفواكه ، ولكنها قلما تأكلها . وما تزال تقوم ببعض الشؤون المنزلية ، فهى مثلا تصر على غسل الملابس . انها امرأة تلزم نفسها باعطاء الآخرين ، ولا ترغب فى الاخذ من غيرها . . .

ان الجهود الشخصية ومساعدات العائلة وتأييد المجتمع قد كونت كلها من الجنس اللطيف شخصية نموذجية محترمة محبوبة مثل آن قن دى ، ولكنها فى الوقت ذاته شخصية عادية تماما .

غارسات المحبة فى القلوب الجريحة

ـ الامهات فى قرية اس . او . اس للاطفال فى مدينة تيانجين

منذ تأسست اول قرية سوس للاطفال عام ١٩٤٩ على يد السيد هيلمان مؤسس المنظمة العالمية لقرية سوس (اس . او . اس) للاطفال اخذ هذا النمط من قرى الاطفال ينتشر حتى عم الآن ٧٦ دولة فى العالم . وهذا العمل الخيرى المقدس المتمثل فى اغداق محبة الامهات على الايتام قد تم تدشينه فى الصين ، واخذ يتطور . بدأت الاعمال التحضيرية لبناء قرية سوس للاطفال فى مدينة تيانجين عام ١٩٨٥ وانجز بناؤها فى اكتوبر ١٩٨٦ ، وفى نهاية عام ١٩٨٧ تكونت فى القرية ٢٠ عائلة تضم اكثر من ١٣٠ يتيما او يتيمة ، يعيشون تحت رعاية اكثر من ٢٠ اما .

لقد بدأت ارياف الصين تسير فى طريقها نحو اليسر ، ولكن اساسها ضعيف لأن الصين ظلت تعانى من الفقر والتأخر وجهل اكثر من الفى سنة ، فحتى الآن لم تتخلص الارياف من التقاليد القديمة والافكار البالية واساليب الحياة المتأخرة . والايتام فى قرية سوس للاطفال فى مدينة تيانجين قادمون من ارياف المحافظات حول مدينة تيانجين وفى مقاطعة خبى . وهؤلاء الاطفال فقدوا آباءهم وامهاتهم

لمختلف الاسباب ، فعاشوا مشردين يعانون من العزلة والصدود والازدراء والقلق منذ نعمومة اظفارهم . ولكنهم عندما دخلوا قرية سوس للاطفال استقبلتهم الامهات فى بيوت مريحة مفعمة بالعطف والمحبة . واصغر الامهات فى العشرين ونيف من عمرها ، واكبرهن قد تجاوزت الاربعين . وهؤلاء الامهات مثقفات ومهذبات ، يعرفن كيف يحببن الاولاد . لذلك يعيش الايتام الآن فى قرية سوس عيشة سعيدة متمتعين بتربية الامهات ، وينشأون تنشئة سليمة ، حيث تعكف الامهات هناك على غرس المحبة فى تلك القلوب الغضة الجريحة .

ما الذى دعا هؤلاء الامهات الى المجيء الى قرية الاطفال والاضطلاع بتلك المهمة الشاقة المضنية ؟ انهن مختلفات فى الاعمار وتجارب الحياة والثقافة والدوافع الى القيام بهذا العمل ، ولكن بعد دخولهن الى قرية الاطفال وتعاملهن مع هؤلاء الايتام الذين هم بأمس الحاجة الى الفهم والمحبة نسين جميعا غاياتهن الاصلية ، وألقين انفسهن فى اعمال مشروع ضخم للاستثمار العاطفى . ومع مرور الايام اخذت محبتهن للاولاد تزداد عمقا ، وهن يقمن بالاعمال المضنية ليل نهار ، ويبذلن مجهوداتهن حتى يصبحن امهات مؤهلات فى قرية سوس للاطفال .

انهن يفرحن كثيرا ازاء النمو السليم للاطفال ، ويحزن ويقلقن اذا كثرت عيوب هؤلاء الاطفال واخطاؤهم . ان صنيعهن هذا ليعد مفخرة للنساء . وهل هناك اعظم من ان يهبن شبابهن وكل ما تجيش به قلوبهن من عطف ومحبة لأطفال لا تربطهم بهن صلة الدم او القربى ؟!

لقد زرنا قرية سوس للاطفال فى مدينة تيانجين ، واستمعنا هناك الى احاديث هؤلاء الامهات الطيبات وهن يكشفن لنا عن مكنونات قلوبهن .

قالت احدى الامهات الشابات :

ــ جئت انا وزميلاتى الى هنا عن طواعية واختيار بعد اجتيازنا امتحان القبول . وكنا نعرف تماما ان الشروط لقبول الامهات فى قرية الاطفال صارمة ، فعليهن ان يكن قبل دخولهن الى القرية غير متزوجات او مترملات ، ولا اولاد لهن ، والا يتزوجن بعد دخولهن القرية لأن العمل هناك يتطلب منهن ان يهبن جميع عواطفهن ومحبتهن للايتام .

ان كل عائلة فى هذه القرية من نمط خاص ، اذ ان افرادها



اسرة من قرية SOS

لا تربط بينهم صلة الدم ، وليسوا على معرفة مسبقة ببعضهم بعضا .
لذلك تأتى تربية العواطف فيما بينهم فى المقام الاول . عندى الآن
٦ اطفال ، ٣ بنات و٣ اولاد . ولا انام الا بعد منتصف الليل يوميا .
والذى يقلقنى ايما اقلاق ليس الاعمال المضنية اليومية وانما تربيتهم .
لقد بلغ الطفل الاكبر التاسعة من عمره الآن ، ولكنه مازال يبول فى
السرير كل ليلة . وقد دل الفحص الطبى على ان السبب فى ذلك
يرجع الى كسله وليس مرضا . والطفل الاصغر ولد فى الخامسة من عمره ،
ويذهب الى روضة الاطفال فى النهار . ومشكلته انه يرفض الدراسة ،
ولا يستجيب للتربية . ولم تسفر الشدة ولا اللين فى التربية عن نتيجة
مرضية ، فاتخذت موقف الاقناع التدريجى بكل صبر وسعة صدر .
استيقظ من النوم كل ليل لأوقظ الطفل الاكبر من اجل التبول حتى
لا يبول فى السرير . اما الطفل الصغير فلم تسو مشكلته بعد ، وسأبحث
فى الاسباب النفسية لرفضه الدراسة . اننى اعامل اطفال بصدق
واخلاص ، ويعرفون انى احبهم حبا جما . ففى صيف هذا العام
قمت برحلة سياحية فى عطلتى السنوية ، وظل اطفالى تحت رعاية
ام اخرى بصورة مؤقتة . وخلال تلك الفترة كانوا يترقبون عودتى ليل
نهار ، الامر الذى يؤكد انهم لا يحبون ان افارقهم .

كنت عاملة جيدة فى المصنع ولكننى لست راغبة بعد فى الحياة
الزوجية . ان العمل فى قرية سوس للاطفال يوفر جوا عائليا دون زواج .
ومن اجل تحقيق امنيتى فى العمل فى هذه القرية كنت احضر الى هنا
كل يوم مرة سعيا وراء قبول طلبى . ان الايتام هنا مساكين قد عانوا
من البؤس والشقاء ، وكانوا جميعا يعيشون عالة على اناس ليسوا من

افراد عائلاتهم . لقد قامت الامهات فى هذه القرية بتحقيقات حول معاناة هؤلاء الايتام ، وسالت دموعهن جميعا خلال ذلك . فبعد دخولنا هذه القرية بدأنا نعمل بكل قلوبنا من اجل تربية الاطفال هنا بغض النظر عن اهدافنا الشخصية . اننى حين ارى اطفالى يأكلون ويدرسون ويلعبون فى فرح وسرور ، انسى كل متاعبى اليومية وكل ما يقلقنى .

وتحدثت ام اخرى بكل صراحة ، فقالت :

ـ انا خريجة فى المدرسة الاعدادية ، وقد عملت فى مصنع للقوالب . ولكننى اصبت بالمرض نتيجة لتحسسى الشديد من زيت التشحيم ، الامر الذى اعاق زواجى . ومن اجل التخلص من مرضى كان لابد من انتقالى الى موقع عمل آخر . وفى ذلك الحين سمعت ان قرية سرس للاطفال تحتاج الى امهات ، فقررت ان اصبح احدى الامهات فيها . وقوبلت بمعارضة شديدة من والدى ، ولكنه لم يستطع منعى من ذلك . وقبلت قرية الاطفال طلبى لأن شروط القبول متوفرة فى . انى لا اسعى الا وراء اتقان تربية الايتام . واذا لم اتزوج طول حياتى فسأكون ناجحة فى هذه القضية . ان العمل فى قرية الاطفال عمل خيرى عظيم وانا مصممة على بذل الجهود فى سبيله .

اعيش الآن مع اطفالى فى بيت مزين بالالوان الهادئة ومرتب ترتيبا جيدا ، ويتوفر فيه جو الهدوء والوئام . والطعام اليومى لأطفالى تتوفر فيه جميع القيم الغذائية المطلوبة يوميا لضمان صحتهم ونموهم . وفى اعياد ميلادهم وفى المناسبات والاعياد الاخرى آخذهم لزيارة

والدتى فى محاولة لاعطائهم مزيدا من الحنان والمحبة والاحساس بأنهم يعيشون بين اناس يحبونهم .

انى احب الحياة ، وهوايتى واسعة النطاق تضم المسرحية والافلام السينمائية واوبرا بكين والسباحة والجمباز والتطريز وغيرها . كنت اود ان ألتحق بالجامعة ، ولكن لم تتحقق لى هذه الامنية للاسف . فى عائلتى الآن ٦ اطفال ، بنتان و٤ اولاد . واساسهم مختلف . كانت بنتى الكبرى ضعيفة جدا فى الرياضيات ، فعززت مساعدتى وارشادى لها فأصبحت قوية فى هذه المادة . على بوصفى اما ان اضمن لأطفالى حياة عائلية دافئة من جهة ، وان اقوم بتوعيتهم فكريا من جهة اخرى حتى يتحلوا بالاخلاق السامية مثل احترام الذات والثقة بالنفس والاعتماد على النفس ايضا . ويتمنى الاطفال لأمهم ان تستوعب معلومات كثيرة حتى تستطيع الاجابة عن اسئلتهم بصورة اوسع ، لذلك اجتهد دائما فى دراسة معلومات جديدة ، وهذا جعلهم يزدادون لى حبا واحتراما . ان الواجب يقتضينى ان اهبهم امومتى دون انتظار اى جزاء منهم .

وقالت ام اخرى دون الثلاثين من عمرها ، تتميز بهدوئها وجمالها :

ـ كنت اعمل فى مجال اختبارات الكائنات الحية ، حيث اتيحت لى دائما فرص السفر فى مهام الى مختلف انحاء الوطن ، لذلك استمتعت بالمناظر الطبيعية الجميلة فى مختلف المناطق السياحية والاماكن الاثرية ، ملبية بذلك هوايتى . وكانت الظروف الاقتصادية لأهلى جيدة جدا ، انفق النقود دون حساب . وجملة القول ان عملى السابق كان مريحا وظروفى المعيشية جيدة . ولكننى فضلت العمل فى

قرية سوس للاطفال بعد ٣ ايام من تفكيرى فى هذا الموضوع ، وذلك لأنى لا ارغب فى الزواج وافضل العيش فى جو من الحرية التامة دون اى قيد ، ولكنى احب الاطفال . فكرت كيف سأقضى بقية حياتى ، فوجدت ان العيش مع الاطفال سيجنبنى العزلة والوحشة ، بل سيجعل حياتى ملأى بالفرح والسرور . وهذه كانت فكرتى الاولية بخصوص قدومى الى هنا ، ولا شك فى انها لا تخلو من انانية . ولكن بعد وصولى الى قرية الاطفال احسست بأن قلوب الايتام هنا مجروحة ، فاستأثر الاطفال بكل قلبى وعواطفى ، ولم اعد افكر فى حياتى الشخصية ، وانما فى كيفية تدفئة قلوب اطفالى المجروحة ومنحهم ما يفتقرون اليه من حب الام وعطفها وحنانها .

فى الماضى كنت لا اطلب عونا من غيرى فى اى امر من امورى ، ولكن من اجل حل مشكلة اطفالى فى دخولهم المدارس ، اجريت اتصالات كثيرة مع المسؤولين فى الدوائر المعنية خلال شهر كامل ، وتكلمت معهم الكثير الكثير حتى حلت المشكلة نهائيا .

ومن اجل اقامة العواطف بينى وبين اطفالى سألت اطفالى الخمسة كل على حدة عن تمنياتهم القلبية لأمهم ، فقالوا انهم يتمنون لها ان تكون كثيرة المعلومات عادلة فى المعاملة بالاضافة الى كونها حسنة الصحة جميلة الملامح . فصممت على بذل الجهود فى الدراسة والتعلم حتى اكون لهم الام المنشودة .

ان هؤلاء الاطفال ضعفاء البنية ، لذلك اهتم بتنظيم طعامهم على خير وجه وفقا لمنهج التغذية الصحية . فهم يشربون اللبن وحساء فول الصويا كل يوم ، ويتناولون الاطعمة الغذائية الاخرى . ومن بين

اطفالى من يدرسون فى المدرسة ، فيتناولون عند الظهر هناك ما اخذوه معهم من طعام اعددته لهم فى البيت . اننى اهتم بتربيتهم من مختلف النواحى ليصبحوا ذوى اجسام قوية واخلاق كريمة وهوايات متعددة . فابنتى الصغرى ميالة الى الموسيقى ، وقد بدأت تتعلم الآن العزف على البيانو . وان هى حققت منجزات عظيمة فى هذا المجال مستقبلا ، فستكون فى ذلك سعادة كبيرة لى .

مما يحزننى ان عملنا ما زال غير مفهوم لدى الكثيرين وفى المجتمع معارضة لنا . ان الاعمال الخيرية التى نمارسها الآن تتطلب منا حقا ان نبذل جهودا كبيرة وندفع ثمنا غاليا . اننا نرجو ان يتخذ الناس من عملنا هذا موقفا عادلا ، فلا يشوهوا الهدف السامى لمجيئنا الى قرية سوس للاطفال .

وقالت ام هادئة رزينة :

ـ انا خريجة فى المعهد العالى ، وكنت اعمل فى مجال ادارة المؤسسات . قبل مجيئى الى قرية الاطفال كنت على وشك الترقية ، لكنى صرفت النظر عن الترقية واشتركت فى امتحان القبول من اجل العمل فى قرية الاطفال . كنت ابحث لنفسى عن ملجأ نهائى . فى " الثورة الثقافية " والتعليم المدرسى والعمل قضيت سنوات شبابى ، واصبحت بعدها عانسا . ومن الصعب على العانس ان تتزوج ، والاصعب من ذلك ان تعيش وحيدة دون ان تكون لنفسها عائلة ، اذ انها ستعانى من مشاكل كثيرة بما فيها مشكلة الاسكان . وعندها خطر على بالى ان اعمل فى قرية سوس للاطفال ، والا فان حياتى ستكون فى المستقبل

معلقة فى الهواء . هذه كانت فكرتى قبل مجيئى الى هنا . وانا لا انكر انه فى بداية الامر لم تكن فى قلبى مشاعر سامية . كانكار الذات ، او بعبارة اخرى لم اكن واعية بالقدر الذى بلغته الآن من وقف نفسى للايتام . فخلال التحقيقات التى اجريناها حول الايتام بعد مجيئنا الى قرية الاطفال احسست احساسا عميقا بأنهم فى حاجة ملحة الى محبة الامهات . ولهذا بدأت اشتغل بقلب ملؤه الحماسة والعاطفة . عندى الآن ٦ اطفال . وسأبذل قصارى جهدى فى اتقان تربيتهم وتنظيم معيشتهم حتى يصبحوا اكفاء فى المستقبل .

وقالت ام اخرى حنون طيبة :

— كلنا من الراشدات ، وقد جئنا الى قرية الاطفال بعد طول تفكير وترو . فبالنسبة لى كان مجيئى الى هنا امرا طبيعيا ، فجميع شروط القبول توفرت بى . لقد جئت الى هنا دون اى هدف شخصى . هناك اناس يستفسرون باهتمام عن تجارب حياتنا الشخصية ومبلغ رواتبنا . فأعمالنا هنا لا تقاس بالرواتب . اننا نعمل معظم اوقاتنا كل يوم ما عدا عدة ساعات للنوم . راتبى الشهرى ١٥٠ يوانا صينيا ، ولدى ٥ اطفال . فاذا حسبنا ، نجد انى اتقاضى يوانا واحدا فى اليوم مقابل رعاية الطفل الواحد . فالرعاية التى اقدمها لأطفالى رخيصة جدا اذن . لكن عملى فى الواقع اثمن مما اتقاضاه بكثير ، اضافة الى ان المحبة والعواطف لا يمكن ان تقدر بثمن . ان مغزى عملنا هنا عميق بعيد المدى . اذا خلت قلوبنا من العطف والمحبة ، لا يمكننا البقاء هنا ولو يوما واحدا . اننا نعيش قلقا دائما على اطفالنا . فبالاضافة

الى امور الطعام واللباس والتربية والتعليم علينا ان نقوى العلاقة والمحبة بين الاطفال ، كما علينا ان نساعدهم على تقويم عاداتهم السيئة . كان اطفالى مثلا راغبين عن كثير من الخضار ، فلا يأكلون منها الا البصل الاخضر . وقد ادت محاباتهم فى الاكل الى عدم تكامل غذائهم ، ونتيجة ذلك ساءت صحتهم . فمن اجل تسوية هذه المشكلة بذلت كثيرا من الجهود واستخدمت وسائل مختلفة كالاقناع النظرى والارشاد العملى والخداع والغش فى بعض الاحيان . ومع مرور الايام غيروا موقفهم من الخضار بالتدريج . وبخصوص التنوير العقلى الاولى لهم لم تكن الشروط متوفرة لاجرائه ، لذلك كانت مهمة تعليمهم التمهيدى شاقة للغاية . اننى احاول ان اجعل البيت غارقا فى المحبة وابذل كل ما فى وسعى لتربية المشاعر السامية لديهم . كانوا فى الماضى يتصرفون كما يحلو لهم ، اما الآن وقد اصبحوا اكثر وعيا ، فأعاملهم معاملة صارمة الى جانب ما احوطهم به من عطف ومحبة . واود ان اوثر فيهم بصلابتى وجرأتى . ومثل هذه المشاعر لايمكن الحصول عليها بالمال . انى آخر من ينام بين افراد عائلتى ليلا واول من يستيقظ صباحا . واول حركة من حركات اطفالى عند استيقاظهم فى الصباح تعنى بالنسبة لى بدء عمل يوم جديد . مما لاشك فيه انى بالاعتماد على ما يفيض به قلبى من الحب نحو الاطفال استطيع الحصول على الخطيب ومن ثم الزواج . لكنى تخليت عن ذلك ، وجئت الى قرية سوس من اجل رعاية الايتام لأوفر لهم ما افتقدوا من حنان الام وحبها الكبير .

وقالت ام فى الرابعة والعشرين من عمرها :

ــ ان قرية الاطفال مشروع ضخم للاستثمار العاطفى . وقد جئت الى هنا كى اهب هذا المشروع الضخم كل ما عندى من محبة الأم . نصحنى زملائى وزميلاتى فى المدارس واصدقائى وصديقاتى، وحتى بعض المسؤولين فى قرية الاطفال قائلين : ما زلت فتاة شابة ، وخير لك ان تبحثى عن شاب وتشكلين معه عائلة خاصة بكما ، وان تسلكى طريقك الخاص . ولكنى لم اوافق على رأيهم ، بل عقدت العزم على البقاء هنا ، ذلك لأنى فقدت والدى فى ايام طفولتى ، وتزوجت امى مرة ثانية وعشت معها فى عائلة جديدة . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى توفيت امى . فكون والدى الثانى عائلة جديدة اخرى . ولم اقبل ان اكون عقبة فى طريقه ، فالتحقت بمدرسة المعلمين للاطفال . ومنذ ذلك الحين بدأت احب الاطفال . ان هواياتى كثيرة ، واجيد معالجة العلاقات العامة ، وشخصيتى لابأس بها ، ولكنى لا اريد الزواج . يمكننى فى قرية الاطفال ان اعيش حسب نمطى الخاص كما يمكننى ان اكون أما لعدة اطفال . الايتام بحاجة الى الامهات. واذا وهبتهم الامهات حبهن التام ، التأمت جروح قلوبهم ، وامكن تحولهم الى جيل جديد بناء ، وهذا هو ما فكرت فيه . وان عندى رغبة شديدة فى رعاية مولود ، اربيه حتى يبلغ سن الرشد .

ان الايتام فى قرية الاطفال يعيشون عيشة راضية بعيدا عن القلق والهموم ، يتلقون التعليم الجيد ويترعرعون ترعرعا سليما . وقد احس كثير من الاطفال بأنهم سعداء ، ويسعدهم ان يحصلوا على الدفء العائلى ومحبة الام النزيهة . ولقد قال احدهم بلهجة كلها عزم وتصميم :

اود ان اصبح قائد طائرة بعد بلوغى سن الرشد . وحينذاك ادعو أمى الى ركوب الطائرة التى اقودها . وقال ثلاثة ايتام اشقاء قادمون من عائلة واحدة لأمهم الجديدة فى قرية الاطفال : ندعوك يا امنا للعيش معنا بعد بلوغنا سن الرشد ».

هؤلاء الامهات والاطفال متفاهمون فيما بينهم ويتبادلون اسمى مشاعر المحبة والاخلاص . ولا يسعنا الا ان نجل ونكبر هؤلاء الامهات اللواتى وهبن شبابهن وحياتهن وكل عواطفهن للأيتام ضاربات اعظم مثل فى الايثار ونكران الذات . انهن يبذرن المحبة فجديرات بأن يحصدن للمحبة والاجلال من البشرية جمعاء .

القاضية لى تشى تشين

تعمل فى محكمة الشعب المتوسطة فى بكين قاضية تدعى لى تشى تشين ، ويدعوها الناس بكل محبة "الأخت لى" .

وهى شديدة الانهماك فى عملها ، تخرج دائما للتحقيق فى الدعاوى القضائية ، لذلك لم نتمكن من مقابلتها الا بعد اتصالات متعددة .

تبلغ القاضية لى تشى تشين فى هذه السنة عامها الخمسين ، وهى نحيفة الجسم قصيرة الشعر خفيفة الحركة ، وملابسها غير زاهية وتبدو من مجرد النظر اليها انها تتحلى بروح العدالة فعلا .

الحياة المدرسية

"كيف اصبحت قاضية ؟"

طرحنا عليها هذا السؤال مباشرة بعد ان تبادلنا التحية كى لا نأخذ كثيرا من وقتها الثمين .

فردت على سؤالنا قائلة :

ــ ان الجواب يستدعى العودة الى ايام طفولتى . ولدت فى قرية تانغجياباو ببلدة شياجى من محافظة وينان بمقاطعة شنشى . وفى



لي تشي تشين

المجتمع القديم كانت عائلتى فقيرة فلم اتمكن من الالتحاق بالمدرسة . اما بعد التحرير فاتيحت لى الفرصة للدراسة ، اذ اقيمت فى قريتنا عام ١٩٥١ دورة دراسية للنساء الأميات . وكنت حينذاك فى الثالثة عشرة من عمرى ، فانضممت الى هذه الدورة مع النساء البالغات سن الرشد خلال شتاء ذلك العام . وفى العام التالى التحقت بالمدرسة الابتدائية . ودرست فى سنة دراسية واحدة جميع المواد الدراسية لأربع سنوات من الابتدائية . وفى العام الذى تلاه بدأت ادرس فى الصف الخامس ، وكانت نتائج دراستى ممتازة . وبعد تخرجى فى المدرسة الابتدائية التحقت بالمدرسة الاعدادية فى بلدة شياجى بعد اجتياز امتحان القبول . وكان فرحى فى ذلك الحين لا يوصف . وفى هذه المدرسة درست مختلف المعارف بتلهف ودون كلل . وعند تخرجى كانت الحالة الاقتصادية لعائلتى ما تزال صعبة جدا بالاضافة الى ان والدى قد تقدمت بهما السن واصبحا ضعيفين ، لذلك لم يكن بمقدور عائلتى دفع مصروفاتى لمواصلة الدراسة . ونظرا لولعى بالرسم منذ نعومة اظفارى فقد رغبت فى الالتحاق بالمدرسة المهنية الثانوية كى اعمل بعد التخرج فيها فى الطباعة والصباغة لدى احدى وحدات الغزل والنسيج . وبذلك استطيع التخفيف من اعباء عائلتى . لكن هذه المدرسة المهنية لم تقبل طلبة فى ذلك العام ، فاضطررت الى تقديم طلب للالتحاق بالمدرسة الثانوية فى رويتشيوان بمحافظة وينان ، واجتزت امتحان القبول . وعندما عرف اخى الكبير الذى تبناه خالى انى نجحت فى امتحان الالتحاق بالمدرسة الثانوية ، سر كثيرا ، ووعدنى بتحمل نفقات الدراسة فى المدرسة الثانوية . ومنذ ذلك الوقت اخذ يرسل لى

١٥ يوانا كل شهر ، فأكملت دراستى الثانوية بالاعتماد على هذه النقود . بل كنت اوفر شهريا بعضا من هذه النقود ، وارسلها الى والدى ، او اساعد بها احيانا زملائى الذين يعانون من الفقر اشد المعاناة . وبعد تخرجى فى المدرسة الثانوية عام ١٩٦٠ التحقت بمعهد شيبى للعلوم السياسية والحقوق لأدرس فى كلية تاريخ الحزب ، وصممت على دراسة وبحث الماركسية اللينينية لأصبح باحثة فى مجال النظريات السياسية . وفى عام ١٩٦٢ نقلت خلال تعديل تكوين المعهد الى كلية الحقوق . ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقة الوثيقة بينى وبين الاعمال السياسية والحقوق .

التمسك بالعدالة عند تنفيذ القانون

اشتغلت بأعمال القضاء فى القضايا المدنية سنين طويلة . وقد عملت فى البداية فى محكمة القضايا المدنية ، ثم نقلت بعدها الى محكمة الاستئناف الخاصة بالقضايا المدنية . وتشمل القضايا المدنية عادة قضايا الطلاق والوراثة وحقوق الملكية والتعويضات وملكية البيوت والديون واعالة المسنين واعالة الاولاد .

ومبدؤنا الاساسى فى معالجة القضايا هى " البحث عن الحقيقة من الوقائع " و" الاهتمام باجراء التحقيقات والدراسات " و" اعتبار الوقائع حججا دامغة " و" اتخاذ نصوص القانون مقياسا معتمدا " . فمن دون تطبيق هذا المبدأ سينتهى عملنا ، سواء أكان فى النظر فى القضايا الجنائية او فى النظر فى القضايا المدنية ، الى احكام خاطئة

لا يمكن تداركها . واننى لمدركة تماما ان مسؤوليتى كبيرة .

عند معالجتنا لأى امر او لأى قضية يجب ان نتحمل المسؤولية تجاه الشعب ، وان نفكر فى مصالح المعنيين . لقد قمت خلال البضعة عشر عاما الماضية بالنظر فى ما يقرب من ٦٠٠ قضية . لم اخطئ الحكم ولو فى قضية واحدة منها . وعند تحرى الوقائع والتثبت منها ألزم نفسى بالتدقيق التام مثلما يعاين الطبيب الخلايا بالمكروسكوب كى لا تفوتنى بذلك ادنى جزئية مما لدى من وقائع . وعند النظر فى قضية وراثة الممتلكات يجب تحديد الوارث الشرعى ونطاق الممتلكات الموروثة وغيرهما . وعند معالجة قضية فى النزاع حول حق الملكية يجب الذهاب الى موقع القضية لاجراء التحقيقات هناك والتثبت من جميع الادلة والبراهين .

وعند النظر فى قضية الطلاق يجب التفكير مليا فى مصالح المعنيين ، فلا يمكن الحكم بالطلاق قطعا اذا لم يكن الطلاق ضروريا . فقد عالجت قضية طلاق طالت مدتها ما يقرب من ٨ سنوات ، وكان الزوجان المعنيان يسيئان الظن ببعضهما بعضا فى السلوك ، ويتشاجران دائما ، وساءت بذلك حياتهما العائلية الى حد كبير ، ولم يعد ولداهما يجدان الرعاية المطلوبة ، فانحرف الكبير وسار فى طريق الجريمة ثم زج به فى السجن اخيرا . وتقدم الزوج بدعوى طالبا الطلاق ، فلم توافق الزوجة على ذلك ، واصبحت هذه العائلة على وشك التفكك . وبحثا عن امكانية اعادة العائلة الى حالتها الطبيعية تحدثت مع كل من الزوجين ، فلاحظت ان الزوج يطلب الطلاق مضطرا اذ قال لي : " مادام الامل معدوما في اعادة الوئام ، فان الفراق امر لا مفر

منه " . فهو فى الواقع راغب فى اعادة الوئام . وعلى هذا الاساس تحدثت مع الزوجة فى محاولة للصلح بينهما ، وطلبت من كليهما ان يتحدثا معا عما فى قلبيهما وان يقوم كل منهما بالنقد الذاتى . وفى نهاية الامر عاد الزوجان الى الوئام من جديد . وهكذا تمت تسوية قضية الطلاق هذه التى استمرت ٨ سنوات تقريبا . وتوجه الزوج حاملا معه الولد الى حيث تنتظره الزوجة ، وعاد بها الى بيتهما الاصلى فى فرح وسرور . وبعد ذلك اصبحت صديقة لهذه العائلة . وعالجت قضية طلاق اخرى كالآتى : فى احدى القرى بمحافظة شونيى زوجان شابان ، تزوجا عام ١٩٦٣ طوعا واختيارا بغض النظر عن معارضة اسرتيهما . ثم انجبا ٤ اولاد ، مما شكل لهما اعباء اقتصادية ثقيلة ، وصارت معيشة هذه العائلة صعبة ، واخذ الزوجان يتشاجران على الدوام . وقد ضرب الزوج زوجته ضربا مبرحا عدة مرات ، فتقدمت بطلب الطلاق ، لكن الزوج رفض ذلك رفضا باتا . فتوجهت الى قريتهما اربع مرات للقيام بالوساطة بينهما ، ولكن الوساطة لم تنجح لأن الزوج قد جرح شعور زوجته جرحا شديدا يتعذر التئامه ، وخاب الامل فى عودة الوئام بينهما ، وانتهت القضية بالطلاق بموافقة كلا الجانبين .

خلال معالجة القضايا ، كثيرا ما يلجأ بعض المتقاضين الى الاعتماد على الواسطة . لكننى مدركة تماما ان القانون ليس اداة فى يد شخص ما ، وان التمسك بالعدالة فى تنفيذ القانون هو الواجب الاساسى للقاضى . فى العام الماضى نظرت فى قضية استئناف لدعوى نزاع حول وراثة الملكية . وقد سبق لأحد الطرفين ان قام بتزوير ،

وتقدم ببراهين مزيفة مما جعل المحكمة تحكم لصالحه . وعلى الرغم من ذلك ظل هذا الطرف غير مقتنع بالحكم . وراحت رافعة الدعوى تبحث عن " وسطاء " فى كل مكان طالبة المزيد من حق الملكية . وبعد ان ثبت التزوير المذكور اعلاه اوضحت لرافعة الدعوى هذه اخطاءها فى تقديم البراهين المزورة ، فلاذت بالصمت ازاء الحقيقة الدامغة ، ثم اعربت عن عدم رغبتها فى اعادة رفع الدعوى طول حياتها ، وبادرت الى سحب طلبها لاستئناف الدعوى .

وخلال النظر فى القضايا تعرضت ايضا لضغوط ذوى السلطة والنفوذ . فمرة عالجت قضية طلاق ، وكان الزوج المتقدم بالدعوى ضابطا كبيرا . وعندما اخذت المحكمة تستجوبه عن احوال زواجه سلك سلوكا خاطئا ، فنقدته نقدا شديدا ، لكنه اعترض على نقدى هذا وحاول الضغط على معتمدا على سلطته ونفوذه . فتمسكت بالمبدأ دون خوف من السلطة والنفوذ وقلت له بكل جدية : " ان حق المحاكمة الذى فى ايدينا قد اوكلنا اياه الشعب ، فعلينا التمسك بالمبدأ القائل بأن الجميع امام القانون على قدم المساواة . " وامام هذه المواجهة الصلبة اعترف هذا الضابط الكبير بأخطائه اخيرا . وعندما جاء الى بكين فى مهمة عامة بعد ذلك بادر الى زيارتى تعبيرا عن اعتذاره ، وقام بالنقد الذاتى امامى .

الزوجة والام

ماذا عن حياة القاضية لى تشى تشين العائلية ؟ تتحمل القاضية لى

تشى تشين اعباء ثقيلة فى ادارة الشؤون المنزلية . فلديها بنتان ، وزوجها رئيس محكمة حى شيجينغشان بمدينة بكين ، وهو مشغول جدا بأعماله ، يغادر البيت فى الصباح الباكر كل يوم ولا يعود الا فى وقت متأخر مساء . ولهذا نظمت لى تشى تشين معيشة العائلة على نحو معقول مع انها تعمل فى موقع عملها اكثر من المطلوب دائما .

كيف نظمت لى تشى تشين معيشة عائلتها ؟ عرفتنا فى بيتها النظيف المرتب بحياتها اليومية قائلة :

— اقوم من النوم صباح كل يوم فى الساعة السادسة والثلث ، واوقظ افراد العائلة الآخرين فى الساعة السادسة والنصف واغادر البيت متوجهة الى موقع العمل فى السابعة والنصف تقريبا . وعند الظهر اعود الى البيت لأتغدى ، وطعام الغداء بسيط جدا . وفى المساء تقوم البنتان بغسل الخضار ، واقوم انا بالطبخ واعداد العشاء . وبالنسبة للغسيل تغسل البنتان ملابسهما ، اما ملابسى وملابس زوجى فيغسلها زوجى يوم الاحد . ويشترك جميع افراد عائلتى فى اداء الشؤون المنزلية فى تعاون وتنسيق . وحين لا يكون لدى اعمال اضافية فى موقع العمل مساء اشاهد برامج التلفزيون والصحف او اقرأ بعض الكتب السياسية والقانونية . وانا عادة لا اسهر بعد العاشرة . واهوى تربية القط ، وعندى فى البيت قطتان ، قد جلبتا لنا طبعا بعض المتاعب .

اننى مسؤولة عن الشؤون المالية لعائلتنا . فالدخل الشهرى لزوجى يبلغ حوالى ٢٠٠ يوان (راتبه الشهرى ١٤٠ يوانا والباقى علاوات مختلفة) . ودخلى انا حوالى ١٨٠ يوانا (راتبى الشهرى ١٢٢ يوانا والباقى علاوات مختلفة) . وبهذا الدخل لعائلتنا نعيش معيشة متوسطة .

واحيانا تقارن ابنتانا معيشتنا بمعيشة اسر اخرى ، فتشعران بفقر عائلتنا ، ولكنني مقتنعة تماما بمستوانا المعيشى . ولا اشعر ابدا بعدم للرضا لأن راتبى منخفض . وانا لا اوافق على وجهة النظر القائلة : "لا اعمل اكثر مما يساوى اجرى" . ان معظم دخلنا يصرف فى مجال الاكل لأن ابنتينا فى المرحلة الحاسمة من نموها ، وانا وزوجى مشغولان بالعمل الرسمى ، لهذا يجب ضمان الطعام الجيد المغذى لنضمن بذلك الصحة القوية التى تعتبر اساسا لكل شىء .

والبنتان تختلف احداهما عن الاخرى من حيث الطبع والمزاج . والكبرى تدرس الآن تصميم الماكينات وصنعها فى معهد الهندسة الميكانيكية التابع للجامعة المشتركة فى بكين ، وتود متابعة دراساتها العليا بعد تخرجها فى الجامعة . وترى فى الدراسة نوعا من المتعة ، ونتائج دراستها جيدة . اما الصغرى فهى الآن فى الصف الاول الثانوى ، وليست بقدر اجتهاد اختها فى الدراسة ، ولكنها ذكية ومفعمة بالحيوية والنشاط ومولعة بالرسم . وفيما يتعلق بالتربية فأنا لا اوافق على التدليل . فأطلب من ابنتينا عادة ان تتناولا مختلف انواع الاطعمة ، وان تلبسا الملابس التى تتوفر فيها البساطة والذوق الرفيق ، وان تراعيا عدم التبذير فى الانفاق . واقول لهما دائما بأننا لم نصل الى مستوى حياتنا هذه بسهولة ، وان كل شىء قائم على الجهد الكبير . ان من واجبنا انا وزوجى ان نربيهما لتصبحا نافعتين للمجتمع لا عبئا عليه . وقد حذرتهما منذ وقت طويل بألا تأملا فى الحصول على الوظيفة الجيدة عن طريق "الدخول من الباب الخلفى" ، وان المهم ان تخدما المجتمع بمعلوماتهما ومقدرتهما الحقيقية .

وفى نهاية مقابلتنا للقاضية لى تشى تشين خرجت بالنتيجة التالية :
انها بصفتها قاضية تعمل على حماية القانون وتنفيذه بكل جدية والتزام بواجباتها المقدسة ، وبصفتها زوجة واما تؤدى دورها فى عائلتها على خير وجه كذلك .

رن يوى تشوه

– قاطعة التذاكر الطيبة

بكين عاصمة جمهورية الصين الشعبية ومركزها السياسى والاقتصادى والثقافى معا . عدد سكانها يقرب من عشرة ملايين نسمة ، ويبلغ عدد المترحلين فيها يوميا مليون نسمة . وقد ازداد المعدل السنوى لعدد السياح الاجانب من ۳۰۰ ألف نسمة فى الماضى الى ۹۳۰ الف نسمة حاليا . وهذه الارقام وردت فى احصاء عام ۱۹۸۷ ، وقد تزداد فيما بعد . ان هذا العدد الضخم من السكان فيهم الطلبة والعمال والموظفون والمتنقلون فى مهام رسمية والسياح ، وهم يحتاجون الى وسائل المواصلات عند خروجهم من منازلهم . وخطوط المواصلات فى بكين مثل خطوط الشبكات ، تحت الارض وفوق الارض وفى الجو . فمترو الانفاق والسيارات والطائرات تتحرك يوميا بلا انقطاع . وعندما يخلد الناس الى النوم بعد انتهاء اعمالهم اليومية ويغرقون فى احلامهم ، يظل هناك عدد كبير من السيارات تخترق شوارع المدينة طول الليل . فأولئك السائقون وقاطعو التذاكر يعملون عملا كدودا طوال السنة فى موقع عملهم على السيارات ، وبفضلهم تظل بكين مدينة جياشة ساهرة تواصل الليل بالنهار .

وهناك عدد كبير من السائقات وقاطعات التذاكر ينجزن اعمالهن بقدر ما ينجزه نظراؤهن من الرجال ، وهن يختلفن عنهم كذلك فى اداء مزيد من الاعمال الاخرى كالعناية بالاولاد والقيام بالاعمال المنزلية ، بل ان عدداً منهن يعملن فوق طاقتهن .

ونود فيما يلى ان نتحدث لقرائنا الاعزاء عن احدى قاطعات التذاكر ، وهى نموذج يعكس معيشة الآلاف والآلاف من قاطعات التذاكر الصينيات . انها امرأة عادية جدا ، ولكنها بارزة فى حماستها واخلاصها وكدها . فتسعى دائما الى تحسين خدمتها ، وتدفئ قلوب الركاب بطيبتها . وضيفتنا هذه هى رن يوى تشوه ، واسمها مدرج فى قائمة اسماء العاملات النموذجيات على مستوى البلاد .



رن يوى تشوه

"بدأت عملى قاطعة تذاكر"

ولدت فى عائلة عمالية عادية فى بكين متكونة من ٨ افراد . وكنت مجتهدة فى الدراسة ، لكن والدتى لم تكن تسمح لى بالسهر من اجل الدراسة ، فدائما ما تطفئ النور خلال دراستى . وفى هذه الحالة كثيرا ما لجأت الى قراءة الكتب تحت نور المصباح فى الشارع . وعند تخرجى فى المدرسة الاعدادية شجعنى المعلمون على الالتحاق بالمدرسة الثانوية . وكنت عازمة حقا على مواصلة الدراسة ، ولكنى فى الوقت نفسه راغبة فى ان اعيش حياة مستقلة بأسرع ما يمكن من اجل تخفيف العبء عن والدى . ففى اغسطس ١٩٦٥ تطوعت بالذهاب الى الريف فى منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم للاشتراك فى العمل الانتاجى وتصليب النفس فى آن واحد . وقد قوبل سلوكى هذا فى ذلك الوقت بالاهتمام والتقدير من المجتمع . وعز على الام ان افارقها فحاولت جهدها الحيلولة دون مغادرتى . ولكنى قد عقدت العزم على ذلك ، فلم اتخل عن فكرتى . وحولت بطاقة اقامتى الدائمة فى بكين الى محل الاقامة الدائمة الجديد فى منغوليا الداخلية دون علم امى ، مما اضطرها اخيرا الى تركى اتصرف وفق ارادتى .

كان العمل الجسمانى فى الريف بمنغوليا الداخلية متعبا جدا ، ولكن الفلاحين هنالك اعتنوا بنا كل العناية ، فقد احبوا كل من لايخاف من العمل الشاق الكدود . واذكر مرة ان يدى قد تقرحتا خلال عملى فى الحصاد وسال الدم منهما ومع ذلك لم اترك المنجل بل واظبت على

العمل حتى انجزت مهمتى ، وساعدت الآخرين على انجاز مهامهم . وفى ذلك الحين قلت فى نفسى : يجب الا اخاف من التعب ، والا فلماذا جئت الى هنا . لذلك احبنى الفلاحون كثيرا ، واعتبرونى واحدة من افراد عائلاتهم ، وصنع بعضهم احذية واهدانى اياها . وفى الفترة الاخيرة من اقامتى هناك اصبت بالروماتزم والتهاب القصبات فاضطررت الى الانتقال عام ١٩٦٩ من الريف فى منغوليا الداخلية الى الريف فى محافظة شونييى بضواحى بكين . لقد صلبتنى الحياة فى الريف ، واثرت بى بوجه خاص طباع الفلاحين المتميزة بالبساطة والاخلاص .

وفى عام ١٩٧٥ طلبت شركة " الترولى باص " فى بكين عددا من العمال ، فسجلت اسمى فى قائمة المتقدمين بطلب للعمل لديها ، وكنت حينذاك قد تزوجت شابا مثقفا عائدا الى الريف . فخشى زوجى ان يؤدى تغيير ظروف عملى الى فتور محبتى له فأغير موقفى منه . لكننى طلبت منه ان يكون مطمئنا كل الاطمئنان على ولائى واخلاصى له ، واكدت له ان زواجنا سيدوم مدى حياتنا ، وان الذهاب الى المدينة للعمل امر يهمنا معا ، وان الكلمة الاخيرة له ، فاذا وافقت على ذلك اذهب ، والا فلن اذهب . وقلت له كذلك ان احدنا فلاح والآخر عامل ، وهذا ليس بسيئ . والمواصلات الآن سهلة ولقاؤنا سيكون كثيرا . وفى النهاية ايدنى زوجى فى العمل لدى الشركة المذكورة . فعملت فى البداية قاطعة تذاكر فى الحافلات السائرة على الخط رقم ١٠ (خط رقم ١١٠ اليوم) . وهكذا بدأت صفحة جديدة فى حياتى .

الفراحي في موقع العمل الجديد الشاق

ان عمل السائقين وقاطعى التذاكر عمل شاق ، فهم يقومون من النوم مبكرين ، وينامون فى الليل متأخرين ، ويعيشون داخل الحافلات المرتجة على مدار السنة ، فى الحر والرطوبة صيفا والبرد القارس شتاء (ما تزال الصين دولة نامية ، ومشاريع التنمية فيها كثيرة ، فليست لديها قدرة على تزويد العربات العمومية بأجهزة تكييف برغم ان نموها الاقتصادى سريع) ، ويتعرضون احيانا لمضايقة من الركاب غير المهذبين . وبعد فترة من عملى فى هذه المهنة ساورتنى اضطرابات نفسية ، وشعرت بالندم ، وسألت نفسى : أ ليس هذا العمل الجديد عذابا جديدا ؟ فبعد قضائى عشر سنوات مريرة فى الدراسة انتهى الى قاطعة تذاكر مدى العمر ؟ وبقيت متشائمة فترة من الزمن .

لكن المدربين والزملاء شجعونى . ولاحظت انهم يخدمون الركاب بحماسة كأن لديهم قوة لا تنفد ، ولكننى لم افهم فى البداية لماذا احبوا عملهم كل هذا الحب ؟ ولم اعرف ما مصدر قوتهم ؟ انهم بشر وانا مثلهم ، وهم يستطيعون اتقان عملهم كل الاتقان ، فلماذا لا استطيع ان اكون مثلهم ؟ هم يعملون فى سعادة وسرور ٨ ساعات كل يوم ، وانا اعمل فى كآبة وملالة ٨ ساعات كذلك ، فلماذا لا ابحث عن سعادتى من خلال العمل مثلهم ؟ ورأيت اننى اذا وجدت السعادة خلال العمل واحسست بمغزى العمل ، فمن الممكن ان اتقن عملى . فبدأت احسن خدماتى للركاب . وكلما عاملت الركاب

بلطف واجبتهم عن اسئلتهم وساعدتهم على تذليل المصاعب ، ألقوا الى نظرات الشكر والامتنان ، الامر الذى جعلنى اشعر بالسعادة من جراء مساعدة الآخرين . ومع مر الايام بدأت اعرف مغزى عملى . وعلى هذا الاساس طالبت من نفسى ان اعمق فهمى لمغزى العمل وابحث عن مزيد من السعادة فى عملى .

ان موقع عملى لا يزيد عن منضدة ضيقة لقطع التذاكر ، لكن نطاق هذا العمل واسع جدا . فوراء هذه المنضدة الضيقة استقبل واودع آلافا من الركاب ، يعملون فى مختلف مجالات العمل ، وينتمون الى مختلف القوميات ويقدمون من مختلف انحاء البلاد او حتى من خارج البلاد . يجب على ان اعامل هؤلاء الركاب بحماسة لا ببرودة وان اخدمهم خدمة جيدة لا سيئة . وان انا عاملتهم بلطف ، بادلونى بلطف كذلك واندفعوا الى اعمالهم وخدمة وطننا بكل حماسة ، أ ليس هذا هو المغزى البعيد المدى لعملى ؟ "

إلهام جديد ـ افضل اتعاب نفسى تسهيلا على الركاب

ان قطع التذاكر مهنة من المهن ، ولكنها فن من الفنون ايضا . ومن اجل اتقان هذه المهنة لابد من ممارستها فترة من الزمن . على قاطع التذاكر ان يؤدى عمله بسرعة ، ويراعى المسنين والضعفاء والمرضى وذوى العاهات ، وخصوصا فى ذروة الازدحام . فكثيرا ما قطعت ازرار ملابسى من جراء الازدحام ودائما ما يؤلمنى ظهرى ، ورجلاى من هذا العمل المتواصل ٨ ساعات كل يوم ، ولكن لا بد

من تحمل هذا كله فى سبيل خدمة المواطنين . ومن اجل اتقان عملى على خير وجه كنت بعد الفراغ من العمل اتمرن فى البيت على تأشير التذاكر وقطعها ، او اعاين عمل زملائى الآخرين فى حافلاتهم واتعلم منهم الخبرات .

بعد ان انتهيت من عملى ذات مرة ، وهممت بالعودة الى البيت ، لقيت امرأة ريفية قد ضلت الطريق الى بيت اقربائها ، وتحمل بيدها طفلا وباليد الاخرى حقيبة ، وهى فى غاية القلق والاضطراب . فهدأتها اولا ، واشتريت لها الطعام ، ثم اوصلتها الى بيت اقربائها وفقا لما تقدمت به من معلومات بسيطة . فكان ان وصلتنى منها رسالتان ودفتر مذكرات تعبيرا عن شكرها وامتنانها .

وذات يوم كان المطر يملأ الشوارع . وعندما وصلت حافلتنا الى شارع ميشى وجدت عجوزا تريد النزول وعمرها اكثر من ٧٠ عاما . فخفت من سقوطها على الارض وتعرضها للاذى ، لذلك اسرعت الى حملها على ظهرى ، واوصلتها الى رصيف الشارع ، وفتحت لها المظلة وحذرتها من الانزلاق ، فقالت لى بتأثر وانفعال : "يا ابنتى العزيزة لك منى كل الشكر ! بوجود امثالك فى الحافلات لن يساورنا نحن المسنين القلق عند خروجنا من البيت ."

ان ما يمر بى من احداث خلال عملى يعطينى دائما إلهاما جديدا . وكلما عملت عملا حسنا مهما كان بسيطا ، قوبلت بالشكر والتقدير . وهذا يدل على ان الركاب فى حاجة الى المساعدة . على من خلال مهنتى هذه ان انجز مهمتى فى بيع التذاكر ، وان اضع الركاب فى قلبى بقدر الامكان ، فأفكر فيما يفكرون ، واقلق مما يقلقون ،

واساعدهم على تذليل الصعوبات . لذلك ابذل جهدى فى اثناء العمل واظل مستيقظة الحواس كلها فى آن واحد ، واساعد الركاب بكل حماسة فى مختلف امورهم .

وتسهيلا على الركاب اتخذت ١١ نوعا من الاجراءات وفقا لمختلف حاجات الركاب . فمثلا هناك آباء وامهات يحملون معهم اطفالا عند ركوبهم الباصات ، ويرفضون ان افرغ لهم المقاعد لأنهم سينزلون بعد مسافة قصيرة لا تستدعى الجلوس . وفى هذه الحالة يجلسون اطفالهم عادة على منضدتى الباردة الخاصة بقطع التذاكر . ولاحظت ان ذلك يعرض الاطفال للبرد ، فصنعت وسادة محشوة بالقطن اضعها على المنضدة كى يجلس عليها الاطفال . وهناك اولاد يحبون مد رؤوسهم الى خارج نوافذ الباص لمشاهدة ما فى الشوارع ، وبعضهم الآخر يثير الضوضاء او يحرص على مشاهدة السائق وهو يقود باصه . فمن اجل صرف انتباهاتهم احضرت بعض الالعاب والكتب المسلية اشغلهم بها لضمان امن السيارة وركابها . واحضرت ايضا بعض المخاطيف ليستخدمها الركاب لتعليق اشيائهم . واعددت كذلك اوراقا ليسجل الركاب عليها العناوين وخطوط المواصلات ، كما اعددت لوحات بأسماء المحطات المستخدمة فى تنبيه الركاب للنزول وخريطة للمواصلات وابرة خياطة وخيوط وادوية بسيطة وسلة للمهملات ومراوح واكياس ورقية وغيرها ، وهذه الاجراءات كلها قوبلت بترحيب الركاب وسرورهم .

وكلما رأيت خدماتى تقابل بابتسامات الشكر فهمت بصورة اعمق مغزى عملى والسعادة الكامنة فيه . ان الركاب يشعرون من خلال

خدماتنا الحماسية لهم بعناية الانسان بالانسان وبدفء مشاعر الانسان للانسان . وانا بدورى قد لقيت من الركاب كل الاحترام والتأييد . الركاب فى حاجة الى وانا لا انفصل عن الركاب ، فنتبادل معا العون والمودة . لقد احببت هذه المهنة من اعماق قلبى ، حتى اننى تخليت ثلاث مرات عن فرصة التدرب على قيادة السيارة لأصبح سائقة . وهناك لوائح خاصة فى شركتنا تنص على اختيار الشبان والشابات الممتازين من بين قاطعى التذاكر لتدريبهم على قيادة السيارات . وفيما بعد لن تتاح لى فرصة اخرى لأن عمرى الآن قد تجاوز المدى المحدد للسائقين ، ولكننى لست نادمة ابدا . لقد ادركت من واقع الحياة الحقيقة العامة التالية : "كل واحد منا فى المجتمع خادم ومخدوم فى آن واحد ، ومنتج ومستهلك فى آن واحد . انه فى موقع عمله خادم يخدم غيره ، ولكنه فى موقع آخر زبون يخدمه غيره . " عزيمتى تتركز فى نقطة واحدة هى اتقان عملى هذا مدى حياتى .

هناك امر ترك انطباعات عميقة فى نفسى : ذات مرة سألتنى امرأة راكبة تحمل فى حضنها طفلا مريضا عن كيفية وصولها الى مستشفى الاطفال . ولأنى كنت لا اعرف جيدا مخطط مدينة بكين وخطوط المواصلات فيها ، لم اتمكن للاسف الشديد من تلبية هذه المرأة . وهذا الامر نبهنى الى ضرورة استيعاب مخطط بكين ومعرفة الاماكن القريبة على طول الخط الذى تسير عليه باصاتنا ذهابا وايابا مخترقة احياء رئيسية فى المدينة . والا فكيف استطيع الاجابة عن اسئلة الركاب الكثيرين وكيف اتقن عملى فى مهنتى هذه . ومنذ ذلك الوقت بدأت اجمع المعلومات المعنية . فبعد انتهاء العمل الرسمى

كل يوم اقوم بتحقيقات فى مختلف المحطات الواقعة على طول الخط وامشى على قدمى فى اماكن قريبة من تلك المحطات الواقعة على طول الخط ، وفى نفس الوقت ارى واسأل واسجل ، واحيانا اسجل المسافة بين المحطة ودوائر العمل المشهورة بعدد الخطوات والوقت اللازم لقطع هذه المسافة مشيا . وثابرت على هذا العمل المضنى اليومى اكثر من سنة ، فاستوعبت بصورة اساسية المواقع والعناوين وارقام البيوت والمميزات الخارجية لأكثر من ٨٠٠ دائرة عمل واكثر من ٦٠ فندقا واكثر من ٣٠٠ زقاق على طول الخط واكثر من ١٠٠ دار سينما واكثر من ٢٠ مستشفى . فعندما يسأل الركاب عن مثل هذه الاشياء يمكننى ان اجيبهم فورا ، فأسهل عليهم امورهم واوفر لهم اوقاتهم .

وذات مرة سألنى راكبان قادمان من خارج بكين عن اسم المحطة التى ينزلان فيها للبحث عما يريدان الذهاب اليه ، فلم اخبرهما باسم المحطة فحسب ، بل اخبرتهما ايضا باسم الزقاق الذى يدخلان فيه بعد النزول من الباص والوقت التقريبى للمشى واتجاه الطريق ورقم البيت ولون البوابة وعدد طوابق المبنى . وبعد استماعهما الى هذا الشرح قالا فى دهشة واعجاب : لقد استغرقنا عدة ساعات فى البحث عن هذا المكان ولم نجده ، اما الآن فسنجده بسهولة . وفى مرة اخرى لقيت راكبين قادمين من خارج بكين كذلك ، يريدان مشاهدة فيلم يعرض فى سينما داهوا فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان العرض سيبدأ بعد ١٧ دقيقة . فسألانى عن الطريق الى السينما ، فأخبرتهما قائلة : انزلا فى محطة دونغدان ثم سيرا الى الامام حوالى ٣٠٠ خطوة فى ٣ دقائق

وستصلان الى دار السينما قبل الموعد ، فدهشا من كلامى . وقد تلقيت منهما بعد ذلك خطابا جاء فيه : " ذهبنا الى كثير من المدن الكبرى ، فلقينا القليل من قاطعى التذاكر يستطيعون تحديد المسافة للركاب بعدد الخطوات ووقت المشى . " وكانت هناك عجوز قادمة من قوانغدونغ ، ركبت الباص من محطة تشيانمن متوجهة الى شارع تشاوواى ، فأجلستها ووضحت لها الطريق ، ثم كتبت لها ورقة لتحديد خطوط المواصلات ، وساعدتها عند نزولها كذلك . وعند رجوع الباص وجدت ان هذه العجوز تنتظر فى المحطة التى نزلت فيها . فأجلستها مرة اخرى ، وساعدتها على حمل الحقيبة . وكان الجو باردا ، فخلعت معطفى ووضعته على كتفيها . وعند نزولها صافحتنى وقالت لى فى محبة : " انا اعمل فى قطاع الخدمات مثلك ، ان خدمتك كاملة جيدة . " وفيما بعد عرفت انها نائبة فى المجلس الوطنى لنواب الشعب الصينى .

يقع على مقربة من الخط الذى تسير عليه باصاتنا مدرستان للبكم والصم ومصنع للستر الصوفية ، معظم عماله من البكم والصم . وهم يركبون باصاتنا يوميا . ومع تطور وتعمق الاصلاح والانفتاح يتزايد الركاب القادمون من خارج بكين والاصدقاء الاجانب اكثر فأكثر . فكيف اخدم هؤلاء الركاب من ذوى العاهات والضيوف القادمين من كل حدب وصوب ؟

انا مشغولة بالعمل ، واسكن فى داخل المدينة منفصلة عن عائلتى الموجودة فى ضواحيها البعيدة ، واعبائى العائلية ثقيلة ، ومستواى الثقافى غير عال . فمن اجل اداء العمل اداء افضل التحقت بالمدرسة الثانوية

فى اوقات الفراغ ، واخذت ادرس فى اوقات الفراغ واسهر حتى الساعة ١ او ٢ بعد منتصف الليل . ولا اغيب عن العمل فى النهار ابدا . درست جميع المواد خلال سنة ونصف ، ودرست بالاضافة الى ذلك بعض اللهجات المحلية فى قوانغدونغ وشانغهاى وشينجيانغ ومنغوليا الداخلية واماكن اخرى ، ودرست شيئا عن المحادثة البسيطة باللغة الانجليزية ولغة الايماء للبكم . لذلك تمكنت من التفاهم مع الركاب على اختلاف لهجاتهم ، واصبحت اقدم لهم كل التسهيلات والخدمات الممكنة . فذات مرة لقيت راكبا ابكم يريد الذهاب الى سينما تشوشيكو ، ولكنه لايعرف فى اى محطة ينزل . فأخبرته بلغة الايماء : "كن مطمئنا ، واجلس وسأنبهك حين الوصول" . وفى مرة اخرى وجدت فى محطة تشيانمن عجوزا بكماء على رصيف المحطة تسأل بلغة الايماء : " هل هذا خط رقم ١١٠ ؟ " فنزلت من العربة بسرعة ، وافهمتها بالايماءات اليدوية ، وساعدتها على صعود العربة واجلستها . ولاحظت انها تضغط بيدها على بطنها ، فسألتها بلغة الايماء : " انت مريضة ؟ " واخبرتها بالايماء ايضا : " لا تقلقى ، يمكنك ان تذهبى الى مستشفى نصله بعد ٣ محطات . وانا انزلك عند الوصول . " فردت على بالايماء : " شكرا لك انت طيبة . " انى ارى انه من مسؤوليتنا وواجبنا ان نراعى اولئك الركاب المعوقين . كتب احد المقاتلين رسالة الى قال فيها : " انت قاطعة تذاكر ، ولكنك فى الوقت نفسه ابنة للمسنين وممرضة للمرضى وعكاز لذوى العاهات وعين للعمى ومربية عظيمة للاطفال ودليلة ممتازة للركاب الغرباء . "

فى بكين كثير من السائقين وقاطعى التذاكر البارزين ، من

ضمنهم وانغ قوى رونغ وليو يوى هوا وغيرهما من الجنس اللطيف ، وانا سأقتدى بهن فى خدمة الركاب بكل اخلاص وامانة . وكلما وقفت امام تمثال وانغ قوى رونغ (لقد توفيت واقامت لها الحكومة تمثالا كاملا تخليدا لذكراها) يزداد عزمى على بلوغ مستواها .

" ان جل سعادتى فيما ألقاه من تقدير واحترام ومحبة من الركاب . "

العمل فى المقام الاول

انا زوجة وام . وقد انتهت تلك الايام التى كنت اسكن فيها منفصلة عن عائلتى . فعائلتى الصغيرة تسكن الآن فى حى داشالان فى قلب مدينة بكين . ابنتى فى التاسعة من عمرها ، وهى ظريفة سريعة الفهم ، ولكنها عاتبة على دائما وتقول : " ان امى حسنة فى مختلف النواحى ، الا انها لا تخرج معى للنزهة ، ولم تحك لى كنزة صوفية قط . "

فى احد ايام الراحة كان من المقرر ان اذهب معها الى الحديقة العامة ، لكننى فوجئت باستدعائى الى مرقع العمل ، فاضطررت الى تأجيل النزهة الى يوم آخر واعتذرت منها . وكانت اذ ذلك فى السادسة من عمرها فقط ، لذلك اقفلت عليها باب البيت . ولم يخطر ببالى انها قد تخرج من النافذة وتذهب الى بيت والدتى . والعادة اننى اشتغل فى وردية الظهر والمساء ، وانهى العمل فى الساعة التاسعة مساء ، وعندما اعود الى البيت اجدها نائمة . وفى تلك الايام علمتها معرفة الوقت بالساعة لمعرفة موعد ذهابها الى المدرسة ، وعلمتها كيف

تسخن الطعام بعد عودتها من المدرسة وكيف تقفل الباب عند مغادرة البيت . كانت تعلق المفتاح بالحبل على عنقها خوفا من الضياع مثلما يفعل كثير من الاطفال . وفى ظروف عائلتى تمرست ابنتى على العيش المستقل منذ صغرها ، فنشأت قوية الارادة .

وزوجى رجل صادق ومشغول بعمله كذلك . وبعد عودته من العمل ، عليه ان يعد العشاء ويرعى ابنتنا . وفى كل مساء يستقبلنى فى محطة الاوتوبيس اطمئنانا على فى طريق عودتى الى البيت ليلا لأن الزقاق المؤدى الى بيتنا طويل . ويؤسفنى جدا اننى لا اتمكن من القيام بواجبات الزوجة تجاهه على خير وجه . فعندما دخل المستشفى لم اتمكن من زيارته نهارا بسبب انشغالى بالعمل ، فكلفت والدتى بزيارته نيابة عنى ، ولم يؤاخذنى لأنه يفهمنى ، بل شجعنى على العمل فى اطمئنان . وكنت ازوره دائما فى المساء بعد انتهاء العمل الرسمى مخالفة لائحة المستشفى الخاصة بزيارة المرضى ، ولايسعنى الا ان اعتذر من المسؤولين هناك وارجوهم ان يقدروا ظروفى . ان والدتى واشقائى وشقيقاتى يؤيدوننى جميعا فى اتقان العمل ، ويمدون لى ايدى المساعدة فى المعيشة ، فأشعر بأنى مدينة لهم كثيرا .

احب عملى هذا الذى يشغل كثيرا من اوقاتى ، ويؤثر بطبيعة الحال فى رعايتى لشؤون اسرتى . ولكنهم يعرفون انى احبهم حبا جما ، وهذا يعتبر اكبر مواساة واحسن حب منهم لى .

فى بيت رن يوى تشوه الضيق تحدثنا معها طويلا وجها لوجه . كانت ابنتها مسرورة أن لقيت غريبتين فى بيتها لدى عودتها من المدرسة ، فعانقتنى وهمست فى اذنى : " امي عظيمة ولكنها لا تجد وقتا للتنزه

معي . " وهذا الكلام جعلني احس بما يكمن في قلب هذه البنت من الحزن ، ولكن ابتسامتها اخبرتني انها مزهوة بأمها ، وتراها عظيمة وتتفهم ظروف امها . ولكن اذا استطاعت امها الخروج بها في نزهة فستكون اما افضل .

ان بيت رن يوى تشوه يتميز بالبساطة والنظام والنظافة مثل شخصيتها بالذات . ومستوى معيشتهم غير عال ، ولكن ايامهم تمضى على ما يرام . كنا نود في البداية ان نركب باصها حتى نرى بأعيننا كيف تخدم الركاب على طول الخط الذى تسير عليه كل يوم ، وقد رحبت هي بذلك كل الترحيب ، ولكن للاسف لم نتمكن من ذلك لأننا كنا مستعجلين للذهاب الى شانغهاى لاجراء مقابلات صحفية .

والآن كلما شاهدت الاوتوبيسات على الخط رقم ١١٠ خطرت ببالى صورة قاطعة التذاكر رن يوى تشوه الطيبة التى تمثل في عملها عددا لا يحصى من زملائها في هذه المهنة .

شيوى شياو ينغ

ـ بائعة حساء السمك

في " السوق الليلية " في دونغآنمن ببكين استأجرت البائعة شيوى شياو ينغ موقعا لبيع حساء السمك .

شيوى شياو ينغ ليست شخصية نموذجية ولا عاملة متقدمة ، وانما امرأة عادية ، ومهنتها عادية جدا كذلك . انها لا تطمع في الارباح ولا تسعى وراء الثروة ، وانما تهتم بخدمة الجماهير . وهى مثال لطراز آخر من النساء الصينيات ، النساء الكادحات البسيطات اللواتى يشكلن شريحة كبيرة في الصين .

في يوم شديد الامطار كنت على دراجتى ابحث عن مسكن البائعة شيوى شياو ينغ ، فوجدته في احد الازقة الضيقة بمدينة بكين ، ويمكن القول بأنه مسكن ومعمل بسيط في آن واحد . وعندما اقتربت خلال بحثى من هذا المكان اصبحت رائحة السمك خير دليل يوصلنى اليها مباشرة دون حاجة للنظر الى ارقام البيت .

ووجدت هناك ٧ او ٨ من الشبان والشابات منهمكين في صنع كرات من لحم السمك ستباع مساء ذلك اليوم . كانت ايديهم تتحرك تحركا ايقاعيا فيما البشاشة تعلو وجوههم ، والشابات في زينتهن

المألوفة وضحكاتهن الرنانة تدل على انه لا هم لديهن ولا قلق . دخلت بمصاحبة البائعة شيوى شياو ينغ بيتا ليس بواسع ولا منير ، وهو يعتبر غرفة استقبال و" ورشة عمل" ومسكنا مؤقتا لهن فى آن واحد ، لكنه حسن الترتيب .

تتوفر فى البائعة شيوى شياو ينغ الصفات العامة للنساء فى منطقة جيانغسو وتشجيانغ ، فهى قصيرة القامة سريعة البديهة مفعمة بالمحبة والحماسة فى تعاملها مع الناس . طرحت عليها مجموعة من الاسئلة حول وضعها ووضع عملها وطلبت منها ان تحدثنى : كيف بدأت مهنتها الحالية " بيع حساء السمك " ؟ وما الصعوبات التى تعرضت لها فى طريقها الى ذلك ؟ وما همومها وتصوراتها للمستقبل ؟ وهل تلقت من زوجها واولادها التأييد فى ممارسة هذه المهنة ؟ فوجدت ان هذه الاسئلة جديدة فعلا . وفكرت فيها قليلا ، ثم اجابت عنها واحدا واحدا .

من ونتشو الى بكين

عمرى الآن ٣٨ عاما ، وانا ام لثلاثة اولاد . وهذا هو ابنى الاكبر ، واشارت الى فتى يستلقى على السرير ، فرفع رأسه واومأ لى بالتحية . بعد تخرجى فى المدرسة الاعدادية بقيت فترة لا اجد عملا ، ثم اشتغلت بعدها عاملة فى احد الفنادق بمدينة ونتشو مدة ٦ سنوات . وفى السنوات الاخيرة بدأت المقاولة فى ادارة الفنادق ، مقاولة فردية وجماعية . وقدرة التنافس لدى اهالى مدينة ونتشو قوية

جدا ، والمقاولة فى ادارة الفنادق جد معقدة ، وانا غير واثقة بقدرتى على التنافس مع الآخرين فى مجال المقاولة فى ادارة الفنادق . فخطر ببالى ان ابحث عن مهنة اخرى . ماذا اعمل ؟ ان التطورات الجديدة التى طرأت على الاصلاح الاقتصادى نبهتنى الى الخروج من مدينة ونتشو لجس النبض ، او بعبارة اخرى للقيام باستقصاء . ثم اخذت القرار النهائى . ولهذا الغرض جئت الى بكين . فلم اجد فيها وجبات طعام خفيفة حتى فى السوق الليلية المزدهرة فى درنغآنمن . فقلت فى نفسى : اذا نقلت وجبات الطعام الخفيفة الى الاسواق الليلية فى بكين ، فستلقى الاقبال الذى تلقاه فى ونتشو . واذا استأجرت موقعا فى السوق الليلية فى بكين لبيع حساء السمك ، فسأنجح فيه على ما اعتقد . ولكن ذلك يتطلب منى الجرأة على ترك وظيفتى فى ونتشو . وكان مما يقلقنى انه اذا لم انجح فى ذلك ، فكيف سيكون مصير عائلتى واولادى الثلاثة ؟ وبقيت مضطربة قلقة مترددة بعض الوقت ، ولكننى عقدت العزم اخيرا على القيام بالتجربة اولا . فحصلت على رخصة لممارسة التجارة فى بكين بسهولة ، وبدأت بعد ذلك بوقت قصير ابيع حساء كرات السمك على سبيل التجربة . وسرعان ما لقى هذا الحساء اقبالا من الزبائن ، فتلاشى كل ما عندى من قلق .

حساء ونتشو لكرات السمك يلقى اقبالا عظيما فى بكين

لقد لقى حساء ونتشو لكرات السمك اقبالا عظيما فى بكين لأن بائعتها شيوى شياو ينغ قد ركزت كل اهتمامها على صنعه . اذا

كانت شيوى شياو ينغ تسعى وراء الربح والثروة لا غير ، فان الحساء سيكون مرتفع السعر ، ولن يلقى هذا الاقبال الكبير من الزبائن .

قالت شيوى شياو ينغ :

— حين ابيع هذا الحساء لا اصرخ لاجتذاب الزبائن ، ولا اعرف الاعتماد على ابتساماتى الحلوة ، ولكننى اعتمد على جودة الحساء وانخفاض سعره . فالزبائن حين يتناولون حسائى مرة يعودون الى مرات ومرات ، وبعضهم قد اصبح مدمنا تناوله . هناك زبون يأتى مرة كل عدة ايام ، ويبدو انه قد ادمنه حقا . ولقيت فتاة سنغافورية لم تتناول وجبات طعام خفيفة منذ مجيئها الى الصين . ولكنها تحب حساء كرات السمك ، فتناولت عندى ٣ سلطانيات فى المرة الاولى و٣ سلطانيات اخرى فى المرة الثانية ، وقالت ان حساءك لذيذ ، ولا ادرى ما السر فى ذلك . وهناك طالبة فرنسية ظلت تتناول هذا الحساء يوميا على وجه التقريب طيلة نصف سنة ، وقالت لى : " اذا ذهبت الى فرنسا ، فان حساءك سيلقى اقبالا عظيما من الفرنسيين دون شك . " وهناك صديق ألمانى تناول هذا الحساء عندى ، فكتب اسمه فى دفترى للذكرى ، وقال : " ان حساء كرات السمك ألذ وجبة طعام خفيفة فى بكين . " وجدير بالذكر ان هناك ضابطا من جيش التحرير برتبة رئيس فصيلة قال بأنه فى اثناء اداء مهمته لاطفاء حريق الغابات فى جبال شينغآن الكبرى فى مايو عام ١٩٨٧ كان يتذكر طعم حسائى اللذيذ . والآن قد انتهز فرصة مجيئه الى بكين ، وجاء ليتناوله من جديد . وامس جاءنى عدة زبائن بسيارة اجرة لتناول حساء كرات السمك خاصة ، وطلب كل منهم سلطانية واحدة فى البداية ثم زادها

كل منهم الى ٣ سلطانيات . وهناك اطباء لا يتناولون الاطعمة خارج البيت عادة ، ولكنهم صاروا الآن من الزبائن الذين يتناولون هذا الحساء عندى دائما . وهناك فتاتان تأتيان الى معا كل يوم لتناول هذا الحساء وجبة عشاء لهما . وهناك صحفية من ضمن زبائنى الدائمين، وعندما اطلعت على حياتى وعملى كتبت مقالة عنى نشرت فى الطبعة الخارجية لصحيفة الشعب اليومية .

سألت شيوى شياو ينغ لماذا يحب الناس تناول حسائك ؟ فقالت :

— ليس فى الامر سر . ان من المهم الا يضن صانع الحساء بشراء الاسماك البحرية الطازجة والانواع المتعددة الممتازة من التوابل ، وان يصنع كرات السمك فى نفس اليوم الذى سيبيعها فيه .

قيل ان الامبراطور تشيان لونغ من اسرة تشينغ قد تناول فى احدى رحلاته التفقدية فى مناطق جنوب نهر اليانغتسى ، حساء كرات السمك ، واعجب به فطلب من طباخيه الكبار لدى عودته الى قصره فى بكين ان يصنعوا له هذا الحساء ، ولكنهم لم يتمكنوا من اخراجه بالطعم المطلوب لهذا الحساء . مما يدل على ان تركيب التوابل واستخدامها بطريقة صحيحة امر عظيم الاهمية .

اشترى كل يوم ما يتراوح بين ٣٠و٤٠ كيلوغراما من الاسماك الطازجة ، وتصنع منها كرات السمك بعد شرائها مباشرة . وموعد البيع من الساعة السادسة بعد الظهر الى الساعة العاشرة مساء . ولكن فى الساعة ٩ تقريبا ينفد كل ما لدى ، فأحوال البيع عندى على ما يرام . وقوانين العمل عندى صارمة جدا ، والعمال ملتزمون بها خير التزام . ومستواهم الثقافى اعدادى وثانوى . ان محلى موثوق به فى

السوق الليلية فى دونغآنمن لأنه متفق مع جميع المطالب التى حددتها دوائر الفحص المعنية ، وانا اهتم بنوعية الطعام وسمعته . وبرغم ان اسعار المواد اللازمة لصنع حساء كرات السمك قد ارتفعت الآن ، ومن المفروض ان يرتفع سعر هذا الحساء ، لكنى لم ارفعه . يجب ان تكون وجبات الطعام الخفيفة رخيصة ولذيذة فى آن واحد . وانا اراعى اذواق الزبائن المختلفة ، فأعددت للزبائن من اهالى بكين الفلفل الاحمر وزيت السمسم والكزبرة والخل . واجعل نسبة الخل قليلة للزبائن من اهل قوانغدونغ وكثيرة بالنسبة لأهل شانشى . والجو لا يؤثر فى حجم البيع عندى ، فأنا ابيع ٢٠٠ سلطانية من هذا الحساء ولو كان الجو ماطرا . وفى الصيف القائظ يظل الناس مقبلين على حسائى دون خوف من التعرق . ودائما ما يساعدنى الزبائن فى انجاز الاعمال التحضيرية قبل بدء البيع ، واجد الزبائن قد سبقونى الى المكان ينتظروننى هناك .

السعادة الناتجة من المهنة

فى بداية اقامتى فى بكين كانت ظروف معيشتى صعبة للغاية ، ولا داعى لأن اذكر لك تلك المشقات المختلفة التى عانيت منها وانا استهل مهنتى من الصفر . فيكفينى ان اقول لك انه فى الوقت الحاضر ، وبعد مدة تزيد عن للسنة من مزاولة مهنتى ، ما زلت مشغولة من الصباح الى المساء ، لا اجد طعم الهدوء والراحة . وقد سالت دموع امى تألما على من شدة ما اعانى . وزوجى كان يعارض

مزاولتى لهذه المهنة فغضب على ، ولكنى فضلت خوض الكفاح تحديا للمشقات واصرارا على مزاولة هذه المهنة وحدى . وعلى الرغم من ان هذه المهنة متعبة ، لكنها مربحة ، وقد كسبت من خلالها ثقة الناس واحترامهم . فكف زوجى عن معارضتى ، بل انه لجأ بتشجيع من التطورات الجديدة للوضع الاقتصادى الى الاستقالة من وظيفته فى مصلحة البريد ، وجاء الى بكين ليزاول ايضا مهنة بيع حساء كرات السمك فى اول زقاق من حى دونغدان ، ويجرى البيع والشراء عنده على خير وجه بالمقارنة مع الباعة الآخرين هناك .

طموحاتى بسيطة جدا ، فأنا لا اسعى وراء الثروة الهائلة ، ولا افكر فى فتح مطعم كبير ، بل ابذل جهودى فى تقديم وجبات الطعام الخفيفة خدمة لعامة الشعب . وسأزيد بعض الانواع الاخرى من وجبات الطعام الخفيفة المشهورة فى مدينة ونتشو حتى يستطيع الزبائن تناول وجبة خفيفة مرضية لايتعدى ثمنها يوانا واحدا . وهذا هو هدفى فى المستقبل . وسأدبر شؤون اولادى الثلاثة تدبيرا جيدا بخصوص تعليمهم وعملهم ومستقبلهم كى اشعر بعدها بالطمأنينة ...

المطر ما يزال يهطل ، والبائعة شيوى شياو ينغ تتحدث معى ، وتقود العمال فى الوقت نفسه . كرات السمك تزداد اكثر فأكثر ، ورائحتها الذكية تنتشر فى كل جوانب المعمل . صحيح ان المطر يجلب لهم المتاعب ، لكنه لن يعوق بيع هذه الكرات من لحم السمك . وقد قالت لى شيوى شياو ينغ :

— لا يمكننى ان امتنع عن الذهاب اليوم ، والزبائن غير القليلين ينتظروننى هناك فى السوق الليلية في الموعد المحدد كالعادة .

وعندما حان الوقت لتوديعها جاءني زوجها الذى تبدو عليه الطيبة والاستقامة بسلطانية من حساء كرات السمك تكريما لى . ولم اكن راغبة فى الاكل فى البداية ، لكننى احببت ألا تفوتنى فرصة تذوق هذا الحساء الذى تفوح رائحته الذكية ، ولم اخش الا شيئا واحدا هو ان اصبح مدمنة هذا الحساء .

هناك صحفى كتب فى تقريره يقول : " ان مندوب محطة التلفزيون اليابانية فى بكين الذى سبق له ان صور المسلسل اليابانى « آشين » قد اعلن انه اكتشف فى بكين امرأة صينية على غرار المرأة اليابانية آشين ، وانه هو وزملاؤه يصورون الآن برنامجا تلفزيونيا خاصا حول مآثر شيوى شياو ينغ" .

اننا نتمنى للبائعة شيوى شياو ينغ ان تحافظ على مآثرها الى الابد .

وانغ داو شيانغ

ـ معلمة التلاميذ الاجانب فى مدرسة فانغتساودى ببكين

قوبل المعلمون والمعلمات الذين يعملون فى مدرسة فانغتساودى الابتدائية فى بكين بمدح وثناء من الاصدقاء الصغار الاجانب الذين يدرسون فى هذه المدرسة . ومن ضمن هؤلاء المعلمين والمعلمات السيدة وانغ داو شيانغ المعلمة المسؤولة عن الصف الاول للتلاميذ الاجانب .

التعليم التمهيدى

" ذات يوم ، نزل قرد من الجبل ، واتجه الى حقل من حقول الذرة الصفراء . ولاحظ ان ثمار الذرة كبيرة وكثيرة ، فسر بذلك سرورا بالغا ، وقطف شيئا من هذه الثمار ، ووضعه على كتفه ومضى فى سبيله . . . "

هذا الصوت الطفولى خرج من حجرة الدرس للصف الاول فى مدرسة فانغتساودى الابتدائية . وكان صوتا صينيا محضا ، لكنه لم يكن فى الواقع لطفل صينى وانما لطفل اجنبى قادم من دولة بنغلاديش ،



وانغ داو شيانغ

وهو يقرأ احد دروس اللغة الصينية قراءة مفعمة بالحيوية . ان كل من يسمع هذا الصوت من خارج حجرة الدرس لا يصدق ابدا ان هذا الصوت الصينى لطفل اجنبى . كان فى حجرة الدرس حينذاك المعلمة وانغ داو شيانغ تعطى درسا ، وتلاميذ الصف جميعهم اجانب . فبالاضافة الى ذلك التلميذ البنغالى هناك بضعة عشر تلميذا اجنبيا قادمون من الولايات المتحدة والسويد وسينغافوره وكوريا واليابان وبورما وتانزانيا وغيرها ، وكلهم يصغون بانتباه تام ، ويرفعون أيديهم بين حين وآخر ليجيبوا عن اسئلة المعلمة باللغة الصينية بكل طلاقة .

قبل سنة واحدة لم يكن هؤلاء الاطفال الاجانب قادرين على التكلم باللغة الصينية ولو كلمة واحدة ، فالمعلمة وانغ هى التى مكنتهم من تجاوز عقبات اللغة الصينية ، واصبحت اول معلمة لهم فى التعليم التمهيدى لدراسة اللغة الصينية .

فى اليوم الاول لافتتاح المدرسة علمت المعلمة وانغ هؤلاء الاطفال تأدية « اغنية اخذ الدرس » التى تقول كلماتها : " خلال الدرس تجلس مستقيما ، وتضع يديك على الركبتين ، وتنظر الى المعلم . واذا اردت التكلم ، ترفع يدك اولا ، ولا تتكلم الا بعد ان يسمح لك المعلم بذلك ، وترفع صوتك عند اجابتك عن السؤال ، وسيمدحك الآخرون بعد سماعهم جوابك . " واعتبارا من ذلك اليوم بدأ التقيد بالنظام الجيد فى الاستماع الى الدرس ، واخذ يسود الصف فى اثناء الدرس جو مفعم بالحيوية والنشاط .

وعند بداية تعليم التلاميذ الكتابة باللغة الصينية علمتهم المعلمة وانغ اغنية اخرى ألفتها هى « اغنية الكتابة » وتقول هذه الكلمات :

" عند الكتابة تجلس مستقيما ، ويكون كتفاك على مستوى واحد ، وتضم رجليك الى بعضهما بعضا ، وتسند الكراس بيدك اليسرى ، وتمسك القلم بيدك اليمنى ، ويكون البعد بين العينين والكراس مسافة قدم واحدة . " وكانت المعلمة وانغ تقوم خلال ادائها هذه الاغنية بحركات تمثيلية نموذجية ، وتكتب وترسم على السبورة . وبعد تدريبها للتلاميذ مدة اسبوعين حققت جهودها نتائج جيدة . فعندما اصبحت ترفع يدها ، يبدأ هؤلاء الاطفال الاجانب يغنون هذه الاغنية بصوت واحد مرتفع . وقد سرت سرورا كبيرا حين لاحظت تقدم تلاميذها .

وعند بداية التدريس اعطت المعلمة وانغ التلاميذ لغزين احدهما يقول : " الديك الاحمر ، ذيله اخضر ، رأسه يدفن تحت الارض " والآخر يقول : " ٧ اشقاء او ٨ ، يجلسون حول العمود وعندما يفارق بعضهم بعضا ، تتمزق ملابسهم " وكان التلاميذ يحدقون الى المعلمة بأعينهم مستغربين ، ويهزون رؤوسهم ، لا احد منهم يعرف الجواب ، فقالت لهم المعلمة وانغ ان الجواب على هذين اللغزين هو اسم نوعين من الخضار ، ويمكنكم ايها التلاميذ ان تحلوا هذين اللغزين بالاستعانة بآبائكم وامهاتكم واخبروني الجواب غدا . وفي اليوم التالي رفع التلاميذ ايديهم جميعا يريدون الاجابة ، فابتسمت المعلمة وانغ قائلة : انا اقول " واحد ، اثنين ، ثلاثة ! " وانتم تجيبون معا بصوت واحد . فعندما انتهت المعلمة من العد اجاب التلاميذ بصوت واحد : " الفجل الكبير والثوم الكبير " ، فوافقت على جوابهم مبتسمة ، وساد حجرة الدرس جو من الفرح .

وبفضل تعليم المعلمة وانغ بصبر واناة بدأ هؤلاء الاطفال الاجانب

يتكلمون اللغة الصينية ويكتبونها تدريجيا . انهم يتقدمون بسرعة فى هذا الجو المفرح والظروف الملائمة . وقد سرها بالغ السرور ان ترى تلاميذها الاجانب قد اصبحوا يفهمون كلامها باللغة الصينية ويتكلمون بها بطلاقة . ولكن العمل المضنى الذى تقوم به ليل نهار قد غير ملامحها الجميلة ، فتغضن وجهها وابيض صدغاها .

المسؤولية

تخرجت وانغ داو شيانغ فى المدرسة الاعدادية قبل ٣٠ عاما ، وتطوعت فور تخرجها للاشتراك فى العمل الجسمانى فى احدى المزارع بضواحى بكين . وبعد سنة تم توظيفها فى احدى المدارس الابتدائية فى حى تشاويانغ فى بكين ، حيث بدأت تعمل معلمة . انها تحب هذه المهنة ، ومن اجل معرفة احوال تلاميذها زارت بيت كل واحد منهم على التوالى . ولكونها لم تتلق التعليم فى مدرسة المعلمين فقد بادرت الى بذل المزيد من الجهود خلال ممارساتها التعليمية ، وقد استطاعت ان تتجاوز عددا غير قليل من المعلمين القدامى من حيث نتائج التعليم . وفى عام ١٩٥٩ اختيرت الفرقة التعليمية التى تعمل فيها جماعة متقدمة فى جبهة التعليم بمدينة بكين ، واختيرت هى عاملة متقدمة على مستوى مدينة بكين .

وهذا اللقب المشرف هو الذى عرضها لمعاناة الآلام فى " الثورة الثقافية " فكان عليها كلما عقد الاجتماع لنقد ودحض مدير المدرسة ان تصاحب المدير لتتعرض مثله للنقد والدحض . ومنذ ذلك الحين

كرهت ان تكون عاملة متقدمة . ولكن فى عام ١٩٨٧ اختيرت من جديد عاملة متقدمة فى حى تشاويانغ فى بكين ، فقالت : " لقد سلك الحزب الآن سياسة تشجيع المتقدمين ، وتم اختيارى عاملة متقدمة للمرة الثانية ، فأنا مطمئنة كل الاطمئنان . "

وفى عام ١٩٧٣ لقيت مدرسة فانغتساودى الابتدائية فى بكين عناية من رئيس مجلس الدولة الراحل شو ان لاى ، ففتحت من جديد صفا خاصا للتلاميذ الاجانب . وكلفت المدرسة المعلمة وانغ وعددا من المعلمين ذوى الخبرة الجيدة مسؤولية تعليم هذا الصف . وفى البداية ساور المعلمة وانغ بعض القلق ، وخافت من ان تخفق فى تعليم التلاميذ الاجانب . لكنها حققت فى الواقع نجاحات بارزة فى هذا المجال من خلال عملها الكدود المضنى وارتقت بهؤلاء الاطفال الاجانب الى صرح اللغة الصينية العظيم الذى يمثل حضارة امة من اعرق الامم ، وقوبلت بمحبة هؤلاء الاطفال الاجانب واحترامهم اذ كانت لهم معلمة ومرشدة واما رؤوما .

الحب المتبادل

منذ الدرس الاول فى صف التلاميذ الاجانب وجدت المعلمة وانغ هؤلاء الاطفال الاجانب محبوبين مثل بقية الاطفال الصينيين وراغبين فى طلب العلم ، ولم تجد اطلاقا ما يدعو الى القلق او التوتر . ورأت فى التحاقهم بالمدرسة الصينية دليلا على ثقة آبائهم وامهاتهم بالمعلمين الصينيين ، فلا بد من بذل الجهود العظيمة لتكون على

مستوى هذه الثقة وتؤدى مهمتها على خير وجه .

هؤلاء الاطفال قادمون من دول مختلفة الثقافات ، واساسهم الثقافى وما يحتاجون اليه من جهد فى التعليم متفاوت كذلك . فراعت المعلمة وانغ هذه الامور مراعاة تامة . فمثلا كان هناك والد تلميذ ايرانى يأمل ان يدرس ولده اللغة الصينية المنطوقة بصورة رئيسية ، فساعدت المعلمة وانغ هذا التلميذ الايرانى على رفع قدرته على المحادثة باللغة الصينية . والتلاميذ الافارقة يتعلمون اللغة الصينية بسرعة ، وينطقونها نطقا صحيحا ، ويستوعب بعضهم كثيرا من المعلومات عن الصين ، فأرشدتهم المعلمة وانغ الى بذل مزيد من الجهود لدراسة اللغة الانجليزية والرياضيات . وهناك تلاميذ لا يعرفون اللغة الصينية اطلاقا عند دخولهم المدرسة ، فلا يستطيعون السير مع غيرهم من تلاميذ الصف مباشرة . فساعدتهم المعلمة وانغ على انفراد ، مما مكنهم من اللحاق بمستوى الصف بأسرع ما يمكن .

ان المعلمة وانغ تحب تلاميذها كثيرا ، وهم يبادلونها هذا الحب ، فذات يوم طلبت المعلمة وانغ من تلاميذها فى الفصل ان يكونوا جملة حول كلمة " الجميع " ، فقال التلاميذ بصوت واحد من تلقاء انفسهم : " الجميع يحبون المعلمة . "

وبسبب القيود اللغوية لم يستطع هؤلاء التلاميذ الاجانب بعد ان يحسنوا التعبير باللغة الصينية عن محبتهم للمعلمين ، فيلجأون الى التعبير عن ذلك بطرق اخرى . فنظارة المعلمة وانغ وحقيبتها مثلا قد الصق عليهما التلاميذ كثيرا من قصاصات الزينة الجميلة المتنوعة .

وهناك تلميذ فليبينى يدعى آندرو ، يدرس الآن فى الصف السادس .

لقد ترك الصف الذى تعلمه المعلمة وانغ منذ زمن طويل ، لكنه اينما قابل المعلمة وانغ حياها بحماسة بالغة . عندما كان فى الصف الاول ارتكب خطأ ، فأدبته عن طريق الاقناع اللطيف ، مما جعله لاينساها ابدا .

وهناك تلاميذ عز عليهم ان يتركوا المدرسة ويفارقوا المعلمة وانغ لدى مغادرتهم الصين ، فعبروا عن حبهم وشكرهم للمعلمة وانغ بمختلف الوسائل . فقد جاءت تلميذة يابانية الى المدرسة مع والديها لاهداء المعلمة زجاجة عصير مغذية لأنها لاحظت ان المعلمة وانغ قد اصبحت نحيفة من كثرة ما تجهد نفسها فى تعليم تلاميذها ، وقالت انها تأمل ان يقوى جسم المعلمة بعد تناول هذا العصير . كما قامت تلميذة استرالية باهدائها باقة من الازهار تعبيرا عن حبها لها . واكتشف تلميذ فرنسى ذات مرة ان المعلمة وانغ تستخدم القفل فى ضرب الدبابيس لتثبيت بعض الورود الورقية على الحائط لمدح وتقدير التلاميذ ، فأهداها مطرقة صغيرة . يا لدقة الملاحظة لدى هذا التلميذ الفرنسى ! وعندما تسلمت المعلمة وانغ المطرقة الصغيرة احست بالدفء يملأ قلبها ، ولو لم تكن امام التلميذ لسالت دموعها من شدة الانفعال .

وهناك تلميذ من اليمن الديمقراطية يدعى هشام ، وهو تلميذ مؤدب عاقل قوى فى التعبير اللغوى ، ويعتبر احسن تلميذ لدى المعلمة وانغ . وقد فاز فى مباراة الخطابة على نطاق المدرسة بقصة حكاها بطريقة حيوية وقد تقرر ان يسافر الى بلاده ، فعز على المعلمة وانغ ان تفارقه ، وقبيل مغادرته المدرسة قال هشام للمعلمة وانغ خفية : " يا معلمتى وانغ ، والدى يعرف ٧ لغات بما فيها اللغة الصينية .

ويمكنه ان يؤدى كثيرا من الاعمال ، ويعمل كل يوم الى منتصف الليل . وانا مصمم على تملك ناصية اللغة الصينية لأكون انسانا نافعا للعالم مثل والدى . وانا سأصمم فى بلادى مبنى عظيما مثل قاعة الشعب الكبرى فى بكين ليزورها الشعب . "

ان المعلمة وانغ داو شيانغ تعرف جيدا ان هؤلاء التلاميذ سيغادرون يوما ما ، لكنها تأمل ان يكون جميعهم مثل التلميذ هشام عاقدين العزم على ان يصبحوا نافعين للعالم فى المستقبل .

لقد عملت المعلمة وانغ فى مدرسة فانغتساودى الابتدائية ١٥ سنة ، استقبلت خلالها دفعة اثر دفعة من التلاميذ الاجانب من مختلف دول العالم ومن مختلف الالوان والاجناس ، كما ودعت مجموعة اثر مجموعة من الاطفال الكبار . والآن ينتشر هؤلاء الاطفال فى اكثر من ٣٠ دولة فى القارات الخمس . ولكنهم لم ينسوا المعلمة وانغ التى علمتهم جميعا ومنحتهم الدفء على السواء على اختلاف اوطانهم . وتحتفظ المعلمة وانغ فى درجها بمجموعة من رسائل تلاميذها الاجانب من مختلف الدول . ومن بينها رسالة من طفلة فنلندية تدعى ايكا ، قالت فيها : " ايتها المعلمة وانغ ، انت طيبة القلب ، وقلبك ذهبى ، وانت جميلة كذلك ، واذا رأيتك اعانقك واقبلك . كنت معلمتى من الصف الاول الى الصف الثانى ، وحينما انتقلت الى الصف الثالث تبدلت المعلمة ، فبكيت من اجل ذلك ، وفكرت فى عدم مواصلة الدراسة . ولكن بعد ان مضت على ذلك عدة ايام وجدت ان المعلمة فى الصف الثالث طيبة مثلك ، فقبلت مواصلة الدراسة . انى احب جميع المعلمين والمعلمات فى مدرسة فانغتساودى

الابتدائية ، ولكن اطلب منك الا تعرضى هذه الرسالة على معلمة الصف الثالث حتى لا تشعر بالاسى . "

ان هذه التلميذة الفنلندية ايكا تشتاق الى معلمتها وانغ ، والمعلمة وانغ تفكر فى تلميذتها هذه دائما كذلك . وقد نصحت المعلمة وانغ التلاميذ فى الصف بأن يحتفظوا جيدا بالكرة التى قدمتها ايكا هدية الى الصف ، وألا ينسوا الاصدقاء القدامى ، اذ قالت ايكا : " اذا ذهبت الى مكان جديد ، وتعرفت على اصدقاء جدد ، فعليك ألا تنسى الاصدقاء القدامى ، ذلك لأن الاصدقاء الجدد من الفضة بينما الاصدقاء القدامى من الذهب . "

وعندما تشتاق المعلمة وانغ الى تلاميذها القدامى فى اوقات فراغها من التدريس او العمل ، تخرج ألبومين كبيرين مملوءين بالصور وتشاهدهما صفحة صفحة ، وتستعرض ذكريات الماضى مع اولئك التلاميذ واحدا واحدا وتحدثهم عن حاضرهم ومستقبلهم ، فتشعر اذذاك بسعادة غامرة .

الجهود الكبيرة

ان هؤلاء التلاميذ الاجانب يفهمون ما فى قلب المعلمة وانغ ، ولكنهم ما زالوا لايعرفون جيدا ما بذلته من الجهود الكبيرة والاعمال المضنية .

قبل سنة واحدة كانت المعلمة وانغ لاتزال تسكن فى ضواحى بكين الغربية ، وبيتها عبارة عن حجرة واحدة فى مبنى قديم الطراز ،

سكنت فيه قرابة ٣٠ عاما . كان عليها ان تغادر البيت فى الساعة الخامسة صباحا كل يوم الى مدرستها الواقعة فى ضواحى بكين الشرقية . وترجع الى البيت فى الساعة الثامنة مساء . وفى البيت عليها ان تحضر الدروس لليوم التالى ، وان تعد الطعام لولديها الصغيرين لليوم الثانى ، فلا تجد وقتا كافيا لرعاية ولديها واداء الشؤون المنزلية . وكان زوجها فى ذلك الحين يعمل خارج بكين ، فاضطرت الى ترك الولدين يعتمدان على نفسيهما برغم صغر سنهما . وذات مرة لم ترجع الى البيت مساء ، الا بعد الساعة التاسعة ، فعند وصولها الى البيت وجدت احد ولديها نائما دون ان يتناول العشاء والآخر يبكى ، وامامه وعاء قد تفحم فيه الخبز . فشعرت بتأنيب الضمير لتقصيرها فى رعايتهما ، وانتابها ألم شديد . وعندما اصيبت بمرض القلب والارهاق العصبى لفرط تعبها ساورها الحزن والهم ، ولكنها لما خطر على بالها ان اولئك التلاميذ الاجانب المحبوبين ينتظرونها بلهفة لتدرسهم نسيت حزنها وهمها . ان من الصعب عليها مفارقة هؤلاء التلاميذ ، اذ تشعر انهم هم الذين يمدونها بالمواساة ويشجعونها على تذليل الصعوبات . ولقد تجاوزت على اية حال تلك الايام الاكثر مشقة وصعوبة .

والآن تحسنت ظروف المعلمة وانغ داو شيانغ كثيرا . فزوجها قد انتقل من موقع عمله السابق فى ضواحى بكين البعيدة الى مصنع بكين للادوية على مقربة من مدرستها . وابنها الاكبر بدأ يعمل ، ويدرس حاليا فى الجامعة التلفزيونية فى اوقات فراغه من العمل . وابنها الاصغر يعمل سائقا فى شركة الترولى باص فى بكين . وفى مايو من هذا العام انتقلت المعلمة وانغ الى مسكن جديد — شقة مكونة من

حجرتين فى عمارة سكنية بنتها حكومة حى تشاويانغ للمعلمين خصوصا ، وابنها الاكبر يسكن الآن مع زوجته فى المسكن القديم . وبذلك حلت مشكلة سكنها . ومسكنها الجديد يبعد عن المدرسة ١٥ دقيقة بالدراجة .

انها لتشكر الحكومة بالغ الشكر على عنايتها باسكانها ، وهى تعرف ان مشكلة الاسكان لاتزال باقية دون حل بالنسبة لبعض المعلمين المسنين الآخرين .

الاحزان والافراح والتطلعات

في قلب كل واحدة منهن معزوفة. لم تكن الاحزان والافراح والآلام والدموع نغمة رئيسية لحياتهن .

انهن بروح دعم الذات والاعتماد على النفس يتطلعن الى المستقبل والنور . . .

ابنة المارشال

ـ الكاتبة خه جيه شنغ

على الخزانة الراقدة بقاعة الاستقبال فى بيت خه جيه شنغ صورة للمارشال خه لونغ ـ القائد العسكرى الذائع الصيت فى تاريخ الصين الحديث ، مأخوذة زمن الحملة الشمالية (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) وهو فى زيه للعسكرى الخاص بجيش الحملة الشمالية ، يتدفق قوة وجرأة . وعلى الحائط فوق الخزانة علقت صورة للسيدة جيان شيان رن فى الزى العسكرى للرمادى اللون الخاص بالجيش الاحمر ، وفى حضنها طفلة هى خه جيه شنغ . وهاتان الصورتان تدلان على العلاقة العائلية الطبيعية بينهم ...

التسمية

فى نوفمبر ١٩٣٤ وقبيل بدء المسيرة الكبرى للجيش الاحمر الصينى المشهورة فى العالم كله ، نظم خه لونغ القائد العام لجيش الجبهة الثانية للجيش الاحمر حينذاك معركة ناجحة فى الجبهة الامامية . وما ان انتهت المعركة حتى استعلم خه لونغ عن حالة زوجته الحبلى

فى المؤخرة ليعرف اوضعت ام لا . وقد تجاوز خه لونغ فى ذلك الوقت الاربعين من عمره ، ولم يكن لديه اولاد ، اذ مات ولداه جوعا ومرضا فى اثناء المعارك الحربية هنا وهناك .

فأرسل الجنرال وانغ تشن برقية من المؤخرة تقول : نهنئك ايها القائد العام خه ، فقد وضعت زوجتك بنتا . واطلق الجنرال شياو كه على الوليدة اسم جيه شنغ (معناه فى اللغة الصينية ولدت يوم النصر) تخليدا لذكرى هذه المعركة التى تحقق فيها النصر وتطلعا الى المستقبل الجميل الذى يأتى بعد يوم النصر النهائى .

لقد اصبحت الوليدة فردا من افراد الجيش الاحمر فى طريق مسيرته الكبرى ، ولم تجاوز شهرا واحدا من عمرها بعد . كانت امها تحملها فى سلة بيضوية الشكل من الخيزران ، وتسير بها خطوة خطوة فى بداية طريق المسيرة الكبرى نحو الشمال . وذات مرة عند اختراق خط الحصار ليلا كاد صوت بكاء الوليدة يوقظ العدو ، مما يؤدى الى خسائر فادحة ، فاضطرت امها الى اتخاذ اجراءات استثنائية وكادت تخنقها فى داخل السلة . وتخليدا لذكرى اجتياز هذه المسافة الشاقة التى لايمكن نسيانها اخذت للام صورة وهى تحمل وليدتها فى السلة .

لقد سبق للام ان بادرت الى القفز والجرى قبل وضعها محاولة تعجيل الوضع لتجنب المولود مشقة المسيرة الكبرى التى كانت على وشك الابتداء . . . فما العمل الآن ؟ كانت الام المرضعة تتناول قشور الاشجار وجذور الاعشاب ، فمن اين يأتيها حليب ترضع به طفلتها ؟ فاضطرت الام الى تركها بعهدة امرأة من عامة الشعب

لتقوم بتربيتها . وفى نهاية عام ١٩٣٥ وصل الجيش الاحمر الى شمال مقاطعة شنشى مؤذنا بانتهاء المسيرة الكبرى ، فتم نقل الطفلة الى يانآن ، وكانت يومها نحيفة مصفرة الوجه محدودبة الظهر لا تعرف المشى ، فخصص لها احد القادة غنمة حلوبا فعادت اليها الصحة .

عندما استعرضت خه جيه شنغ حياتها فى هذه الفترة قالت :

ـ فى يانآن كانت امى تخوض المعارك مع القوات المسلحة ، فلا تقيم فى مكان ثابت ، بل تتنقل مع القوات من مكان الى آخر . لذلك اودعتنى فى بيت احد القرويين ، وطلبت من افراده ان يراعونى ، فكنت اربط بحبل على الفراش مثل الغنم . فاذا كان الحبل طويلا التف حول رجلى ، واذا كان قصيرا التف حول عنقى . وذات مرة رأى والدى هذه الحالة فتألم . وكتب العم رن بى شى احد قادة لجنة الحزب المركزية تقريرا بذلك الى الرئيس ماو تسى تونغ ، فكلف لجنة الحزب المركزية بنقلى بعد ذلك الى الجبهة الامامية لأعيش الى جانب ابى . وقد عشت معه مدة تزيد عن السنة فى محبة بالغة . ولكن هذا العيش يستحيل استمراره لأن المعارك الحربية فى ذلك الحين شاقة مريرة ، وكبار القاعدة يضطلعون بمهام متعلقة بمصير الشعب الصينى كله ، فمن غير الممكن ان يجدوا وقتا لرعاية اولادهم لذلك كلف والدى صديقا قديما بنقلى الى موطننا القديم فى غربى مقاطعة هونان . واذكر يومها اننى بكيت كثيرا لعدم رضائى بمفارقة امى وابى . كانت صورة ابى فى ذهنى تمثل صورة بطل اسطورى يمتطى حصانا ابيض ، وما تزال هذه الصورة ماثلة فى مخيلتى . كانت حياة التشرد هذه فى ايام طفولتى مزيجا من الشقاء والبؤس والحرمان الى

حد لا يطاق » وبعد وفاة ابى " بالتربية " – صديق ابى ، عمدت زوجته الى تعذيبى بكل وسيلة ممكنة تعبيرا عن حقدها المتزايد على ، وكادت تقدمنى الى احدى العائلات لأعمل هناك خادمة . وذات مرة طلبت منى ان احمل فتاة من عائلة غنية واعبر بها بركة ماء ، وهذه الفتاة من سنى واطول منى قامة . فكان من الصعب جدا على ان احملها ».

لقد استمرت معاناتى المملؤة بالمشقات والدموع لغاية عام ١٩٤٩ ، ففى اثناء زحف جيش التحرير نحو الجنوب عرفت والدتى مكان اقامتى ، فخلصت بذلك من حياة البؤس والتشرد ، وعمرى يومها ١٤ عاما . لقد كانت طفولتى خالية من كل فرح ودفء وطمأنينة ، كما كانت مشحونة بالشوق والحنين ».

ان خه جيه شنغ فى الخمسين من عمرها اليوم ، وصفاتها المميزة هى الصراحة والصلابة والرصانة والوقار ، وهذه الصفات جميعها نابعة من حياتها ايام طفولتها ومن موروثاتها الثقافية والتربوية .

ايام الشباب

التحقت خه جيه شنغ بالجيش عام ١٩٥٠ عندما بلغت الخامسة عشرة . وبدأت حياتها فى الجيش مثل والديها . وبعد ذلك بخمس سنوات التحقت بجامعة بكين . ان ايام الشباب ذات ألوان مختلفة ، وتعتبر من اجمل فترات العمر . وكانت خه جيه شنغ تساورها احلام كثيرة وتتطلع الى ان تكون كاتبة ، ولكنها دخلت

كلية التاريخ . وقد رأت انها لن تكون مؤرخة ، لذلك ظلت تأمل ان تصبح كاتبة فى المستقبل . وكانت درجاتها فى المواد الدراسية المحببة اليها ممتازة ، وفى المواد الاخرى جيدة او مقبولة . فقال بعض زملائها ان موقفها من الدراسة غير سليم ، ولكن من يدرى ان الصعوبات التى واجهتها فى دراسة التاريخ كبيرة لا يمكن تذليلها الا بعزم وتصميم قوى .

وقبل التخرج بشهر اصيبت خه جيه شنغ بالانفلونزا ، واقامت فى المستشفى للعلاج ، فتعرفت هناك على معيد موهوب فى كلية الاقتصاد بجامعة بكين ، وتحابا بعد ذلك . وعند التخرج تطوعت خه جيه شنغ للذهاب بكل حزم وعزم الى مقاطعة تشينغهاى فى شمال غربى الصين للاسهام فى تنمية المناطق الحدودية المتأخرة اقتصاديا وثقافيا ، ووافق على ذلك صديقها المعيد ، وذهبا سويا الى تشينغهاى ، وتزوجا هنالك ورزقا بثلاث بنات .

كانت ظروف الحياة فى تشينغهاى شاقة جدا ، فالمرء هناك يجد صعوبة فى الحصول على الماء . وذات مرة خرجت خه جيه شنغ للبحث عن الماء ، فلم تجد ذلك الجدول الصغير الا بعد ان سارت على قدميها اكثر من كيلومترين . ولكنها لم تتقهقر امام الصعوبات ، ذلك لأنها ذهبت الى هناك عن طواعية واختيار ، وقالت فى نفسها : انى مصممة على ان اعمل وفقا لما يتمناه الوالدان . وهما من اصحاب الفضل فى الدولة ، ولكونى ابنتهما فلا يجوز ان اعيش متطفلة عليهما . ان الدوحة قدوة للشجرة الصغيرة ، والشجرة الصغيرة موضع امل الدوحة .

خلال البضعة عشر عاما تطورت تطلعات خه جيه شنغ للحياة

من الغموض الى الوضوح ، وتطور اختيارها للاعمال المنشودة من تصورات الى وقائع . وقد مرت بكثير من الآمال وخيبات الامل والنجاحات والاخفاقات والاتراح والافراح ، لكن هذه كلها ذابت اليوم جميعا وتحولت الى قوة جبارة .

بعد وصولها الى مدينة شينينغ حاضرة مقاطعة تشينغهاى عينت فى القسم الجامعى لمعهد القوميات بمقاطعة تشينغهاى ، وعملت معلمة فى كلية التاريخ . كان المعهد من حيث تسميته على مستوى الجامعة ، لكن ظروفه فى الواقع بائسة للغاية . فسوره مرصوف باللبن وحجرات الدرس مجرد خيم ، والاسرة مبنية باللبن ، والطعام فى غاية البساطة ، والانارة بمصابيح الكيروسين . تغاضت خه جيه شنغ عن هذا كله ، وانتظرت اول درس ستقوم باعطائه بعد قدومها الى المناطق النائية .

وفى اول لقاء لها مع الطلبة عرفهم الاستاذ يانغ بالمعلمة خه جيه شنغ ، فقال بلهجة تقدير واعجاب : " المعلمة خه جيه شنغ قادمة من بكين . لقد تخلت عن الحياة المريحة فى المدينة الكبرى وتطوعت للعمل فى المناطق النائية للاسهام فى تنميتها ، وبادرت تلقائيا الى العمل فى معهدنا . " وعندها تحولت انظار الطلبة من استغراب الى اجلال ، واعجبوا كل الاعجاب بهذه الفتاة التى تبدو ضعيفة الجسم لكنها قوية العزم .

انها قصيرة القامة حتى ان يدها لا تصل الى اكثر من وسط السبورة ، لكنها مبجلة محترمة محبوبة من جميع الطلبة لما عهدوه فيها من دقة وجدية وصرامة فى عملها وموهبة وسعة فى المعلومات وعمق

فى التفكير .

تسير خه جيه شنغ بخطى واسعة فى طريق الحياة الوعر الذى اختارته لنفسها . لقد تذوقت مختلف ألوان الحياة فازداد صدرها رحابة واتساعا .

لم تكن مقاطعة تشينغهاى فى ذلك الحين تشكل اكتفاء ذاتيا فى الحبوب الغذائية . فحين تعرض البلاد كلها للصعوبات الاقتصادية ، حدثت فى تشينغهاى مجاعة . وكانت خه جيه شنغ تحصل شهريا على ٧ر٥ كغ من الحبوب الغذائية وربع كغ من زيت الطعام ، وليس هناك اى تموين آخر . حتى ان الاهالى كانوا لا يجدون ملح الطعام فى بعض الاحيان . واصيب عدد غير قليل من الناس بمرض التورم ، ومن ضمنهم خه جيه شنغ ، فازداد جسمها ضعفا . فقامت بنفسها بزراعة الخضار وجمع الاسمدة الطبيعية من اجل ذلك ، كما جمعت بنفسها الحطب لطبخ ما يسمى باللحم الاصطناعى لتخفيف الجوع عن طلبتها . ووفرت بالاضافة الى ذلك مقدارا من حبوبها الغذائية كل شهر دعما منها لاولئك الطلبة الذكور ذوى القامة الطويلة والجسم الضخم .

وفى تلك السنوات من نقص الحبوب الغذائية نقصا شديدا حملت خه جيه شنغ ، واصابها الوهن ، حتى انها كانت تسقط عند المنبر مغشيا عليها فى بعض الاحيان . وواظبت على الاشتراك فى العمل فى الحقول الزراعية برغم ضعف جسمها . ومع كل هذه الصعاب لم تشتك فى اية رسالة الى ابيها المقيم فى بكين ولم تطلب منه اى مدد فى الغذاء .

كان ابوها المارشال خه لونغ نائب رئيس مجلس الدولة للحكومة المركزية يشتاق الى ابنته المحبوبة ، ويعرف انها فى غاية الضعف ، ومن غير المناسب ان تذهب الى تشينغهاى للاسهام فى تنميتها . وكان يرغب فى ان يبقيها الى جانبه فى بكين ، لكن كيف لا يؤيد طموح ابنته فى ذهابها الى المناطق النائية ، وهو احد قادة الدولة ؟ انه بقلب اب رحيم يشتاق اليها دائما . وذات مرة قابل فى احد الاجتماعات المنعقدة فى بكين رئيس مقاطعة تشينغهاى ، فتحدث معه عن ابنته على نحو لاارادى ، فقال : " ابنتى حامل على وشك الوضع ، وقد اقترحت عليها ان تعود الى بكين ، لكنها رفضت اقتراحى ، وجسمها ضعيف جدا ، فأرجو منكم مراعاتها وهى عندكم فى تشينغهاى . انى لا اخشى عليها من المشقات ، ولكن اخشى ان يقع لها حادث خطير . " وكان رئيس مقاطعة تشينغهاى على غير علم بذلك . فبعد عودته الى المقاطعة اسرع الى الاستعلام عن مكان نزول خه جيه شنغ . لكن لم يكن احد فى المقاطعة كلها يعرف ان خه جيه شنغ هى ابنة المارشال خه لونغ .

مرضت خه جيه شنغ ، وبعد شفائها عادت الى بكين لمقابلة ابيها . وما ان رأته حتى ألقت برأسها على صدره ، فهدأها ابوها وقال لها فى انفعال : " لقد هزلت واسود لونك من كثرة ما عانيت من الآلام والمشقات . " كانت خه جيه شنغ شديدة الشوق والحنين الى والديها والى بكين ، لكنها لم تر من المناسب ان تغادر مقاطعة تشينغهاى فى سنوات المجاعة ، بل عليها ان تبقى هناك بكل حزم وثبات . وقالت لأبيها بصوت منخفض : " لا بد ان اعود الى تشينغهاى ،

اعود الى المناطق الحدودية النائية " .

عملت خه جيه شنغ فى مقاطعة تشينغهاى خمس سنوات من اثمن سنوات شبابها فى صمت ونكران للذات . عملت هناك لتشرف بذلك والديها ولتهب الوطن والشعب حبها الفياض مثلما فعلا . وخلال تلك السنوات الخمس ادركت مغزى حياة الانسان والمعنى الحقيقى للكفاح ، وتذوقت السعادة الكامنة فى خوض النضال الشاق .

معاناة المحن

كانت خه جيه شنغ بصفتها ابنة المارشال خه لونغ احد مؤسسى الدولة تستحق ان تعيش حياة هادئة سعيدة ، لكنها لم تكتف بما عانته من آلام التشرد ايام طفولتها ، بل قضت ايام شبابها فى معاناة ، وتعرضت لمحن جديدة هى محن الدموع والآلام .

انفصلت خه جيه شنغ عن زوجها لعدة اسباب ، من ضمنها انها لم تجد فى بيته الاحترام والعناية والمعاملة العادلة . والد زوجها مريض ومجنون ، وزوجها وامه كلاهما يزدريانها . وراتبها تقدمه بكامله الى ام زوجها ، فلا تعطيها منه ولو مصروف الجيب لأنها لم تلد لها حفيدا ، وهى تتمنى من وقت طويل ان تصبح جدة . وعند الاحتفال بمرور شهر كامل على ميلاد الحفيدة قدمت اليها حماتها البيض المبارك المطلى باللون الاحمر والابيض ، وقالت لها : " ان البيض المطلى كليا باللون الاحمر يقدم لمن ولدت ابنا . فاتمنى ان اقدم لك فى المرة القادمة بيضا مطليا كله باللون الاحمر . " وهذا

الكلام اللاذع آلمها اشد الالم . ان الرجل والمرأة على قدم المساواة ، لكن المفاهيم التقليدية الاقطاعية ، بما فيها فكرة تفضيل الرجل على المرأة ، تسيطر على هذه الاسرة . ان خه جيه شنغ طيبة هادئة صادقة مخلصة وعاقلة فى نفس الوقت . فبعد ان عادت تفكر فى الموضوع بترو عقدت العزم على اختيار طريقها حتى لا تظل خاضعة للايديولوجية الاقطاعية فى هذه الاسرة ، وان تصبح امرأة مستقلة ذات سيادة وتتخلص من الاذلال والتعذيب الروحى . فانفصلت عن زوجها وخرجت من هذه الاسرة مع بناتها الثلاث جميعا .

وفى عام ١٩٦٦ اندلعت "الثورة الثقافية" التى دامت ١٠ سنوات . وكان المارشال خه لونغ احد ضحاياها الاوائل الذين تعرضوا للنقد والدحض والفحص السياسى . وقد توفى فى يونيو ١٩٦٩ خلال هذا الفحص السياسى . ونظرا الى ان خه جيه شنغ ابنته ، فقد تعرضت كذلك للفحص السياسى مدة ٥ سنوات . وخلال هذه المدة لم تكن تتقاضى الا ٣٩٫٥ يوانا مصروف معيشة . وبمثل هذا المبلغ الزهيد لا يمكنها على الاطلاق اعالة ٤ انفار ، بل بلغ بها الفقر حدا انها لم تجد معه نقودا لشراء المزيد من حساء الارز . وكان أن اقترح عليها ارسال واحدة من بناتها الثلاث الى والدها فهى على اى حال ابنة له ، والا فكيف تعيش مع ٣ بنات ؟ ولم تجد خه جيه شنغ طريقة اخرى ، فكتبت الى والد البنات الثلاث الذى كان يعمل فى مدينة تيانجين ، وعرضت عليه فكرة ارسال احدى البنات اليه ، فقبل بذلك . ولكن هذه البنت لم تتعود الحياة فى عائلة ابيها ولم تجد المحبة من زوجة ابيها ، فتأذت كثيرا . واشتاقت الى امها ، ولكنها



خه جيه شنغ مع ابنتها

لم تستطع البوح بذلك ، فهى تعرف ان العودة الى جانب امها امر مستحيل . وحين اشتد شوق خه جيه شنغ الى ابنتها ارسلت ابنتها الكبرى الى تيانجين لرؤية ابنتها الثانية نيابة عنها . وفى احدى المناسبات ذكرت الابنة الثانية فكرة العودة الى بكين ، فعقدت خه جيه شنغ العزم على اعادة ابنتها الى بكين برغم ما ستعانيه من مشقات . وفى تلك الفترة كانت خه جيه شنغ خاضعة للفحص السياسى ، فلا تملك حرية التصرف بشؤونها الا بعد استئذان الجهة المعنية . ومن اجل ارجاع ابنتها من تيانجين الى بكين لا بد لها من الاستئذان . وكانت العملية طويلة ومعقدة ، تحتاج الى التصديق هنا وهناك ، وبعد انجاز التصديق تحتاج الى شهادة رسمية من مقاطعة تشينغهاى من اجل تحويل بطاقة اقامتها الدائمة فى تيانجين الى بكين ، وهكذا تأجل

الامر كثيرا ، وكانت ابنتها على وشك الاشتراك فى امتحان القبول فى المدرسة المتوسطة ، فلا يسمح لها بالانتقال من مدارس تيانجين الى مدارس بكين من دون بطاقة اقامة دائمة فى بكين ، ولكن تحويل بطاقة الاقامة يتوقف على شهادة لم تحصل عليها بعد . عندها رأت هذه البنت ان الامل فى عودتها الى جانب امها ضئيل فيئست ، وانتحرت شنقا .

عندما كانت خه جيه شنغ فى السادسة عشرة من عمرها تسلمت رسالة غرامية صادقة ، ولكن للاسف ان كاتب الرسالة اكبر منها بقرابة ٢٠ عاما . وهذا التفاوت فى السن غير مناسب للزواج فى الصين ، ناهيك عن عدم تعرفيهما على بعضهما بعضا ، فكان الحب من جانب واحد . وعندما عرف خه لونغ هذا الامر كلف سكرتيره بكتابة رسالة رد الى ذلك الشاب صاحب الرسالة ، جاء فيها " ان خه جيه شنغ لم تبلغ سن الرشد بعد ، فمن فضلك ابحث عن فتاة اخرى تخطبها " ولكن هذا الشاب عبر عن عزمه على الانتظار حتى تبلغ خه جيه شنغ الثامنة عشرة (سن الزواج المشروع قانونيا فى الصين) . والتزم بوعده التزاما دقيقا ، اذ ظل ينتظر ٣ سنوات . وفى عام التحاق خه جيه شنغ بالجامعة جاء اليها ، ولكنه لم يلق منها سوى الاحترام العادى ، فلم يجد بدا من الانسحاب من هذه " المعركة " .

وخلال " الثورة الثقافية " مرت خه جيه شنغ فى محنة شديدة لا مخرج منها . فجاءها هذا الشاب الذى لم يتزوج بعد ، حاملا معه الحب العميق والالتماس الصادق والعطف والشفقة ، مؤثرا العيش فى شقاوة مع خه جيه شنغ ليجتاز بها المحنة بقوتهما المشتركة .

وكان التماسا صادقا جريئا . لذلك قامت خه جيه شنغ بعد موافقة والدتها بتسجيل زواجها من هذا الشاب وحصلا على وثيقة الزواج . ولكن شمعة زواجهما لم تشعل ، ذلك لأن الزوابع الشريرة الناجمة عن " الثورة الثقافية " عصفت به الى مكان بعيد عن بكين ليخضع للفحص السياسى وتحرى علاقاته بالمارشال خه لونغ .

والتقيا معا بعد ٥ سنوات ، ولكن هذا اللقاء كان فى جو مؤلم مميت . ما ان استعادت خه جيه شنغ حريتها حتى توجهت الى حيث زوجها للقاء هذا الزوج الذى لم يتزوجها بعد . لكنها وجدته مريضا طريح الفراش منذ وقت طويل ، وقد اشرف على الهلاك . فنبهه شخص بجانب فراشه صائحا : " انظر يا اخى ، من جاءت . . . " فتح عينيه ورأى التى ظل يشتاق اليها طيلة عمره ، فأخذت يده ، والدموع تترقرق فى عينيها ، بينما راح يومئ برأسه ببطء تحية لها ، اذ كان عاجزا عن الكلام . لازمته خه جيه شنغ مدة تزيد عن الشهر ، وعادت الى بكين بعلبة فيها رماد جثته .

لكم عانت خه جيه شنغ من الآلام والمحن ، وهى ابنة المارشال خه لونغ ، لذلك تكتسب قصتها مزيدا من الجاذبية ، وتبدو آلامها ومحنها اقرب الى الاسطورة .

خوض النضال

فى اكتوبر ١٩٧٥ كتبت خه جيه شنغ تقريرا الى الرئيس ماو تسى تونغ طالبة البحث عن جثة ابيها واقامة مراسم الدفن بعد فوات

الاوان واعلان وفاته على الشعب . فاتخذت لجنة الحزب المركزية قرارا برد الاعتبار لخه لونغ . ولكن " عصابة الاربعة " المتربعة على المناصب الهامة للحزب والدولة حينذاك اعاقت تنفيذ هذا القرار . وتلقت خه جيه شنغ اخطارا باقامة مراسم تسليمها العلبة المحتوية على رماد جثته " من دون كلمة تأبين او وضع اكاليل ازهار او القيام بأية مراسم جنائزية ، ومن دون اعلان اى خبر عن ذلك . " فعبرت خه جيه شنغ عن رفضها الاشتراك فى مثل هذه المراسم . وكان رئيس مجلس الدولة شو ان لاى يقيم فى المستشفى بعد ان اشتد عليه مرضه ، فقال لها هاتفيا : عليك ان تضعى الوضع العام فى المقام الاول ، ولا بد ان تشتركى فى المراسم . وقرر هو كذلك الاشتراك فى هذه المراسم برغم مرضه الشديد والقاء كلمة التأبين بنفسه . ويوم اجراء المراسم كان رئيس مجلس الدولة شو فى انفعال بالغ ، اذ تذكر ما بينه وبين خه لونغ من محبة وصداقة استمرتا ٥٠ عاما ، لذلك غمره الأسى العميق فى ذكرى الفقيد .

وفى عام ١٩٧٥ كانت " عصابة الاربعة " تعيث فسادا فى كافة انحاء الصين ، فخيم على كثير من الوحدات جو " الارهاب" . وكانت خه جيه شنغ تضع فى جيبها باستمرار قداحة وعلبة سجائر . كما خاطت جيبا قماشيا ظل يلازمها على الدوام ، وبداخله وثائق سرية هامة . اما القداحة فمن اجل استخدامها فى اية لحظة طارئة فى احراق هذه الوثائق المخبأة داخل جيبها ، واما علبة السجائر فلمجرد التمويه .

ترى ، ما هذه الوثائق الهامة ؟ كانت خه جيه شنغ تقوم بتوكيل

من رفاق قياديين فى قيادة الحزب العليا ، بجمع وتنظيم الوثائق المتعلقة بجرائم جيانغ تشينغ وجماعتها فى مجال الادب والفن . وقد قامت باتصالات مع عدة اصدقاء موثوق بهم فى مجال الادب والفن مثل فان تسنغ وتشانغ شيه وباى هوا وهان هان وغيرهم من الادباء المستقيمين . وقد اصبح هؤلاء اصدقاء حميمين عبر التقلبات السياسية . وكلهم من المثقفين البائسين ، ولكنهم يحملون فى صدورهم عقيدة سامية ، ويتحلون بالروح الجريئة . وكانت خه جيه شنغ الضعيفة الجسم تسعى معهم هنا وهناك ، وتسهر مثلهم ولكنها احسن منهم قليلا من الناحية الاقتصادية ، فقد كان لديها قدرة مالية على شراء الخبز والحلويات لتكون وجبات خفيفة فى الليل .

نجمة جديدة

بعد اسقاط " عصابة الاربعة " حل فى البلاد عهد جديد ، فطرأت بذلك تغيرات على خه جيه شنغ . فقد كونت لنفسها عائلة جديدة ، وزوجها من ابناء موطنها فى غربى مقاطعة هونان وكادر خاض حرب المقاومة ضد العدوان اليابانى وعسكرى واسع الثقافة والمعرفة . وفى هذا العهد المزدهر اخذ اولئك الذين كانوا يناضلون معها فى تلك السنوات الماضية ويعانون مثلها يتحولون الى نجوم جديدة فى مجال الادب واحدا بعد الآخر . وبذلت خه جيه شنغ اقصى جهدها للحاق بهم . والى جانب انجاز مهمتها الرسمية فى اعمال التحرير ، بدأت تمارس الابداع الادبي الذي كانت تتطلع اليه منذ سنوات طويلة .

وخلال مدة غير طويلة كتبت عددا غير قليل من الاعمال الادبية ، من ضمنها السيناريو الادبي السينمائي « زقزقات الطيور مع خفيف اوراق الصفصاف» و« القمر الغارب» ، ومن ضمنها ايضا بعض التحقيقات الصحفية مثل « تسجيل الوقائع الخاصة بابادة المجرمين » و« معزوفة الشباب الطليعيين » و« مع السلامة » . وقد اثار فيلم « القمر الغارب» صدى قويا فى المجتمع وتفكيرا عميقا لدى الناس ، علما ان مسودة هذا السيناريو قد وضعتها خه جيه شنغ فى عشرة ايام فقط . وقد استوحت مضمون هذا السيناريو من بعض معاناتها الشخصية . وقالت خه جيه شنغ : " احاول ان اظهر ارواح الناس من خلال هذا السيناريو حتى يصبح الجميع متحابين كأنهم افراد اسرة واحدة " . وفى الوقت الحاضر تختمر فى ذهنها حبكات اعمال جديدة أخرى .

لقد قضت خه جيه شنغ منذ اشتراكها فى المسيرة الكبرى ، وهى وليدة فى السلة ، نصف قرن كامل . انها تعيش واقع الحياة ، وباعتبارها مثقفة تساورها احلام كثيرة . وقد مرت فى كثير من الاحزان والافراح . ولقد كتبت فى احد اعمالها تقول :

ـ الحياة سعيدة ، ولكن الحياة السعيدة تكون دائما ملكا لاولئك الذين يجرؤون على التقدم الى الامام باستمرار ، ويكافحون ببسالة من اجل التجديد .

ان ما نالته خه جيه شنغ اليوم قد عانت من اجله احزانا وآلاما لا يتصورها العقل . وان تجارب حياتها لتعتبر رواية وثائقية . فما القوة الدافعة لتطور هذه الرواية اذن ؟ قال بعضهم بأن معرفة تجارب

حياة المرء ومعرفة قصصه امر سهل جدا ، ولكن معرفة تعبيرات المرء عن بقائه فى هذه الدنيا ومعرفة قوته الداخلية امر صعب للغاية . فما هى القوة الداخلية لدى خه جيه شنغ ؟ ان هذين السؤالين لا يمكن الرد عليهما بسهولة .

" الحب البجعى "

– بين ممثلة الباليه تشو مى لى وزوجها

تشو مى لى ممثلة فى فرقة الباليه فى شانغهاى ، تخرجت فى مدرسة الباليه فى شانغهاى عام ١٩٦٦ ، وسبق لها ان لعبت دور اوجيتا فى « بحيرة البجع » ودور وو تشيونغ هوا فى « فصيلة النساء الحمراء » . والآن بلغت سن الكهولة ، ولكنها لا تزال تنشط على خشبة المسرح . ولقد ربت بالعرق والجهد موهبتها فى فن الباليه كما ربت الحب العفيف بينها وبين زوجها المعوق . لذلك مدح اهل شانغهاى حبهما الطاهر فلقبوه بـ " الحب البجعى " ونقلت قصتهما الى خشبة مسرح الباليه باسم « الحب البجعى » كذلك .

الاختيار

وانغ دان يانغ خريج جامعى تخرج عام ١٩٦٥ فى قسم صناعة الماكينات . وتوظف فى احد مصانع شانغهاى لصنع الطائرات وعمل فيه مهندسا . سلوكه متميز بالرزانة والاخلاص . وبيته قريب من بيت تشو مى لى ، فنشأت بين العائلتين علاقة ودية ، وهكذا عرف وانغ



صورة تشو مي لى التي صورها زوجها

دان يانغ وتشو مى لى بعضهما بعضا معرفة تامة منذ طفولتهما . ومع تعاقب الايام دخل كلاهما مرحلة الشباب ، فبدأ عصرهما الذهبى .

تشو مى لى تمارس فن الباليه الرفيع ، ولكنها لا تتبختر عجبا وزهوا امام الناس ، فهى تتميز بالبساطة والتواضع . وتحت مساعدة وانغ دان يانغ قرأت عددا غير قليل من الاعمال الادبية المشهورة فى العالم ، وقد استأثرت رواية « جين اير » باعجابها الشديد . وتمثلت من هذه الاعمال الادبية كل ما هو جميل وحق وصالح لصياغة مشاعرها النفسية .

لقد احبا بعضهما بعضا ، واصبحا مهيأين للزواج ، لكن موعد الزواج تأجل لعدم بلوغ تشو مى لى سن الثلاثين (عمر الزواج المحدد لممثلات الباليه فى ذلك الحين) ، فلبثا ينتظران حلول ذلك الموعد .

وفى عام ١٩٧٦ نزلت بوانغ دان يانغ محنة كبرى مفاجئة ، اذ وقعت حادثة احتراق فى احدى التجارب ، اصيب فيها وانغ دان يانغ بحروق من الدرجة الثالثة فى وجهه ويديه ، فقد معها ملامحه الجميلة . والاخطر من ذلك انه سيصبح عاجزا عن الاعتماد على نفسه فى المعيشة وعاجزا عن العمل . وتعددت الآراء والتعليقات حول علاقة الحب التى تربطه بتشو مى لى : ترى هل تستمر ؟

قلقت تشو مى لى اشد القلق على حروق وانغ دان يانغ ، لكنها ظلت رابطة الجأش . وانبثقت من وجدانها تلك المشاعر التى ربتها على كل ما هو حق وصالح وجميل ، واصبحت هذه المشاعر سندا معنويا لها ، وجعلتها تواجه الواقع بصلابة . وفى معرض حديثها لنا عن هذا الامر الماضى ، استعرضت ذكرياتها النفيسة الخالدة فى

قلبها ، فقالت :

— اصيب بحروق وهذا محض محنة كبرى مفاجئة . وأفقدتنى هذه المحنة المفاجئة القدرة على التفكير بترو فى البداية ، واخذ الرأى العام يهاجمنى بالسؤال التالى : كيف سيكون مستقبلكما ؟ لم ارد على هذا السؤال . ورأيت ان على مواجهة الامر الواقع اولا وقبل كل شىء ، وان على القيام بتشجيعه والتخفيف من محنته والاسهام فى تمريضه . وكنت فى تلك الفترة اذهب قبل الظهر الى فرقة الباليه اولا للقيام بالتدرب على فن الرقص ثم الى المستشفى لتمريضه ، وبعد الظهر اعود الى فرقة الباليه لمواصلة التدرب . والمسافة بين فرقة الباليه والمستشفى بعيدة والوقت لدى ضيق . ومع ذلك ثابرت على هذا الجهد اليومى سنة كاملة .

فى البداية كانت ملامحه ممسوخة بالاضافة الى اغمائه طوال اليوم . ولقد استبدت بقلبى مرارة عجيبة ، ولكنى لم ابك امامه ابدا لأنى اعرف انى دعامته المعنوية الآن ، فاذا بكيت امامه ، فكيف اساعده على كسب الثقة بالمستقبل . وخلال تلك السنة لم اتراخ فى جهدى الفنى ، بل واظبت على التدرب الشاق المرير ، كما لم اظهر حزنى قيد انملة امامه . وبذل المستشفى كل ما فى وسعه لعلاج حروقه ، لكن ملامحه ظلت قبيحة جدا لكثرة آثار الحروق . فأجرى الاطباء عملية تجميل قدر الامكان . اما يداه فقد تلفت فيها اوتار العضلات ، فصارتا جامدتين ، فلا يمكنه تحريك اصابعه ، ولا يمكنه ان يمسك الاشياء بيديه كما يحلو له . وعندها نبهنى كثير من الاقرباء والاصدقاء والزملاء والجيران قائلين : " لا تدعيه يلقى عليك حملا ثقيلا مدى

حياتك . انك متخصصة فى الفن ، فقد يفقدك المستقبل والاختصاص ." وقال بعضهم بصراحة : " عليك ان تفارقيه وان تختارى خطيبا جديدا . واذا تزوجك رجل اكبر منك سنا الى حد معين ، ولديه اموال كثيرة او لديه مسكن (فى شانغهاى ازمة سكن) ، فانك ستعيشين معه عيشة سعيدة للغاية . " وعرض على بعضهم الآخر صورا غير قليلة لطالبى الزواج كى اختار منهم من ارتضى به خطيبا جديدا . وحزنت والدتى لأمر زواجى ، وبكت عدة مرات لما سأعانيه فى المستقبل من الآلام ، ولكنها لم تعارض رغبتى بحزم احتراما لارادتى . ورأيت ان المال والمسكن امر لا يهمنى ، انما الذى يهمنى هو الانسان بالذات . اذن ، على من يقع اختيارى الآن ؟ أليس وانغ دان يانغ هو الذى احبه ؟ رحت افكر ، واثبت حينا واتردد حينا آخر ، وقضيت فترة مريرة فعلا .

لقد مضى على حبنا ٦ سنوات ، خبرت خلالها اخلاقه النزيهة . والآن اصابته العاهة ، لكن عزيمته بقيت قوية سليمة ، وقلبه لم يتغير ، واخلاقه لم تتغير ، فسألت نفسى : اذا تزوجت منه ، فهل استطيع تحمل جميع الصعوبات الناجمة عن عاهته ؟ هل سأصمد فى وجه هذه الصعاب ؟ ان تدليل والدتى اياى جعلنى لا اعرف معالجة الشؤون المنزلية ، فلا اعرف حتى كيف ارفو الثوب ، فهل استطيع العيش مع معوق ، واقدر على رعايته ؟

عادت الى ذهنى رواية «جين اير» ، وكذلك مسرحية الباليه «بحيرة البجع» ، فاذا بها تخبرنى ان الحب العفيف القائم فى هذه الرواية وهذه المسرحية هو ما سيكون بيننا تماما . وفى تلك السنوات

كنت احب قراءة « جين اير » وكان وانغ دان يانغ يحب مشاهدة « بحيرة البجع » ، الامر الذى اعطانا قوة للتغلب على الصعوبات .
ولكن هل سأظل مخلصة للحب دون تزعزع مثل « جين اير » واوجينا ؟

اذا كانت حياة الزواج خالية من السعادة ، فان هذا الزواج سيغدو محنة كبرى . وقد لاحظت ان مشاعر الحب فى المقام الاول ، والاشياء الاخرى كلها فى المقام الثانى . ووجدت ان وانغ دان يانغ قد صار لى سندا روحيا ، فكلما عدت من لقاء معه تلاشت علامات الاستفهام المذكورة جميعا . وهذا ليس رحمة او شفقة ، وانما هو الحب العفيف الذى تعهدناه بالتربية خلال السنوات الطويلة الماضية . اننى لا استطيع العيش من دونه ، ولا يمكننى كذلك ان اتركه لمجرد ان اصابته عاهة .

ومن اجل استعادة وظائف جسمه عكف على القيام بتمرينات شاقة كان خلالها يتصبب عرقا . وبذل جهوده من اجل الحياة والمستقبل فى صمت ، فتأثرت بذلك تأثرا عميقا ، وازداد احترامى له . وقد ظل هناك من يحرضنى على الابتعاد عنه ومعاملته ببرود والانفصال عنه ، لكنى ايقنت بأن من واجب الانسان ان يكون مستقيما عادلا ، فلا اعامل شخصا اصيب بالحروق من اجل المصلحة العامة معاملة غير عادلة الى ذلك الحد . لذلك ثابرت على زيارته كل يوم ، وبذلت كل ما فى وسعى لتزويده بالثقة والقوة . وكان هناك صحفى سأل وانغ دان يانغ قائلا : " هل فكرت بعد اصابتك بالحروق بموقف تشو مى لى من حبها لك ؟ " فأجاب قائلا : " انها صادقة ساذجة طيبة القلب . وان حبنا المتبادل الذى قد استمر ٦ سنوات ستنبثق منه

قوة جبارة ، واني واثق كل الثقة بأنها لن تنفصل عني . " اين يوجد رجل صادق قوي مثله ؟ انه واثق بي الى هذا الحد ، فكيف اعامله بنفاق ؟ وهكذا وقع عليه اختياري النهائي . وتزوجنا عام ١٩٧٧ ، وانجبنا في العام التالي .

السعادة

كان هناك عدة اصدقاء اجانب من الولايات المتحدة واستراليا وغيرهما يرغبون في معرفة ما اذا كانت حياة تشو مي لي سعيدة ام لا . فتلبية لرغبتهم دعتهم الى النزول في بيتها ضيوفا ، ليقابلوا زوجها وانغ دان يانغ وابنتها المحبوبة . فأعجبوا بعد وصولهم البيت بالجو العائلي الذي يسوده الهدوء والانسجام والسعادة . ولاحظوا ان افراد العائلة الثلاثة يستحيل انفصالهم عن بعضهم بعضا ، كما لاحظوا ان الحب فيما بينهم في ازدياد مستمر .

وذات مساء من يوم السبت زرنا بيت تشو مي لي كذلك بدعوة منها وكنا نود ان نلمس سعادتها في حياتها . بيتها يتكون من حجرتين ، وبرغم انه مسكن عادي ، لكنه في مدينة شانغهاي التي تواجه ازمة سكن شديدة يعتبر مسكنا لا بأس به . وهذه الشقة مزودة بمرافق صحية كاملة ، والمحيط من حولها هادئ . اما اثاثها وتزيينها وألوانها في الداخل فقد تركت في انفسنا انطباعات عميقة . هناك تمثال فينوس باللون الابيض . ومزهرية فيها ازهار مفعمة بالحيوية . وغطاء السرير الاخضر وستارة الشباك الخفيفة اللينة ذات اللون الاحمر الفاتح جعلانا

نحس بجو من الهدوء والرزانة . وهناك ايضا صور لتشو مى لى مأخوذة من مسرحية « بحيرة البجع » يخيل الينا انها منبع للقوة المعنوية الخالدة لهذا البيت . وضحكات الطفلة الرنانة ومعزوفاتها الرخيمة اضفت على البيت جوا من السعادة . زوجها قليل الكلام مبتسم الوجه ، ويبدو عليه انه يعيش فى اطمئنان بعيدا عن الهموم والاحزان . يداه مازالتا جامدتين ، لكنه يستطيع الآن مراعاة نفسه بنفسه فى المعيشة ، وهو مصر على ذلك . وقالت لنا تشو مى لى فى ارتياح :

ــ الآن يستطيع ارتداء ثيابه ، كما يستطيع الاستحمام بصورة حسنة ، ويستطيع ان يعد طعام الغداء لابنتنا ويرعاها ، فصار بذلك مساعدا لى فى البيت . ان تجارب الحياة قد جلبت لنا السعادة ، اما الفترة العصيبة فقد مضت الى غير رجعة .

فى الفترة الاولى من زواجنا واجهنا فى حياتنا صعوبات كثيرة برغم ان حياتنا زاخرة بالعواطف الحلوة . كان فى ذلك الوقت عاجزا عن العمل فى البيت ، وانا حائرة لا ادرى كيف افعل ؟ فقدم لنا والداى المساعدة والرعاية ، اذ علمتنى والدتى الطبخ وغير ذلك من الشؤون المنزلية . وكان على ان اساعد زوجى فى التغسيل وحتى فى تزرير ثيابه . وبعد سنة من الزواج رزقنا بطفلة فازدادت الصعوبات . ومن اجل مواجهتها اتخذنا موقفا ايجابيا جادا ، فذللناها صعوبة بعد اخرى . لقد بلغت ابنتنا الآن التاسعة من عمرها ، وهى مولعة بالرقص والغناء ، وتذهب كل يوم الى قصر الاطفال لتقوم بالتدريبات الفنية . ولقد زارت كوريا فى رحلة فنية مع فرقة الفنون الصينية وهى فى السادسة من عمرها . وان الفضل فى نموها السليم يرجع الى الكثيرين ممن بذلوا

لها جهودا كبيرة . كانت فى ايام طفولتها تركب معى السيارات العمومية المزدحمة للذهاب الى روضة الاطفال . وكنا نحرص على ان تصبح لديها فكرة الاعتماد على النفس وعادة الاعتماد على النفس ، وعلمناها احترام المسنين والعناية بالاطفال وعدم التظاهر بأنها طفلة مدللة ، والمحافظة على الترتيب وعدم التميز فى الطعام وعدم التشاجر مع الآخرين وعدم التكبر . لذلك قلما كانت تضايقنا . ويأمل زوجى ان تتعلم ابنتنا الباليه ، ولكننى لا اريد لها ذلك ، فقد عرفت من تجربتى ان تعلم الباليه مرهق جدا ، وثمنه باهظ جدا ، والحياة الفنية فيه قصيرة جدا . فمن اجل الباليه تأخرت فى الزواج والولادة . لقد تجاوزت الاربعين ، فحياتى الفنية لن تطول كثيرا . ولا يسعنى فى المستقبل الا ان اقوم بتعليم الرقص .

عبر اختبارات الحياة تحولت من مثقفة لا هم لها الا قراءة الكتب الى ربة بيت قادرة ، فأنا الآن استطيع تأدية جميع الاعمال المنزلية كالغسيل والخياطة وحبك السترة الصوفية وصنع الفطائر الحلوة . وفى ايام الاعياد والمناسبات استطيع اعداد مائدة تكريمية لوالدى المحترمين المحبوبين . وقد صارت والدتى مطمئنة على فى جميع المجالات .

اعيش مع زوجى فى غاية الوئام والانسجام . انه منطو على نفسه ، لكنه يحب الموسيقى والمسرحيات والادب واوبرا سوتشو ، ويحب مشاهدة عروضى الفنية على الاخص ، فهو احد نظارتى وكذلك معلمى لأنه يساعدنى على تعميق فهم الدور الذى ألعبه كى يرتفع مستواى الفنى فى ادائه . وحينما اعود الى البيت بعد انتهاء عملى الرسمى اجلب لزوجى وابنتى ضحكات الفرح فور دخول باب البيت .

ان ايقاعات حياتنا نحن الثلاثة قوية ، وألحانها جميلة رخيمة .

اقوم من النوم فى السادسة صباحا ، فأجهز الفطور للجميع ، واغادر البيت فى تمام الساعة السادسة والنصف متوجهة الى فرقة للباليه ، وانصرف من الفرقة فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر الى قصر الاطفال لمشاهدة التدريبات الفنية لابنتى ، ثم اعود الى البيت حوالى الساعة السادسة والنصف لاعداد طعام العشاء . اما زوجى فيقرأ الكتب يوميا ، ويتنزه فى الحدائق العامة ، وكان يوصل ابنتنا الى روضة الاطفال ويعود بها عند الانصراف ، ويتناول الشعيرية التى يطبخها بنفسه عند الظهر . واتفقت معه على التأثير فى طفلتنا بأفعالنا واقوالنا المثالية لأن الاطفال كالاوراق البيضاء يمكن ان ترسم عليها مختلف الرسوم والاشكال . ومن اجل تعويدها على الاجتهاد فى دراستها لا ينام اى منا قبل الساعة العاشرة مساء مهما كان متعبا . اشترى الخضار من السوق مرة كل يومين ، واشترى اللحوم او الاسماك مرة كل اسبوع ، وعادة ما يكون ذلك يوم الاحد . وقد اشترينا الآن ثلاجة فساعدتنا كثيرا . اغادر شانغهاى من حين الى حين فى مهمات فنية . وقبل السفر اجهز لهما ما يحتاجان اليه من الثياب والطعام خلال غيابى . وكلما عدت الى البيت من هذه الاسفار تستقبلنى ابنتى بالتصفيق فرحة مسرورة وتقفز قائلة : " الام هى الاحسن ، والطعام الذى تعده لذيذ جدا ، اما الاب فلا يعرف فن الطهى كثيرا . "

اننى مقدرة دعم زوجى اياى فمن دون دعمه لا استطيع ممارسة مهنتى .

نزور والدى يوم الاحد مرة كل اسبوعين . ونشاهد كل احد

فيلما ، او نذهب الى الحدائق العامة للاستمتاع بالطبيعة . ونشترك فى هذه النشاطات جميعا .

لقد نقلت قصتنا — انا ووانغ — الى خشبة المسرح . فأشاد الناس بحبنا العظيم واطلقوا عليه "الحب البجعى" . ان طريقنا فى الحياة ما زال طويلا ، والماضى قد انقضى ، والقادم سنستقبله بمزيد من الاخلاص والتصميم .

منظر الغروب ما يزال جميلا

ــ وصف للسيدة تشو تشونغ لى ارملة الثورى القديم وانغ جيا شيانغ

لقد قطعت اشواطا طويلة فى طريق حياتها ، ولكن الامور الماضية المتدافعة ما زالت ماثلة فى ذهنها . سألها احدهم عن سنها فى العام الماضى فردت قائلة : ٢٧ عاما . وسألها الآخر عن سنها هذا العام فردت قائلة : ٣٧ عاما ، بينما سنها الحقيقى الآن ٧٣ عاما . وحساب سنها على هذا النحو يدل على حنينها الى الماضى وتصوراتها لمستقبلها البعيد والقريب ، والمعنى الكامن فى هذا الحساب سيتفهمه قراؤنا بعد قراءة مقالتنا هذه .

عندما انجزنا جميع المقابلات الصحفية المقرر اجراؤها وفقا للخطة الموضوعة اصلا ، واصبح تأليف هذا الكتاب على وشك الانتهاء ، عرفنا ان السيدة تشو تشونغ لى قد بدأت حياتها كاتبة بعد بلوغها الثالثة والستين من عمرها . ومازالت الى الآن تبذل جهدها فى الابداع الادبى ، فأفكارها متدفقة كالمياه الجارفة ، ورغباتها فى الابداع الادبى فى ازدياد مستمر . فقررنا اجراء مقابلات صحفية معها لادخال قصتها فى كتابنا حتى يستطيع قراؤنا ان يتعرفوا على المرأة الصينية من زاوية اخرى ، ويقفوا على حقيقة افراحها واتراحها وقوتها الكامنة .



تشو تشونغ لى كاتبة تكتب واقفة

أ ـ الكاتبة التى تكتب واقفة

. اسمها الحقيقى تشو تشونغ لى ، واسمها المستعار تشو شان ، وكانت فى الاصل طبيبة . لقد بدأت حياتها كاتبة بعد بلوغها الثالثة والستين . وبناء على احصائها هى فان اعمالها الادبية جاءت فى ٣ ملايين مقطع صينى ، والسدس منها قيد النشر . وعملها الادبى الاول « الحب والحقد » اختير رواية ممتازة من بين مائة رواية طويلة . وكتاباها « التاريخ غير الرسمى لجيانغ تشينغ » و« معلومات سرية عن جيانغ تشينغ » قد نشرا فى هونغ كونغ واسترعيا اهتماما خاصا من القراء فيما وراء البحار . ويرى عالم امريكى متخصص فى بحث التاريخ والادب الشرقيين ان مؤلفة هذين الكتابين امرأة جريئة .

لقد بدأت حياتها فى الابداع الادبى بعد ان تخلصت من قيود احزانها وآلامها البالغة . كانت فى الاصل طبيبة ، فلم تتعلم النظريات الادبية والابداع الادبى ، فمن الطبيعى ان تكون بدايتها فى الابداع الادبى صعبة جدا ، لكنها اجتازت هذه العقبة الكأداء وكتبت تجارب حياتها خلال عشرات السنين فى اشكال مختلفة ، منها الرواية والسيرة الذاتية والذكريات .

قالت فى مقدمة كتابها « الشخصيات الشهيرة فى الحزب الشيوعى الصينى » :

" لقد جريت فى طريق حياتى دون تردد ولا توقف ، ودون ادنى نظرة الى الوراء او تفكير فى ذاتى . قطعت اشواطا طويلة تركت فيها

آثار لقدمى لا انساها . والآن اصبحت لاهثة ، وصارت خطواتى صغيرة بطيئة ، ولكن كثيرا من الامور الماضية لا تزال تجيش فى صدرى وتتقلب فى ذهنى .

افكارى تتدفق كمياه العين ، ومشاهد الامور الماضية ماثلة فى ذهنى ، وهى التى دفعتنى الى تسجيل بعضها فى هذا الكتاب . ليبحث الناس فيها ويفكروا فيما تتضمنه من ذكريات الماضى . . . "

من هذه المقدمة يمكننا ان نعرف لماذا تكتب . ان الامور الماضية المتدافعة هى التى جعلتها تتحمس لحياتها وعملها فى الايام المقبلة .

انها عجوز ارملة لا عائلة لها . أما زوجها وانغ جيا شيانغ الذى نال احترامها وحبها فهو احد قادة الحزب الشيوعى الصينى وحكومة جمهورية الصين الشعبية وكذلك احد قادة القوات المسلحة البارزين ، وقد توفى بسبب الارهاب خلال " الثورة الثقافية " (عام ١٩٦٦ — ١٩٧٦) . وكانا فى سبيل القضية المشتركة قد اتفقا على عدم الانجاب ، فعندما توفى زوجها صارت ارملة لا عائلة لها . ان وفاة زوجها اوقعها فى هوة من الحزن ، فعاشت برفقة الدموع مدة سنتين ، وحبكت خلالها عددا لا يحصى من البستر الصوفية بمختلف تشكيلات الزخارف ومختلف الالوان ، وعملت ذلك ابرة ابرة وخيطا خيطا وهى غارقة فى ذكرياتها عن زوجها الراحل وامورها الماضية . . . الدراسة فى السنوات المبكرة والذهاب الى يانآن للاشتراك فى الثورة فى ريعان الشباب ومسيرات الكفاح الطويلة بعد الاشتراك فى الثورة . وهذه الذكريات هى التى نورتها ، وخلصتها من بالغ الحزن . كان زوجها يشجعها

مرارا وتكرارا على العمل لصالح للشعب ، فلم تخيب امل زوجها ، اذ طلبت من نفسها ان تخلص من هوة الحزن بسرعة ، وان تعيش على خير ما ينبغى ، ومن اجل ذلك بدأت حياتها فى الابداع الادبى .

انها تكتب ليل نهار دون توقف ، وتكتب عدة آلاف مقطع صينى فى اليوم احيانا وعشرة آلاف مقطع احيانا اخرى ، متغاضية عن الراحة ، مما اتلف عمودها الفقرى . ومن اجل تخفيف آلامها فى الحقو والظهر والورك والفخذ تتخذ فى اثناء الكتابة مختلف الوضعيات ، كالجلوس والوقوف والرقود حسب ما يقتضيها جسمها . فقال بعض الناس انها كاتبة تكتب واقفة . ورأينا فى بيتها ، فى قاعة الاستقبال والمكتب وغرفة النوم ، انواعا من المساند الخشبية مسطحة وغير مسطحة ، منها ما يمكن وضعه فوق مسندى الاريكة ومنها ما يمكن نصبه على السرير ، وهكذا يمكن للسيدة تشو تشونغ لى ان تواصل كتابتها إما جالسة على الاريكة واما واقفة على الارض واما راقدة فى السرير . وبهذه الاوضاع من الكتابة انجزت تشو تشونغ لى تلك الاعمال التى نشرت فى السنوات الاخيرة او التى ما تزال قيد النشر ، من بينها « الفجر والشفق » حول ذكرياتها عن زوجها ، ومنها الرواية الثلاثين الضخمة على نمط السيرة الذاتية : « خضلنى ندى الربيع » و« نورتنى الشمس الساطعة » و« رافقنى الشفق الجميل » ، ومنها ايضا كتاب « معلومات سرية لجيانغ تشينغ » . وانطلاقا من عملها الكدود هذا دعيت تشو تشونغ لى "كاتبة غزيرة الانتاج" . وفى عام ١٩٨٢ انضمت الى جمعية الكتاب الصينيين ، وكانت فى السادسة والستين من عمرها ، وهى الآن فى الثالثة والسبعين ، ولكنها لا تزال

تنشط فى اوساط الابداع الادبى .

ب — افراحها واتراحها

لا يمكن لمقالنا القصير هذا ان يستوعب سيرة حياتها الطويلة ، لذلك لا يسعنا الا ان نختار عدة احداث هامة فى حياتها ، وان نقطف من شجرة حياتها عدة " ثمار حلوة " وعدة " ثمار مرة " لنشكل فكرة عن هذه الشجرة بكاملها .

ان افراحها فى الحياة اكثر من اتراحها بصفة عامة . وافراحها غير محدودة ، واتراحها لا مثيل لها . لقد دفعت ثمنا غاليا ، وضحت بالكثير .

التأثر الايجابى التدريجى بروح الثورة

ولدت تشو تشونغ لى عام ١٩١٥ فى مدينة تشانغشا بمقاطعة هونان . وكان ابوها تشو جيان فان قد درس فى اليابان فى ريعان شبابه ، وبعد عودته الى الوطن عام ١٩١٤ اسس فى حديقة اسرته روضة خاصة للطالبات ، فاعتبرت اول مدرسة خاصة بالفتيات فى تاريخ الصين الحديث . وبعد ثورة عام ١٩١١ الديمقراطية البرجوازية التى قادها الدكتور صون يات صن تغير اسمها من روضة الى " مدرسة تشونان للفتيات" ، وقد مضى على هذه المدرسة حتى الآن ٨٤ عاما . وتدعى حاليا باسمها القديم برغم تغير اسمها عدة مرات عبر مراحل تاريخها .

كان جدها قائدا كبيرا لدى الجنرال الوطنى تسوه تسونغ تانغ فى اواخر اسرة تشينغ الملكية (١٦٤٤ — ١٩١١) . وكان ثريا ، ولكنه من اجل تأسيس المدرسة تبرع بجميع ممتلكاته تقريبا . والنساء الذائعات الصيت فى اوساط المرأة الصينية فى العصر الحديث والمعاصر مثل شيانغ جينغ يوى ويانغ كاى هوى وتساى تشانغ وديغ لينغ هن خريجات فى مدرسة تشونان للفتيات . وكان تشو جيان فان معلما لهن . وقد شارك كثيرا من قادة الحزب الشيوعى الصينى فى القيام بأعمال الثورة ، ومنهم ماو تسى تونغ وتساى خه سن وخه شو هنغ وشيوى ته لى وشيه جيويه تساى ووانغ تشن ، كما تعرف على كثير من قادة الحزب مثل ليو شاو تشى ودونغ بى وو ووو يوى تشانغ ولين بوه تشيوى ولى لى سان ولى فو تشون ونيه رونغ تشن وشياو جين قوانغ . وانه لأمر غير سهل ان يكون السيد تشو جيان فان قد تمكن فى ظروف الصين القديمة شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة من تأسيس مدرسة خاصة بالفتيات لاعداد المثقفات فى سبيل تحرر المرأة . فهو بذلك رائد من رواد حركة تحرر المرأة الصينية وعالم تربوى شهير عن جدارة .

ولدت السيدة تشو تشونغ لى فى مثل هذه العائلة ، فتلقت تربية من الثوريين القدامى ، وتأثرت تأثيرا ايجابيا تدريجيا بأفكارهم الجديدة منذ طفولتها . ولم تعان اطلاقا من الآلام الناجمة من الاقطاعية التى لا بد من معاناتها بالنسبة للنساء فى ذلك العهد . قالت تشو تشونغ لى فى سرور :

— من حسن الحظ انى لم اتعرض لتلك المعاناة المؤلمة الناجمة

من الاقطاعية ، ذلك لأن اسرتي غير اقطاعية وغير متحفظة . وكان ابى بالتبنى خه شو هنغ قد اسس مع ماو تسى تونغ وتساى خه سن وغيرهما منظمة ثورية — جمعية شينمين فى هونان ، واستشهد فى سبيل الثورة . وقد ترك فى نفسى ، وانا صغيرة ، انطباعات عميقة خالدة .
كان دنغ تشونغ شيا ، احد قادة الحركة العمالية الصينية فى مرحلتها الاولى ، قدوة لى فى حياتى . وقد استشهد فى يويهواتاى بمدينة نانجينغ بعد ان عانى من التعذيب اشده . وكنت اعرفه جيدا ، اعرف ملامحه العادية البسيطة وعينيه البراقتين . وذات مرة تحدث معى ، وطلب منى ان اشترى له السرطان الذى يحب تناوله . ولكن فى هذه المرة بالذات قبض عليه بعد عودتى من السوق بوقت قصير . فهذا الامر الذى حدث فى سنواتى المبكرة زودنى بقوة لا تقهر . وابى والثوريون من جيله زودونى بالايمان الذى هو مصدر القوة واثمن الاشياء فى حياة الانسان .

وبعد فشل الثورة الكبرى الممتدة من عام ١٩٢٤ الى عام ١٩٢٧ تعرضت اسرتنا فى مدينة تشانغشا للتفتيش ، وصودرت ممتلكاتها ، وهرب جميع اعضاء الاسرة الى شانغهاى . وكان ابى فى ذلك الحين يقوم بالاعمال السرية الخاصة بالحزب . وبرغم انه يعانى من الفقر والمرض معا لكنه ظل مصرا على ادخالى المدرسة لمواصلة الدراسة . وفى البداية درست فن التوليد ، ثم غيرت فكرتى الاصلية وعقدت العزم على دراسة الطب العام ، وتلقيت تأييدا من ابى . والتحقت عبر الامتحان بمعهد تونغده للطب فى شانغهاى ، وانا فى الخامسة عشرة من عمرى فى ذلك الحين . وبعد ذلك بوقت قصير توفى ابى من

مرضه ، الامر الذى احزننى كثيرا ، فعلقت املى على ثروة لا تنفد مدى حياتى .

الاختبار الاول فى طريق الحياة

خلال ٥ سنوات من دراستى الجامعية وسنتين من التطبيقات العملية عشت حياة الفقر المدقع . كانت دراسة الطب مثلى الاعلى ، ومن اجل تحقيقها ناضلت نضالا شاقا مريرا . فطوال تلك السنوات الخمس بمعهد الطب لم اتناول الفطور بغرض توفير المال . وكان طعام الغداء فى غاية البساطة يكفى لسد رمقى . لذلك كانت معاناة الجوع امرا مألوفا بالنسبة لى . وفى بعض الاحيان كان شقيقى يأخذ كل مصروفات معيشتى المرسلة من والدتى فى مدينة تشانغشا ، فعندها لا يسعنى الا ان اعيش على الديون . وبالاضافة الى الصعوبات الاقتصادية كنت اواجه مراقبة جواسيس السلطات الرجعية . ففى السابعة عشرة من عمرى بدأت اعيش فى شانغهاى منعزلة عن جميع افراد الاسرة والاقرباء لأن معظمهم قد عادوا الى تشانغشا على التوالى . وذهب بعضهم الى المناطق المحررة . وكان بعضهم الآخر يقوم بالاعمال السرية للحزب ، فكنت اواجه المزيد والمزيد من المتاعب ، ولكننى صممت على اكمال دراسة الطب مهما كانت الصعوبات . ومن اجل مجابهة رقابة الجواسيس وتجنب شكوكهم فى شخصيتى كان على ان ابالغ فى تحسين مظهرى الخارجى حتى ابدو طالبة جامعية من اسرة غنية برغم انى فى ذلك الوقت اعانى من الجوع .

وفى خريف عام ١٩٣٢ قبض علينا انا وشقيقتى ولى ينغ زوجة دنغ تشونغ شيا . وكانت شقيقتى والسيدة لى ينغ تعملان فى خدمة الحزب السرية . وقام العدو بالتحقيق معى مرتين واستخدم وسائل تهديدات مختلفة ، لكننى بالهام من السيدة لى ينغ الباسلة غير الهيابة لم اعترف بشيء عن شقيقتى وعن لى ينغ ، كما لم افش سر العلاقة بين لى ينغ ودنغ تشونغ شيا . ونظرا لأنى لم ابلغ سن الرشد (١٨ عاما) آنذاك فلم توقع بحقى عقوبة قانونية . وبعد فترة من اعتقالى اضطرت السلطات المعنية الى الموافقة على اطلاق سراحى بكفالة . ويعتبر هذا الامر اول اختبار فى حياتى فى سنوات الشباب ، لا انساه مدى الحياة ، كما يعتبر بداية لمعرفة مظاهر المجتمع وبداية للفرار من بين فكى النمر .

الفرار من بين فكى النمر

فى عام ١٩٣٦ كنت اشتغل طبيبة متدربة فى المستشفى المركزى لحزب الكومينتانغ فى نانجينغ . وانتشرت بشرى انتصار الجيش الاحمر فى مسيرته الكبرى ونجاحه فى الوصول الى يانآن فى شمال مقاطعة شنشى انتشارا سريعا فى المناطق التى يحكمها الكومينتانغ ويخيم عليها الارهاب . فشعرت انا وعدد من الشباب الوطنيين الآخرين بابتهاج بالغ لهذا الخبر السار .

فى عام ١٩٣٧ ، عندما اوشكت نانجينغ على السقوط فى وجه العدوان اليابانى ، كان الاطباء والممرضات شديدى القلق ، يفكرون

فى مخرج من هذه الازمة . وكنت حينذاك فى الثانية والعشرين من عمرى ، لا ازيد فى نظر الناس عن فتاة فتية لا تعرف عن امور العالم شيئا . ولكننى فى الواقع قد عقدت العزم على سلوك الطريق الذى اخترته . واخذت اقوم بالاستعدادات لتحقيق غرضى المنشود خفية . وفى احد الايام من نهاية الاسبوع بدأت انفذ خطتى الموضوعة للفرار من بين فكى النمر ، فخرجت من المستشفى حاملة معى حقيبة للامتعة . وكان عند مخرج المستشفى عميل سرى يقوم بمهمة المراقبة ، فلما وجدنى احمل حقيبة سألنى على الفور فى لهجة تهديد وهو يتكلف الابتسامة : " الى اين تذهبين ايتها الطبيبة تشو ؟ " فتوقفت وقلت له فى غير مبالاة : " آه ، كنت اود ان اخبرك ان الطائرات اليابانية تقصف يوميا ، فلا يسعنى الا ان اودع اشيائى هذه فى بيت قريبى ، وسأعود حالا ، فهل تسمحوا لى ان اخرج بها ؟ " فأومأ برأسه موافقا ، واكد على الرجوع بسرعة . فسررت اعظم سرور لدى نجاحى بالفرار . واقترب يوم اللقاء مع والدتى فى تشانغشا . وحينما وصلت المرفأ على شاطئ نهر اليانغتسى وجدته مكتظا باللاجئين . ومن اجل مغادرة هذا المكان فى نفس اليوم توسلت الى قاطع التذاكر ان يبيعنى تذكرة ، وقلت له ان والدتى تحتضر وانى على مثل الجمر من القلق ، فارحمنى . فاعطانى تذكرة فشكرته عليها عظيم الشكر ، وتسلمت التذكرة بيد مرتعشة لأن هذه التذكرة بمثابة جواز سفر للفرار من فكى النمر . ورجعت الى جانب والدتى وغيرها من الاعزاء فى نهاية الامر ، وبدأت استعد للذهاب الى يانآن مهد الثورة . وفى اوائل الربيع من عام ١٩٣٨ انطلقت سيارة شاحنة نحو يانآن حاملة على ظهرها جماعة من الشبان

والشابات الذين طال اشتياقهم الى مهد الثورة . ومن ضمنهم انا وابن زوج شقيقتى البالغ من العمر ٦ سنوات .

اول طبيبة نظامية فى يانآن

بعد وصولى الى يانآن بوقت غير طويل استقبلنى ماو تسى تونغ حيث قال لى فى حديث لطيف : " انك قد جئت الى منطقة حدود المقاطعات الثلاث (شنشى وقانسو ونينغشيا) ، وعملك فيها يعتبر خدمة لقضية الثورة البروليتارية ، فاستعدى لأن تكونى طبيبة محمودة للشعب ذات براعة مهنية واسلوب عمل بروليتارى . فمن واجب الطبيب ان يتحلى بالانسانية فى تعامله مع المرضى والجرحى ، والا فمن السهل ان يكون طبيبا انانيا . " " ان اباك رجل طيب ، وا اسفاه ! هل لديك الرغبة فى ان تكونى الطبيبة المسؤولة عن صحتى فيما بعد ؟ " فقلت له بأنى مستعدة للخضوع لترتيب الهيئة القيادية ، ولكنى اخاف فقط من قلة خبرتى الطبية . فقال : " من الحسن ان يعترف المرء بنقائصه ، بل عليه الا يتظاهر بالقوة والا يتكبر . وعليك ان تتعلمى خلال الممارسة العملية وان تقومى بالممارسات العملية فى اثناء التعلم كى ترفعى مستوى معارفك" وقال ايضا : " انا مسرور جدا اليوم لأنى قابلت ابنة صديقى القديم من جهة ، وحصلت منها على فوائد من جهة اخرى" ، ولم اعرف عندها ما الفوائد التى قدمتها له ، لكنى عرفت ذلك فيما بعد . فقد رأى ان حديثى معه اتاح له فرصة الاستراحة عشرات الدقائق . ومنذ ذلك الوقت بدأت اشتغل فى مستشفى منطقة

حدود المقاطعات الثلاث المذكورة ، ثم نقلت بعدها الى عيادة يانغجياليغ وتساويوان حيث مقار الهيئات المركزية ، وعيادة وانغجيابينغ حيث مقر القيادة العامة للمجلس العسكرى المركزى ، وعيادات اماكن اخرى ، لأشتغل مديرة وطبيبة فى آن واحد وطبيبة مسؤولة عن صيانة صحة ماو تسى تونغ وغيره من قادة اللجنة المركزية . لم يكن لمستشفى منطقة الحدود اى بناء ، فهو مجرد صفوف من الكهوف الترابية المحفورة . اما الاضاءة ليلا فبالشموع . واسرة المرضى مبنية باللبن-وبعضها ألواح خشبية موضوعة على مقعدين طويلين خشبيين . ولم تكن هناك التسميات المعروفة ، الطبيب الرئيسى والطبيب المشرف على العلاج والطبيب العادى ، كما لم تكن هناك ممرضة خريجة فى مدرسة التمريض النظامية ، فظروف العمل سيئة جدا ، ولكن فعالية العمل عالية جدا . وكان على الطبيب فى ذلك الحين ان يجرى ٢ او ٣ عمليات جراحية فى اليوم ، او يستقبل ما بين ٤٠ و٥٠ مريضا فى العيادة ، او يشرف على ما يتراوح بين ٣٠ و٤٠ سريرا فى قسم المرضى المقيمين ، وجميع العاملين فى المستشفى مسرورون مع ان العمل متعب جدا . وكنت اقوم الى جانب العمل فى المستشفى بصيانة صحة القادة الكبار ، وتلك هى مسؤوليتى الكبيرة . واذكر انه فى نهاية عام ١٩٤٢ جاء الى يانآن الرفيق ليو شاو تشى الذى صار رئيس جمهورية الصين الشعبية فيما بعد ، فوقعت مهمة حفظ صحته على عاتقى كذلك .

ان فترة اقامتى فى يانآن قد تركت فى ذهنى ذكريات واضحة . لقد جئت الى يانآن اول طبيبة نظامية ، فطبيعى ان تقع على عاتقى

المهام الكبيرة . وطوال تلك الفترة نادرا ما تناولت وجبة الغداء فى وقت الراحة ، ودائما ما كنت اخرج فى مهمات طبية ، مجتازة الجبال والانهار وسالكة الطرق الموحلة سيرا على القدمين اذ لم تكن هناك وسيلة مواصلات عند الخروج لمهمات طبية . والى جانب تشخيص وعلاجها كنت اشترك فى اعمال التمريض من مختلف انواعها . وقد اديت واجبى بقدر المستطاع .

مشاركة وانغ جيا شيانغ فى السراء والضراء

تولى وانغ جيا شيانغ بعد عودته من الاتحاد السوفياتى بوقت غير طويل منصب نائب رئيس المجلس العسكرى المركزى ورئيس الدائرة السياسية العامة للقوات المسلحة وغيرهما من المناصب الهامة المتعددة . وفى اكتوبر عام ١٩٣٨ اقيمت مأدبة صغيرة بمناسبة انتهاء الدورة الكاملة السادسة للجنة المركزية المنبثقة من مؤتمر الحزب السادس ، حضرها ماو تسى تونغ وغيره من الرفاق القياديين فى اللجنة المركزية وجميع الحاضرين فى الدورة . وفى فترة الراحة قبل بدء المأدبة قدمنى ماو تسى تونغ الى وانغ جيا شيانغ .

ولم يمض على هذا اللقاء الاول وقت طويل حتى كتب وانغ جيا شيانغ الى شياو جين قوانغ زوج شقيقتى يقول : " من فضلك زودنى بمهرين منغوليين . ومن فضلك انزل فى بيتى ضيفا مع اخت زوجتك اذا امكنك ذلك . " وكنت حينذاك فى الثالثة والعشرين . وبعد وصولى الى يانآن قدم لى الرفيق شياو جين قوانغ بكل حماسة عدة شبان من

ضباط الجيش الاحمر على التوالى بهدف اختيار القرين ، ولكنى لم ارتض بذلك . وقد بادر وانغ جيا شيانغ هذه المرة الى دعوتى عن طريق زوج اختى للذهاب اليه ، فخطر على بالى بطبيعة الحال ان الدعوة متعلقة بمثل هذا الشأن . ونظرا الى انه ترك فى نفسى انطباعا حسنا قبل ذلك ، فقد بادرت عند اللقاء الى كسر الصمت ، وتحدثت له بصراحة عن احوالى الشخصية وعرفته بسيرة حياتى .

وحين اعربت له ذات مرة عن موافقتى على الزواج منه سر سرورا عظيما ، واخرج على الفور الكمية المحدودة من القهوة التى كان يحتفظ بها ، وصنع منها ابريقا ، وصبه فى كوبين . وفى النهاية شربنا معا كوبا واحدا منهما تعبيرا عن مشاركة احدنا الآخر فى السراء والضراء . وفى يوم ١٥ من الشهر الاول القمرى الصينى عام ١٩٣٩ اقيمت حفلة زفافنا ، وحضرها ماو تسى تونغ والاغلبية الساحقة من الرفاق القياديين الآخرين فى اللجنة المركزية تعبيرا عن تمنياتهم المشتركة لنا بالخير والسعادة .

كان وانغ جيا شيانغ مشغولا بأعمال الثورة ، وكنت مشغولة بأعمال الطب والعلاج . ومشقات الحياة هى التى قادتنا الى فكرة عدم الانجاب . وبموافقته هو وطلبى انا أجريت لى عملية تعقيم وانا فى الرابعة والعشرين من عمرى . وبعد ذلك اصبحنا دائما نهدى نصيبنا من الحليب والسكر (النادرين فى يانآن آنذاك) الى اطفال الآخرين . وكان يسرنا ان وجد اولئك الاطفال مزيدا من الغذاء يقيت اجسامهم .

ورافقته الى الاتحاد السوفياتى فترة من الزمن لعلاج مرضه . وبعد عودته الى الوطن رافقته الى منطقة شمال شرقى الصين للعمل

هناك ، وكنت يومها اعمل مديرة لمستشفى هاربين فى مدينة هاربين التى كانت اكبر مدينة تحت سيطرة الحزب الشيوعى فى ذلك الوقت . وبعد قيام الصين الجديدة عام ١٩٤٩ عين وانغ جيا شيانغ اول سفير للصين لدى الاتحاد السوفياتى وعاد الى البلاد بعد اكثر من سنة . وكنت اعمل مديرة لمستشفى الصداقة الصينية السوفياتية فى بكين . وكان هذا المستشفى تحت ادارة مشتركة من الجانبين الصينى والسوفياتى ، وكنت مديرته عن الجانب الصينى . وقد اجرى له كثير من الاصلاحات ، فحظى ذلك بالثناء والتقدير ثلاث مرات من بنغ تشن عمدة بكين حينذاك . وعملت فى هذا المستشفى ١٠ سنوات ، وكنت اتناول فى المستشفى يوميا طعام الغداء الذى اعده فى البيت بنفسى دون ان اتعب فى اعداده الطباخ الخاص بزوجى .

واخذت حياتنا تجرى فى انتظام ، وكل منا يعمل بجد واجتهاد فى موقع عمله .

الداهية الدهياء

فى عام ١٩٦٦ تعرض وانغ جيا شيانغ لمحنة . . .

فقد اجبر على كتابة " الاعتراف " و " النقد الذاتى " ، ولكنه لم يسع الى الدفاع عن نفسه ازاء هذا الظلم الذى وقع عليه ، بل كان يتألم لعدم تمكنه من خدمة الشعب . وطلب ان يقوم ببعض اعمال التنقيح فى مجال الترجمة ، ولكن لم يسمح له بذلك . ومن اجل تخفيف اعباء العمل الجسمانى المفروضة عليه كنت انهض من النوم

فى الساعة الرابعة عند الفجر لأكنس فناء الدار . وبعد ان حددت اقامته رحت اعد له الطعام يوميا ، واغسل له الملابس ، واجهز له ماء الاستحمام ، وادلك له ظهره (كان مصابا بأذى فى خصره ايام الحرب الماضية لا يمكنه من تدليك نفسه) ، واشترى له من هنا وهناك ما يحبه من الخضار حفاظا على صحته ، واطبخ له من الطعام ما يستسيغه ، واعد له بكل اهتمام وعناية وجبة الفطور والغداء والعشاء بالاضافة الى وجبتى طعام خفيفتين فى اليوم . وكل هذه الاعمال التى عملتها بعد حرمانه من الحرية كان يؤديها طباخه وحارسه .

ونزلت بنا محنة اكبر ، فقد حددت اقامتى انا ايضا . وحين لم يعد زوجى يتلقى منى الطعام ، ولم اعد آتيه لأدلك له ظهره ، ساوره القلق ، وطالب بعودة زوجته الى التردد عليه ، لكن دون جدوى . وكان هناك عدد من الاقرباء يبتعدون عنى ، ويعاملوننى ببرودة ، وازاء ذلك لم يسعنى الا ان اعول عويلا شديدا .

وذات مرة عرفت انه سيعرض امام حشد جماهيرى لنقده ودحضه ، فطلبت ان اكون عرضة للدحض معه ، ذلك لأنى طبيبة اعرف كيف اضمن عدم عودة المرض اليه وزوجة استطيع تزويده بالقوة والجرأة . وهكذا تبادلنا انا وهو العواطف والتشجيع والتأييد .

ولكن نتيجة لتعرض زوجى لظلم شديد من لين بياو وجيانغ تشينغ وكانغ شنغ وغيرهم اصيب بنوبة قلبية وتوفى بسببها مظلوما . وقد شعر الناس بالحزن والاسى لفقدان قائد طيب من قادة الدولة . اما انا فبكيت لفقدانه اشد البكاء ، وحل بى من الحزن والاسى ما لا اطيق ، وقد استمر ذلك سنتين . وفى تلك الايام التى كنت اغسل

فيها وجهى بالدموع ، زارنى كثير من رفاق السلاح القدامى مثل هو ياو بانغ ولياو تشنغ تشى ووانغ تشن ، وشجعونى قائلين : ان احسن ذكرى لزوجك وانغ جيا شيانغ هو ان تتخلصى من الحزن والاسى لوفاته ، وان تكونى صامدة كما كان فى وجه الشدائد على اختلاف انواعها ، وان تكتبى بعض الاعمال التى تسجل مآثره واخلاقه الكريمة طول حياته حتى تبقى مدى الدهر . وبهذا الالهام بدأت حياة الابداع الادبى . وان كتابى « الفجر والشفق » ما هو الا السيرة المشرقة لحياة زوجى وانغ جيا شيانغ .

روعة المنظر عند غروب الشمس

ان حياة تشو تشونغ لى فى شيخوختها مفعمة بالاعمال الباهرة فى مجال الابداع الادبى ، وقد ازدادت حياتها ألقا نتيجة تعلقها الشديد بالحياة ، فأصبح منظر غروب حياتها لايقل جمالا عن منظر غروب الشمس .

ذات يوم دخلت انا وزميلتى غرفة الاستقبال فى بيتها ، فغمرنا على الفور جو من الرزانة والهدوء والمحبة ، وقد جعلتنا اصص الازهار الزاهية ونباتات الزينة الوارفة النضرة الدائمة الخضرة نشعر بأن تشو تشونغ لى مستبشرة بالحياة والمستقبل . ورأينا على الحائط صورة ضخمة للفقيد وانغ جيا شيانغ وتحت الصورة وضع بيانو ايطالى الصنع ، وعلى صندوقه وضعت عدة صور لها . وفى غرفة الاستقبال طقمان من الارائك والمقاعد ، مما يدل على ان صاحبة البيت مضيافة .

ان السيدة تشو تشونغ لى ذكية عقليا وحاذقة يدويا وذات مواهب فى مختلف المجالات ، فتجيد اشغال الحياكة وتفصيل الثياب وفن الطهى والعزف على البيانو ، كما تجيد الغناء والرقص . وقد زرت بيتها عدة مرات ، فتركت هذه الزيارات كلها انطباعات حسنة فى نفسى . فى الزيارة الاولى غنت لى عدة اغان شائعة ، وفى الزيارة الثانية عزفت لى عدة معزوفات على البيانو ، وفى الزيارة الثالثة رقصت لنا انا وزميلتى رقص الدسكو ، وعرضت علينا مختلف انواع ثيابها الصيفية التى فصلتها هى بنفسها .

وسألتها :

— يا اختى الكبيرة تشو ، هل تشعرين بالوحدة ؟

فردت على بارتياح :

— لا ، لا اشعر بالوحدة ابدا ، فمشاغلى كثيرة لا نهاية لها . وسأواصل الابداع الادبى ، فهناك كثير من المواضيع تنتظرنى لأكتب فيها . وعندى قرابة مائة صديق من الشباب يحبون المجئ الى ليغنوا ويرقصوا ويحدثونى عما فى قلوبهم . وبعد عدة ايام سأقيم هنا لزوجين حفلة بالذكرى الفضية لزواجهما ، وسيحضرها كثير من الاصدقاء ، وارحب بحضور ابنتك لتغنى لهما .

وقالت لى السيدة تشو تشونغ لى مؤكدة :

— انى احب رقص الدسكو كما احب الغناء حبا خاصا لأنهما من الوسائل الحسنة لتقوية الجسم والترفيه عن النفس . وقد تعلمت فى السنوات الاخيرة اكثر من ٢٠٠ اغنية ، وسجلت صوتى على ١٩ شريط كاسيت .



تخيط تنورة من القماش المطبوع

ان السيدة تشو تشونغ لى شخصية بارزة متحمسة للنشاطات الاجتماعية . وقد كانت عضوة فى المؤتمر الاستشارى السياسى الوطنى الخامس . وهى حاليا عضوة فى اللجنة الدائمة لمجلس ادارة جمعية الطب الصينية ومستشارة شرف للجمعية وعضوة فى جمعية الكتاب الصينيين ومستشارة فى جمعية مصممى الازياء فى بكين وعضوة فى مجلس الادارة لصندوق التعليم الخاص بالمدارس الابتدائية والمتوسطة ورياض الاطفال .

ان حياة السيدة تشو تشونغ لى فى شيخوختها مشرقة جميلة مثل الشفق . وقد وضحت بأفعالها معنى قولها بأن سنها كان ٢٧ عاما فى السنة الماضية و٣٧ عاما فى هذه السنة .

خاتمة

لقد كتبنا هذه التقارير الصحفية عن المرأة العاملة الصينية من حيث عملها وحياتها ومزاجها وطموحها . وبعد قراءتكم هذه التقارير هل توافقون على رأينا التالى : المرأة ليست رمزا للضعف ، وانما يجب ان تكون رمزا للثقة بالنفس والاعتماد على النفس . وانطلاقا من ماضى المرأة الصينية وحاضرها نخلص الى القول بأن المرأة تستطيع أن تحقق منجزات عظيمة مادامت متحررة من القيود النفسية ، وأن تحرز من النتائج بقدر ما يحرزه الرجل ، او هى تبزه احيانا وإن دفعت ثمنا اكبر .

مطبعة اللغات الاجنبية   بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
٢١ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين
ص . ب ٣٩٩ بكين – الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤

中国女性的欢乐与苦恼
许秀玉　周奎杰
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
（中国北京车公庄西路21号）
北京邮政信箱第399号　邮政编码100044
1991年（34开）第一版
（阿）
ISBN 7-119-01233-9/Z·493（外）
00810
17——A——2499P

المرأة الصينية

— سرورها وحزنها

ان المرأة الصينية التى تشكل نصف المجتمع فى الصين البالغ عدد سكانها مليون نسمة قد اصبح دورها يزداد بروزا اكثر فأكثر. وبلغ عدد النساء الصينيات العاملات ٤٧ مليون نسمة، اى ٦ر٣٦٪ من مجمل عدد العمال والموظفين فى الصين عامة. وتظهر المرأة الصينية فى الثمانينات بملامح جديدة اروع من الماضى.

كيف يعشن؟ وكيف يعملن؟ وكيف يحققن طموحهن؟ وكيف ينظمن حياتهن الاسرية؟ وكيف ينظمن علاقاتهن بأزواجهن واولادهن وغيرهم من الاقرباء؟ما مطامحهن؟ وما الافراح والاتراح التى تعبر حياتهن؟ . . .ردا على هذه الاسئلة تحمست اثنتان من المحررات فى دار النشر باللغات الاجنبية الى القيام باتصالات واسعة النطاق داخل الاوساط النسائية، واجرتا ما يزيد عن ٥٠ مقابلة صحفية مع النساء العاملات فى مختلف المجالات، وجمعتا معلومات قيمة عن حياتهن وعملهن ونفسياتهن ومعنوياتهن، وسجلتاها فى هذا الكتاب.

ويضم هذا الكتاب وصفا وتعليقا ومدحا و... يشمل احداثا تاريخية ومساعى حاضرة، وقصصا ... بعضهن.



...119-01233-9
...9P